طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية

منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث و المعاصر

তাবীয়াতুল আদাবিল আরাবী ওয়া ওয়াজীফাতুহুল ফান্নিয়্যাহ্

মুনযুল আসরিল জাহিলী হাত্তাল আসরিল হাদীস ওয়াল মুআসির

(NATURE OF ARABIC LITERATURE AND ITS ARTISTIC FUNCTION

SINCE THE AGE OF IGNORANCE UP TO THE MODERN & CONTEMPORARY AGE)

"M. PHIL" THESIS

RESEARCHER :
MOHAMMAD SOLAIMAN MIAN
DEPARTMENT OF ARABIC
UNIVERSITY OF DHAKA
REGISTRATION NO. 145/95-96

400408

Dhaka University Library
400408

ঢাকা
বিশ্ববিদ্যালয়
গ্রন্থাগার

SUPERVISOR :
PROFESSOR : A. N. M. ABDUL MANNAN KHAN
DEPARTMENT OF ARABIC
UNIVERSITY OF DHAKA

JUNE-2001

আ. ন. ম. আব্দুল মান্নান খান
এম. এম. (ঢাকা); বি.এ. অনার্স. ডবল স্বর্ণপদকপ্রাপ্ত;
এম.এ.(ঢাকা); আধুনিক আরবী বিশেষজ্ঞ (খার্তুম);
আধুনিক ফার্সী ডিপ্লোমা

অধ্যাপক ও প্রাক্তন চেয়ারম্যান
আরবী বিভাগ
ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয়

أبونعمان محمد عبد المنان خان
الأستاذ و الرئيس السابق
القسم العربى . جامعة داكا

A.N.M. Abdul Mannan Khan
M M. (Dhaka); B.A. Hons in Arabic (Double Gold Medalist);
M.A. (Dhaka); Specialist Diploma in Teaching Arabic. (Khartoum)

Professor & Ex. Chairman
Department of Arabic, University of Dhaka.
Bangladesh.
Phone : Off. 9661920-59, Ext. 4294
Res. 8618712
Fax : 880-2-861553

তারিখ : ২১/০৬/২০০১ ইং

Date : .....

প্রত্যয়ন পত্র

আমি প্রত্যয়ন করছি যে, ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয়ের আরবী বিভাগের এম. ফিল. গবেষক মুহাম্মাদ সোলায়মান মিঞা কর্তৃক উপস্থাপিত

طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية
منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث و المعاصر

তাবীয়াতুল আদাবিল আরাবী ওয়া ওয়াজীফাতুহুল ফান্নিয়্যাহ্
মুনযুল আসরিল জাহিলী হাত্তাল আসরিল হাদীস ওয়াল মুআসির
(NATURE OF ARABIC LITERATURE AND ITS ARTISTIC FUNCTION SINCE THE AGE OF IGNORANCE UP TO THE MODERN & CONTEMPORARY AGE)

শীর্ষক গবেষণা অভিসন্দর্ভটি আমার প্রত্যক্ষ তত্ত্বাবধানে লিখিত হয়েছে। গবেষনার প্রয়োজনীয় উপাদানগুলো আমার তত্ত্বাবধানে ও পরামর্শক্রমে গবেষক নিজেই যথাযথ ভাবে সংগ্রহ ও সংযোজন করেছে। এটি একটি মৌলিক গবেষণা কর্ম। আমার জানামতে ইতোপূর্বে কোথাও কোন ভাষাতেই এ শিরোনামে এম. ফিল. ডিগ্রী লাভের উদ্দেশ্যে এ বিষয়ে কোন গবেষণা কর্ম সম্পাদিত হয়নি। এই গবেষণা অভিসন্দর্ভটি এম. ফিল. ডিগ্রীর জন্য খুবই সন্তোষজনক। আমি এ গবেষণা অভিসর্ন্দভটির চুড়ান্ত কপি আদ্যন্ত পাঠ করেছি এবং এম. ফিল. ডিগ্রী লাভের উদ্দেশ্যে উপস্থাপন করার জন্য অনুমোদন করছি।

400408

অধ্যাপক আ. ন. ম. আব্দুল মান্নান খান
তত্ত্বাবধায়ক
আরবী বিভাগ
ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয়
ঢাকা।

তত্ত্বাবধায়ক
আরবী বিভাগ
ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয়

Dhaka University Institutional Repository

ঘোষণা পত্র

এই মর্মে ঘোষণা প্রদান করছি যে,

طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية
منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث و المعاصر

তাবীয়াতুল আদাবিল আরাবী ওয়া ওয়াজীফাতুহুল ফান্নিয়্যাহ্

মুনযুল আসরিল জাহিলী হাত্তাল আসরিল হাদীস ওয়াল মুআসির

(NATURE OF ARABIC LITERATURE AND ITS ARTISTIC FUNCTION
SINCE THE AGE OF IGNORANCE UP TO THE MODERN
& CONTEMPORARY AGE)

আমার বর্তমান অভিসর্ন্দভের বিষয় বস্তু পূর্ণ অথবা আংশিকভাবে আমি কোথাও প্রকাশ করিনি। এটি কোন যুগ্ন কর্ম নয় বরং আমার মৌলিক ও একক গবেষণা কর্ম।

- ২১/৩/০১

মুহাম্মাদ সোলায়মান মিঞা
এম. ফিল. গবেষক
আরবী বিভাগ
ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয়
ঢাকা।

400408

ঢাকা
বিশ্ববিদ্যালয়
গ্রন্থাগার

Dhaka University Institutional Repository

كلمـــة شـــكـر

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العلمين. و الصلاة و السلام على نبينا محمد و على آله و صحبه الطيبين الطاهرين، و مَنْ دعا بدعوته و اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

و بعد .....

فهذه رسالة أدبية فنية أعدَدْتُها تحت إشراف الأستاذ الفاضل أبى نعمان محمد عبد المنان خان، أستاذ بالقسم العربى بجامعة دكا، و يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة لأتقدم إليه بأخلص شكرى على تفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة التى أنجزتها بإرشاداته القيمة و توجيهاته الصائبة.

كما أتوجه بجزيل شكرى إلى جميع أساتذتى الكرام الآخرين بالقسم العربى على ما تلقيت منهم من الحقائق العلمية النافعة الثمينة، و أتقدم كذلك بجزيل شكرى و امتنانى الى المسئولين بكل من المكتبة المركزية بجامعة دكا، و مكتبة القسم العربى بالجامعة، و مكتبة المؤسسة الإسلامية ببنغلاديش-دكا، و مكتبة كلية أصول الدين بجامعة دار الإحسان بأتورا-دكا، و مكتبة إحياء التراث الإسلامى الكويتى بأتورا-دكا، و مكتبة المنتدي الإسلامى بأتورا-دكا، بجانب المسؤلين بسفارات الدول العربية بدكا و على وجه الخصوص المكتب الشعبى الليبى، و سفارة المملكة العربية السعودية، و الإمارات العربية المتحدة ... و جميع الإخوة العاملين بها الذين أتاحوا لى فرصة لمطالعة كتبهم القيمة، و زودونى ببعض الصحف و المجلات المختصة بالشئون العلمية و الأدبيةوالثقافية المتوافرة لديهم ... التى كانت عونا كبيرا فى إعداد هذه الرسالة الأدبية العلمية، فادعو الله سبحانه و تعالى أن يعطيهم خير جزاء، إنه سميع مجيب و هو نعم المولى و نعم الوكيل.

(محمد سليمان ميان)

Dhaka University Institutional Repository

محتويات الموضوعات

موضوعات — صفحة

✪ كلمة شكر ... ... أ

✪ مقدمة ١

✪ الفصل الأول : " الأدب " : ص ٦ - ٣٢

و يحتوى على مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية ٧

- المبحث الثانى : الفنون الأدبية وصلتها بنظرية "المحاكاة" الشهيرة ٢١

✪ الفصل الثانى : الشعر و وظيفته : ص ٣٣ - ١٦٨

و يحتوى على خمسة مباحث :

- المبحث الأول : مفهوم الشعر ٣٤

- المبحث الثانى : وظيفة الشعر فى العصر الجاهلى ٤٩

- المبحث الثالث : وظيفة الشعر فى عصر النبوة و الراشدين وبنى أمية ٦٩

- المبحث الرابع : وظيفة الشعر فى العصر العباسى ١٠٢

- المبحث الخامس : وظيفة الشعر فى العصر الحديث و المعاصر ١٢٣

✪ الفصل الثالث : أشهر الفنون الأدبية النثرية : ص ١٦٩-١٨٧

و يحتوى على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : المقامة ١٧٠

- المبحث الثانى : القصة ١٧٧

- المبحث الثالث : المسرحية ١٨٣

Dhaka University Institutional Repository

موضوعات — صفحة

✪ الفصل الرابع : الأدب و وظيفته الإنسانية العامة ١٨٨

✪ الخاتمة : ٢٠٣

✪ قائمة بأسماء المصادر : ص ٢١٠- ٢١٧

- أولاً : المصادر الدينية ٢١٠

- ثانيًا : المصادر العامة ٢١٠

- ثالثًا : الدواوين و المختارات الشعرية

و مجاميع النصوص الأدبية : ص ٢١٥-٢١٧

أ - الدواوين ٢١٥

ب - المختارات الشعرية ٢١٦

ج - مجاميع النصوص الأدبية ٢١٦

- رابعًا : الصحف و المجلات ٢١٧

Dhaka University Institutional Repository

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، وفضله علي سائر مخلوقاته بالعقل والتفكير ، سبحانه جلت قدرته جعل الأدب عاملا رئيسيا حافظا علي بقاء اللغة العربية التي هي لسان آخر رسالته السماوية الخالدة ، وأسهم في صياغة وجدان الأمة العربية الناطقة بهذه اللغة السامية وفي تقديم إشاعتها الفنية عبر العصور، وجعله انعكاساً لعلاقاتها الاجتماعية والثقافية ، محصلةً لموروثاتها الحضارية ، تعبيراً حقيقيا عن روحها في وقت كان إبداعه الفني جزءا من نضالها من أجل استمرار الذات وقهر القوى المهيمنة والمسلطة الأجنبية ... سبحانه عَظُمَ شأنه جعل الأدب متعةً للأرواح ، وحليةً للسان و سبيلاً إلي النجاح وعنوانًا على الرقي ودليلاً على الكمال ، ولا غرو فهو الوفي إذا خان كل صاحب والثقة إذا لم توثق بناصح ، لولاه لما بان الإنسان من سائر الحيوان إلا بتخطيط صورته وهيئة جسمه وبنيته ، ولا وجد إلي اكتساب الفضائل طريقا ، ولا وجد بشيء من المحاسن خليقاً . نحمده على نعمائه ونشكره على فضائله ، ونصلي ونسلم علي أفصح الناس لساناً وأشرفهم علماً وأفضلهم أدباً نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه إلي يوم الدين .

وبعد :

فهذه رسالة تتناول دراسة في " **طبيعة الأدب العربي ووظيفته الفنية** منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث والمعاصر " قمت بإعدادها لنيل درجة م. فيل (M. Phil) في القسم العربي بجامعة دكا خلال العام الدراسي ١٩٩٥- ١٩٩٦ .

Dhaka University Institutional Repository

وغايتي من هذه الدراسة القيام بعملية بحث ومراجعة لمسيرة الأدب العربي وحصيلته الفكرية الفنية عبر عصوره المختلفة ، وبيان إيجابياتها وسلبياتها وتقييمها تقييماً موضوعياً يكشف عن طبيعة هذا الأدب ووظائفه الفنية ، ومدى تلاحمه مع الواقع ونجاحه في أن يكون قوة مؤثرة في هذا الواقع وتطويره وإثراء مفاهيمه وقيمه السائدة ، وملامحه وما ينتظر منه من تفاعل ومواكبة للتحولات الاجتماعية .

إن عنايتي بالأدب العربي ترجع أولا و قبل كل شيء إلي أهميته الإنسانية الباقية وارتباطه بحياة الإنسان والواقع الذي يعايشه . فهو سجل حي لما رآه الناس في الحياة ، وما خبروه منها ، وما فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعا أهمية مباشرة وباقية تفوق كل أهمية ، وله كذلك دور قيادي وإيجابي في تحقيق سعادة الإنسان ، فهو في سبيل تحقيق ذلك الهدف المنشود يحث الإنسان دوما على الالتزام بكل القيم و المبادئ النبيلة السامية والتحلي بالأخلاق الطيبة ، ويمهد له سبل التقدم والازدهار فكرياً ووجدانياً ونفسياً بواسطة أداء فني مؤثر .

ولا يقف الأدب عند هذا الحد ولكنه يمتد ليواكب تحولات الإنسان ، فيواكب هذه التحولات وهو ينتج قصة مظاهر استقلال هذا الإنسان ، يواكبها وهو يصور أعمال بطولته ، يواكبها وهو يمجد تراثه ، يواكبها وهو يخوض المعارك الفكرية ويقيم الإنتاج الفني الذي يكتب له الأدباء في كل مكان ، يواكبها وهو يبحث عن كل ما يحقق له المزيد من الحرية والمزيد من الكرامة إثر رفض كل أوجه الظلم والاستعباد والقهر ، ورفع كافة القوانين والقيود الظالمة التي ترهقه وترهبه . وبذلك يبدو أن الأدب كنعمة أنعم الله تعالي به على نفر من عباده ، فأوجب عليهم بالتالي أن يشكروا تبارك وتعالي علي هذه النعمة الإلهية العظيمة ... وكسلاح فني أودعه تعالي في الأمة ، فحق

Dhaka University Institutional Repository

عليها أن تصون هذا السلاح وتطوره وتحسن في الانتفاع به وتعطي اهتمامـــا بالغا ببحثه ودراسته .

على أن المتطلع لتلك النعمة الإلهية وذلك السلاح الفني الفعال والنافع لا بد أن يدرس طبيعة الأدب العربي ووظائفه الفنية ويرجع إلى تاريخ نشـــأة هذا الأدب ، ويقوم بمتابعة واعية لمسيرته الفنية منذ مستهل أمره إلى قيام ثورة التغيير في الأنماط الفكرية والثقافية والفنية المتعارفة ووصولـــه إلي شواطـــئ الحديث والمعاصر والتطور .

وبما أن موضوع طبيعة الأدب العربي يعتبر حلقة من الحلقـــات الأدبيـــة المهمة الجديرة بالدراسة والتحليل ، ولا زال يكتنفها شيء من الغمـــوض ، لذلك اخترت ذلك موضوعاً لدراستي ، وبما أن الجوانب الأدبية قد تعددت لذلك تناولتُ هذا الموضوع من الناحية المذكورة وهـــــــــي :

" طبيعة الأدب العربي ووظيفته الفنية منـــذ العصـــر الجاهلي حتى العصر الحديث المعاصر "

ومما لاشك فيه أن آراء العلماء ووجهات نظرهم قد تنوعت في تحديـــد مفهوم طبيعة الأدب العربي و وظيفته الفينة بتطور العصور الأدبية المختلفة ، ولهذا حاولتُ في هذه الرسالة أن أدرس مفهوم طبيعة هذا الأدب ووظيفتـــه الفنية عبر تلك العصور الأدبية ابتداء من العصر الجاهلي وانتهاء إلي يومنـــا هذا .

وقد بدأتُ دراستي هذه بعرض طائفة من التعريفات التي يعـــرف بهـــا الأدب ، ولا يكون هذا العرض سوى إشارة سريعة إلي نظرات مختلفة توضح مفهوم طبيعة الأدب العربي ووظيفته الفنية منذ نشأته وتطوره التدريجـــي . كما تناولتُ بجانب هذه التعريفات المزيد من الحقائق المختصة بالأدب العربي

Dhaka University Institutional Repository

والتي تتصل اتصالاً مباشرا بهذا الأدب المجيد ووظيفتـــه الفنيـــة . ثم قمـــت باستعراض أهم الوظائف الأدبية الفنية من وظيفة الأدب وضرورته للحياة إلى جانب وظائفه التربوية والاجتماعية والنفسية والجمالية والثقافية والقوميـــة . وتحدثتُ بعد ذلك عن" الفنون الأدبية الشهيرة " من الشعر والقصة والمقامـــة والمسرحية وصلتها بنظرية "المحاكاة " الأدبية التي هي أهم وأقدم النظريات الأدبية في العالم ، والتي اهتدي إليها الفيلسوف اليوناني أفلاطون ، ثم أســـس هذه النظرية وأرسي دعائمها ، وقام بتقويم الفنون الأدبية على ضوئها تلميذه البارز أرسطو . وقد انتقلت هذه النظرية اليونانية إلي الأدب العربي القديم ، فاستفاد العرب من هذه النظرية خبر استفادة ، فاكتشفوا فكرة ارتباط الأدب بالحياة وأدركوا الصلة الوثيقة القائمة بين الشعر وما ســـواه مـــن الفنـــون الجميلـــة .

ثم تناولتُ مفهوم الشعر باعتباره أشهر وأقدم الفنون الأدبية وأكثرهـــا انتشارا بين الناس ، وقد حاولتُ في هذا الصدد عرض العديد من التعريفات وتقديم المزيد من الحقائق الأساسية المختصة التي تحدد هوية الشعر العربي المجيد وتكشف عن طبيعته وتبرز مكانه بين الفنون الأدبية الأخرى .

وألقيتُ بعد ذلك الضوء على وظائف الشعر العربي عصـــرا فعصـــرا ، ابتداء من العصر الجاهلي ثم عصر النبوة والراشدين وبني أمية ، ثم العصـــــر العباسي ، ثم العصر الحديث والمعاصر . وتتبعتُ بعد ذلك أشـــهر الفنـــون الأدبية النثرية مثل المقامة والقصة والمسرحية ، ودرستُ بعد ذلك " الأدب ووظيفته الإنسانية العامة " فأوضحتُ فيه فكرة التزام الأديـــب والشـــاعر بمسؤوليته تجاه الإنسان ، فيتخذ كل منهما أدبه وشعره وسيلة فنية جميلة تخدم كافة البشرية في جميع أنحاء العالم .

Dhaka University Institutional Repository

وكان طبيعيا أن أنهج في كل ذلك أسلوب اختصار غير مخل نظراً لقلـــة الفرص وضيق الوقت ، وأكتفي في كثير من الحالات بعرض الخطوط العامة دون الدخول إلي التفصيلات والجزئيات . وقد بذلتُ قصارى جهدي في إنجاز هذا العمل الأدبي ، إلا أن هذه المجهودات – دون شك – لن تكون كافية إذا قارنا بأهمية هذه الدراسة . والحكم بالنجاح موكول إلي الدراسة نفسها وليس لي سوى رجاء الخير .

هذا ، وفي نهاية المطاف قمت بوضع خاتمةٍ قدمـــتُ فيهـــا خلاصـــة ما تناولتْه هذه الرسالة العلمية ، ثم وضعتُ قائمة بأسماء المصادر والمراجـــع التي اعتمدت عليها أثناء إعداد الرسالة .

وكل ما أرجوه أن أكون قد وُفّقتُ فيما قدمته من خدمة متواضعة لهـــذا الأدب الذي أعتز به ، ولهذا التراث الذي أفاخر به ، وأسهمت بقسط كبير في تحديد هوية الأدب العربي المجيد ووظائفه الفنية الخالدة .

أسأل الله تبارك و تعالى أن يوفقني ويقبل مني هذا العمل الأدبي المتواضـــع ويكتبه خير سطر في سجل أعمالي ، ويجعله خالصا لوجهـــه الكـــريم ، ومـــا توفيقي إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلت وإليه مآب .

مقدم الرسالة

محمـــــد سليمـــــان ميـــان

Dhaka University Institutional Repository

الفصل الأول

"الأدب"

و فيه مبحثان :

- المبحث الأول : مفهوم طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية
- المبحث الثانى : الفنون الأدبية وصلتها بنظرية "المحاكاة" الشهيرة

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الأول

مفهوم طبيعة الأدب العربى و وظيفته الفنية

تفيد الدراسات و الأبحاث الأدبية أن كلمة "أدب" كلمة عربية تعنى (LITERATURE) فى الإنجليزية.[١] و قد تغيرت طبيعة هذه الكلمة و تطورت وظائفها بتطور حياة الأمة العربية و انتقالها من دور البداوة إلى أدوار الحضارة فى العصور المختلفة.

و إذا رجعنا إلى العصر الجاهلى نبحث فيه عن كلمة الأدب، لم نجدها تجرى على ألسنة الشعراء، و إنما نجد لفظة "آدب" بمعنى الداعى إلى الطعام، فقد جاء على لسان الشاعر طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكرى (٨٦-٦٠ قبل الهجرة/٥٣٨-٥٦٤م) :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ـ لاترى الأدب فينا ينتقر[٢]

و من ذلك المأدبة و هى الطعام الذى يصنعه الرجل و يدعو إليه الناس.

و منه حديث عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : (القرآن مأدبة الله فى الأرض) يعنى "مدعاته" شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لِمَ فيه خير و منافع.[٣]

و لم تصلنا أبيات و نصوص أخرى تدل على أن كلمة الأدب انتقلت فى العصر الجاهلى من هذا المعنى الحسى إلى معنى آخر.

و من جهته رأى الأديب الألمانى الشهير " كارل نالينو" أن هذه الكلمة استخدمت فى الجاهلية بمعنى السُّنَّة و سيرة الآباء مفترضًا أنها مقلوب

---

١ - منير البعلبكى "المورد" قاموس إنكليزى - عربى، دار العلم للماايين، بيروت ١٩٨٤. صـ ٥٣٤

٢ - د/شوقى ضيف، "تاريخ الأدب العربى" - العصر الجاهلى، دار المعارف، القاهرة- صـ ٧

٣ - الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير، "النهاية فى غريب الحديث و الأثر" تحقيق طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطفاحى، دار الباز للنشر و التوزيع، مكة المكرمة. ج-١ صـ ٣٥

Dhaka University Institutional Repository

"دأب"، فقد جَمَعَ العرب "دأبًا" على "آداب"، كما جمعوا "بئراً" على "آبار"، و "رأيًا" على "آراء"، ثم عادوا فتوهموا أن آدابًا جمع أدب، فدارت فى لسانهم كما دارت كلمة "دأب" بمعنى السُّنَّة و السِّيرة، و دلوا بها على محاسن الأخلاق و الشيم[١]

و رفض د/شوقى ضيف ما رآه و ما افترضه كارل نالينو فى هذا الصدد، و قال إنه فرض بعيد، و أقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسّى و هو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى و هو الدعوة إلى المحامد و المكارم، شأنها فى ذلك شأن بقية الكلمة المعنوية التى تستخدم أولاً فى معنى حسّى حقيقى ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى[٢]. و قد تطورت كلمة الأدب حتى استخدمت بمعنى التهذيب و الخلق فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم. فقد جاء فى الحديث الشريف فيما يرويه عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : "أدَّبنى رَبّى فأحسَنَ تأديبى". [٣] و وردت الكلمة كذلك بمعنى التهذيب و الخلق فى باب : ما جاء فى أدب الولد بالجامع الصحيح للإمام أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٠٩-٢٧٩/٨٢٤-٨٩٢م)...

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لأن يؤدب الرجلُ وَلَدَهُ خير مِنْ أن يصدق بصاع ..... "،[٤] كما استخدمها بهذا المعنى الخلقى الشاعر المخضرم/سهم بن حنظلة بن حاوان بن خويلد الغنوى (المتوفى ٧٠هـ/ ٦٩٠م) إذ يقول :

لا بمنع الناسُ منى ما أردتُ و لا - أعطيهم ما أرادوا حُسنَ ذا أدبًا[٥]

---

١ - كارل نالينو. "تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية". طبع دار المعارف. القاهرة. صـ ١٤ و ما بعدها.

٢ - د/شوقى ضيف، "تاريخ الأدب العربى"- العصر الجاهلى، صـ ٨

٣ - العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى (المتوفى ٩٧٥ هـ) "كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال" ضبطه و فسر غريبه الشيخ بكرى حيانى، تصحيح الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م . ج-١١، صـ ٤٠٦

٤ - الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى "الجامع الصحيح." طبع دلهى جـ ٢، صـ ١٧

٥ - د/شوقى ضيف، "تاريخ الأدب العربى" - العصر الجاهلى صـ ٨

Dhaka University Institutional Repository

و أطلقت كلمة الأدب على معنى التعليم فى العصر الأموى، و اشتق منها بهذا المعنى المؤدبون الذين كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمع إليه نفوس آبائهم من معرفة الثقافة العربية و يلقنونهم الأشعار و الخطب و أخبار العرب و أنسابهم و أيامهم فى الجاهلية و الإسلام.(١) و إذا انتقلنا إلى العصر العبَّاسِى وجدنا الناس يستخدمون كلمة الأدب بمعنى التهذيب و التربية معًا، و خير شاهد على ذلك رسالتا الكاتب الشهير أبى محمد عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٣ هـ/٧٢٤-٧٥٩م)، فقد سمى الكاتب الرسالتين باسم "الأدب الصغير" و "الأدب الكبير"، و جمع فيهما ضروبًا من الحكم و النصائح و النماذج الخلقية و السياسية، و بنفس هذا المعنى سمى الشاعر حبيب بن أوس الطائى المشهور بأبى تمام (١٩٠هـ - ٢٣١ هـ) الباب الثالث من ديوان الحماسة باسم "باب الأدب" الذى جمع فيه مختارات من الثروة النفيسة من الأشعار العربية المحتوية على معانى التهذيب و التربية. ففى هذه الأزمنة أى القرنين الثانى و الثالث من الهجرة و ما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب و أخبارهم، و أخذ العلماء يؤلفون بهذا المعنى كتبًا سموها كتب ادب، مثل "البيان و التبيين" لأبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ البصرى (١٥٩ - ٢٥٥ هـ /٧٧٥ - ٨٦٨م) و الذى جمع فيه ألوانًا من الأخبار و الأشعار و النوادر مع ملاحظات نقدية بلاغية كثيرة، و مثله كتاب "الكامل فى النحو و اللغة و الأدب" لأبى العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الإزدى المعروف بالمبرد (٢٢٠ - ٢٨٥ هـ / ٨٢٦ - ٨٩٨م)، كما استخدمت الكلمة منذ القرن الثالث الهجرى بمعنى السنن التى يجب أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس، مثل أدب الكاتب لأبى محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدنيورى (٢١٣ - ٢٧٦هـ/٨٢٨ - ٩٨٩م)(٢).

و لم تقف كلمة الأدب عند هذا المعنى التهذيبى و التربوى الخاص بالأشعار و الأخبار و النوادر، بل اتسع معناها ليشمل كل المعارف غير

---

١ - مجدى و هبه و كامل المهندس، "معجم المصطلحات العربية فى اللغة و الأدب" - طبع مكتبة لبنان، بيروت - ١٩٧٩م. صـ ١٣

٢ - د/مصطفى الشكعة، "مناهج التأليف عند علماء العرب" طبع دار العلم للملايين، بيروت ط ٣، ١٩٧٩ صـ ٧٦ و ما بعدها، ١٦١ و مابعدها، ١٨٣ و ما بعدها، ٢٠٥ و ما بعدها ٤٨٩ و ما بعدها.

Dhaka University Institutional Repository

الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى و الثقافى. و بهذا المعنى الواسع نجدها فى القرن الرابع الهجرى. فقد أطلقت على علوم اللغة و البيان، و التاريخ و الأخبار، و علوم السحر و الكيمياء و الحساب، و المعاملات التجارية.

و من جهته أطلق أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمى المعروف بابن خلدون (٧٣٣ - ٨٠٧هـ/١٣٣٢ - ١٤٠٦م) كلمة الأدب على جميع المعارف دينيةً أو غير دينية، فهى تشمل جميع ألوان العلوم و خاصة علوم البلاغة و اللغة و من ثَمَّ قال : "الأدب هو حفظ أشعار العرب و أخبارهم و الأخذ من كل علم بطرف"(١)

هذا، وحدث تطور فنى هام فى مفهوم الأدب منذ انبلاج العصر الحديث الذى يبدأ اعتباراً من الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م. فأخذت كلمة الأدب تدل على التعبير عن معنى من المعانى الجميلة بحيث يؤثر فى عواطف القارئ و السامع على نحو ما هو معروف فى صناعتى الشعر و فنون النثر الأدبية مثل المقامات و القصص و المسرحيات وغيرها.

فقد قال الأديب المصرى البارز د/محمد منذور(١٣٢٥- ١٣٨٤هـ /١٣٠٧ - ١٩٦٥م) "إنّ الأدب يعنى صياغة فنية لتجربة بشرية". (٢)

و قال أبرز الأدباء المعاصرين د/عبد الحميد محمود المسلوت" أن التعبير شعراً أو نثراً الذى يهز المشاعر و يثير الانفعال، و يسجل العواطف، و يحكى ألوان الإحساسات و الانطباعات هو الأدب"(٣)

و يتضح من هذا التعريف أن الأدب يجب أن تتوفر فيه عناصر أربعة و هى : العاطفة، الفكرة، الخيال و الصورة.

هذه طائفة من التعريفات التى يعرف بها الأدب العربى، و لكنه ينبغى ألا نقف عند هذه التعريفات فحسب، بل يجب علينا كذلك تقديم المزيد من الحقائق الخاصة بهذا الأدب و التى تتصل اتصالاً مباشراً بطبيعته و وظائفه الفنية.

---

١ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) "المقدمة" نشر على عبد الواحد وافى، طبعة لجنة البيان العربى/القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م صـ ٤٠٨

٢ - د/محمد منذور : "الأدب و مذاهبه"، طبع دار النهضة للطبع و النشر، القاهرة. صـ ٦

٣ - د/عبد الحميد محمود المسلوت : "الأدب العربى بين الجاهليه و الإسلام"، منشورات جامعة قاربونس، بنغازى، ليبيا.

Dhaka University Institutional Repository

لاشك أن كل إنسان له حظ من الثقافة يعرف بصورة أو بأخرى ما الأدب؟ و أن ما يعرفه شخص عن ذلك قد يختلف عما يعرفه غيره أو يفترق عنه قليلاً أو كثيراً، و لكنهم جميعًا يستخدمون كلمة الأدب استخدامًا متقاربًا حين يطلقونها على شئ يقرأونه أو يستمعون إليه.

و تفيد الدراسات و الأبحاث الأدبية أن الأدب يتكون من تلك العناصر التي لها أولاً و قبل كل شئ أهمية إنسانية عامة، فهو بصورة أساسية يُعَدُّ "تعبيراً عن الوجدان و مرآة للمشاعر العميقة، و هو بالتالى يلعب دوراً فعّالاً فى صياغة وجدان الناس و طموحاتهم، و تكوين شخصياتهم و توجيه سلوكهم، إلى جانب تصفية شعورهم وصقل ذوقهم و إرهاف إحساسهم و استثارة تفكيرهم، و تعميق خبراتهم و تحريك خيالهم، و استطلاع تجاربهم". (١)

و بذلك يتضح أن للأدب صلة وثيقه بالحياة. و أن هذه الصلة الوثيقة القائمة بين الأدب و الحياة هى السر فيما يتضمنه الأدب من متعة و منفعة. فالإنسان بطبيعته يحب أن يرى الحياة المنقولة إليه، و يحب أن يجلس فى مكان ليشاهد الحياة تمر به جزئياتها فى سلسلة متصلة الحلقات، و هذه المتعة تتحقق فى جلوسه لقراءة الفنون الأدبية، أو مشاهدة أحد الأفلام أو إحدى المسرحيات النافعة، و لكن قيمة الفنون الأدبية التى يقرأها الإنسان، أو الأفلام و المسرحيات التى يشاهدها لاتقف عادة عند مجرد قضاء سويعات فى استعراض مشاهد ممتعة من الحياة، بل أنه يمضى بعد الفراغ من القراءة أو المشاهدة ليناقش ما قرأه و ما شاهده. و هنا يتمثل ما للأدب من نفع حين يعمق فهمنا للحياة، بل أكثر من هذا حين يوجه حياتنا.

و علينا أن نفهم أن الأدب لاينقل إلينا الحياة حقًا كما هى نقلاً حرفيًا، و لكنه يعبر عنها، و قد يقال إنه يفسرها، و قيل أيضا إنه ينقدها، و بإمكاننا أن نقول إنه ينقل إلينا فهم الأديب للحياة من خلال تجاربه الشخصية. (٢)

إن الأدب ككائن حىّ متجدد الحيوية و متجدد الحرارة، و له شخصية ممتلئة بالقوة، و لكنها شخصية أميز ما فيها أنها مرنة و ليست صلبة، فهو

---

١ - د/عز الدين اسماعيل : "الأدب و فنونه" طبع و نشر دار الفكر العربى صـ و ما بعدها.

٢ - المصدر السابق صـ ٢٢

Dhaka University Institutional Repository

كالنبات و الحيوان و إلانسان يتكيف بحسب البيئة التى يوجد فيها. و ترجع هذه القدرة على التكيف إلى المرونة التى تتمتع بها شخصيته. و هو كلما اختلفت عليه الأزمنة و الأماكن راح يتكيف مع البيئة الجديدة، و لو لا هذه القدرة على التكيف و لو لا هذه المرونة التى تتمتع بها شخصيته لوجدناه ينقرض و يزول. إن الشخص لايعيش إلا بما فى شخصيته من مرونة يواجه بها صروف الحياة، فيتكيف معها و يتغلب بذلك عليها، و يستمر بعد كل محنة فى وجوده الحى النابض، و تزداد بذلك شخصيته قوة على قوة. فشخصية الأدب من هذا النوع، و لكنها شخصية جبارة، إنها شخصية قد اكتسبت قوتها من آلاف التفاعلات التى مرت بها فى حياتها الطويلة.

إن الأدب بقوة شخصيته يجعل الإنسان يتفاعل مع فنونه، و مع الأشخاص الذين تدور حولهم أنشطته، فيتخذون فى كثير من الأحوال من الشعراء و الممثلين ... أصدقاء لهم، و يطيلون صحبة قصيدة من القصائد أو قصة من القصص أو مسرحية من المسرحيات، و يعتزون بها، و بذلك يؤثر الأدب فى الإنسان، فيتأثرون به، و لكن يمضى الإنسان جميعًا، و تبقى شخصيته هى محتفظة بحصيلة تلك التفاعلات متمتعة بما أفادت من تأثرات آلاف من الإنسان الذين صاحبوها فى وقت من الأوقات و تفاعلوا معها.[1]

إن الأدب-كما قلت سابقًا - يعد تعبيراً عن الحياة، و أن اللغة هى الوسيلة الأولى للتعبير عن هذه الحياة، فالإنسان يستخدم اللغة كل يوم و كل دقيقة فى قضاء أموره و ربطه بالآخرين، و لكن اللغة فى الأدب تختلف عن هذا، لأنها لاتكون فى كل الأحوال تلك الأداة الطيعة للتعبير عن المعنى أو الفكرة أو الشعور التى يريد الأديب نقلها إلى السامعين، و لذلك ينبغى أن يحتوى الأدب على الألفاظ و الكلمات ذات الإيحاءات الفنية الدالة على المعنى المراد و المؤثرة فى النفوس. إن الأدب من حيث بناءه اللغوى يستغلُّ كل إمكانيات اللغة الموسيقية التصويريه و الإيحائية القادرة على أن ينقل إلى المتلقى خبرة جديدة منفعلة بالحياة. كما ينبغى أن يحتوى الأدب على اللغة السائدة فى مجتمعه، و هو لكى يوصل فكرته أو شعوره إلى الآخرين مضطر لاستخدام هذه

---

١ - المصدر السابق صـ ٢٨ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

اللغة التى يتعامل بها الناس فى المجتمع، فإننا لانجد أدبًا فى القرن الحادى و العشرين يستخدم لغة القرون الوسطى.

هذا، و لايستطيع الأدب أن يبقى بعيداً عن مجتمعه، بل يرتبط دوماً بالمجتمع، لأنه ينبت من صميم الحياة التى يحياها أفراد هذا المجتمع و يفيد من كل المؤثرات التى تتصل بالظروف المحيطة بهم، و يتناول الحقائق و المشكلات التى تتصل بهم اتصالاً مباشراً بوصفهم كائنات تعيش فى المجتمع.

و بذلك يتضح أن "الأدب هو تعبير عن المجتمع"[1] فهو فى أى زمان من الأزمنة يُعَدُّ مرآة تنقل أحوال المجتمع، و أفراده و عصره، و ظروفه و مقتضيات حياته، كما تصور مظاهر هذا الواقع الاجتماعى. و أن الأدب من خلال موقفه الفكرى من واقع الحياة فى مجتمعه يقدم إليه العديد من المبادئ و القيم الجديدة النافعة التى تساعده على تغيير و تعديل المبادئ و القيم الاجتاعية القديمة الفاسدة.

هذه خطوة عامة تصور مفهوم الأدب العربى و طبيعته الخاصة و علاقاته بالحياة العامة و المجتمع. و ينبغى أن نقف هنا قليلاً للتعرف بشيء من التحليل على و ظائف هذا الأدب، و الكشف عن أهمية الدور الذى تلعبه هذه الوظائف فى تشخيص واقع الحياة بفلسفة واقعية تنبثق من أعماق تراث الأدب العربى.

و مما لاسك فيه أنّ من طبيعة الإنسان أنه لايعمل عملاً إلا أن يكون وراء هذا العمل هدف يريد تحقيقه أو غاية يسعى للوصول إليها. و لايوجد هناك شخص يبذل جهده لإنجاز عمل ما دون أن يكون وراء هذا العمل غرض إما يخص بمفرده أو بالجماعة التى يعيش معها فى المجتمع. و من المعروف أنّ الاعمال الأدبية من أرقى الأنشطة الفكرية للإنسان، و هى تمثل ثمرة خبراته العقلية و العاطفية عبر العصور و الأزمان، فهل ياترى إنّ هذه الإنتاجات الفكرية و العقلية الإنسانية تؤدى وظيفة ما أم هى مجرد خطوط على الأوراق لاهدف لها؟ و بعبارة أخرى هَلْ للفنون الأدبية و ظيفة تذكر أم هى مجرد أنشطة فكرية لا وظيفة لها؟

---

١ - المصدر السابق صـ ٤٣ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

و تتضح من خلال الدراسات و الأبحاث الأدبية أن للفنون الأدبية وظائف كثيرة، و بإمكاننا استعراض أهم هذه الوظائف على النحو التالى :

أولاً : وظيفة الأدب و ضرورته للحياة . . .

تعوّد الإنسان منذ القدم على التعبير عما يحسُّهُ و يشعر به، فكان يشكل مظهراً من مظاهر الإفصاح عن الذات، و بواسطة التعبير انتقلت الخبرة و المعرفة من جيل إلى جيل. و قد أسهمت هذه الوظيفة و ضرورتها للحياة فى إحياء الثراث الماضى، و وصله بالحاضر، و إيقاظ وعى الإنسان وحثه على أن يكون على صلة مباشرة بتاريخه و تراثه، لأن هذا الاتصال يساعده على إتقان لغته و فنونه و يشده إليه بما يحمله من قيم و مثل عربية و إنسانية تتلائم مع ظروف حياة الإنسان و ظروف العصر الذى يعيشه اليوم بكل تطوراته و مخترعاته العلمية و التقنيات المستحدثة، و يزوّد الإنسان بزاده ويَدْفَعُهُ للإبداع و الخلق و الإبتكار فى الحياة تمشيًا مع ظروف العصر الحاضر، مما أدى إلى جلب ظاهرة لها تأثير كبير على تحول مجرى الحياة و أنماطها الثقافية و الفكرية و إحداث التطور فى النظم الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية فى كثير من البيئات الإنسانية، و إثارة العواطف و المشاعر، و توثيق الصلات الوجدانية بين الناس، و توجيه حياتهم.

و بالتالى نرى الأدب يعمل على ربط الماضى بالحاضر و ذلك توطئةً و استعداداً للمستقبل، إذ أن كل مجتمع يحتفظ بتراثه الثقافى الأدبى فى مختلف مناحى الحياة الإنسانية، و من ثَمَّ ينمى خبراته عن طريق مراجعته و ربط الأحداث بعضها ببعض.

و هكذا يؤثر الأدب فى سلوك الأفراد الذين ينتمون إليه، و ذلك عن طريق عملِيات الاتصال و الاحتكاك بين المجتمعات الإنسانية.[1]

---

١ - مقال بعنوان : "الوظائف التربوية للأدب العربى الحديث" بقلم د/عبد المجيد أحمد المشاى، نشرتة "صحيفة الزحف الأخضر"، العدد ٢٦٤٧ - ٢٦٤٨ بتاريخ ١٩٩٩/٤/٣٠م

Dhaka University Institutional Repository

ثانيًا : البُعد التربوى للأدب . . .

إن وظيفة الأدب فى الحياة وظيفة ذات شأن عظيم، لأن التربية مهما اختلفت أهدافها و تنوعت طرائقها فهى تستهدف فى نهاية المطاف الوصول بالفرد و الجماعة إلى السلوك و الخلق الكريم و العادات و التقاليد الفاضلة، و يلعب الأدب دوراً حيوياً فى اندماج الفرد مع مجتمعه، وله دور أساسى فى حركة سير المجتمع، و تفجير إمكانات الأمة.

و يتضح من خلال استقرائنا لحركات المجتمعات الإنسانية التى حدثت فى الماضى، و تحدث فى الحاضر، و ستحدث فى المستقبل، أن المحرك لحركات المجتمعات الإنسانية هو الأدب الذى يشعر دومًا بشعور شعبه، و أحاسيسه و طموحاته و آماله المستقبلية، و يتغنى بما تحس به أمته. و المتتبع لتاريخ الأدب العربى فى كل مرحلة من مراحله الطويلة يشهد بالدور الذى أسهم به هذا الأدب المجيد، و يتجلى هذا الإسهام بوضوح فى محاربة القوى الاستعمارية الأجنبية فى العصور المختلفة، و لاشك أن نصيب الأدب العربى يُعد نصيب الأسد فى هذا المضمار. كما أن الأدب يعتبر صورة صادقة و واقعية للبيئة و الحياة فى مختلف العصور و الأزمنة، فهو مرآة تنعكس عليها حياة أمته ماضيها و حاضرها و مستقبلها، و عاداتها و تقاليدها، أديانها و معتقداتها و آمالها، و أمانيها . . .

و من هذا نستخلص أهمية الدور الحيوى الذى يلعبه الأدب فى حياتنا، فهو يستهدف صقل النفوس و جلاء معدنها و تطهيرها من أدرانها.[1] و لعلّ ذلك هو ما عَبَّر عنه رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم فى قوله : "أدّبنى رَبّى فأحسن تأديبى."[2] فالأدب هو الميدان العام للحياة، يُشرك الناسَ فى هذا الميدان و يجريهم حوله بأسلوبه المتميز و لغته الرفيعة، و عاطفته الجياشة. و الأدب الحق هو الذى ينبثق من تعاليم ديننا المستقيم الذى يكون معبراً عن الحياة، محافظًا على شخصيته، ممتد الجذور إلى ماضيه، محافظًا على لغته الجميلة و أسلوبه الرفيع، و الأدب الحق الواقعى هو الذى يستهدف بناء

---

١ - المصدر السابق.

٢ - العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى، "كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال" ج ١١- ص ٤٠٦

Dhaka University Institutional Repository

الشخصية المتكاملة المتناسقة المتوازنة المتطورة لتدرك الحق و تقصد الخير و تهوى الجمال.

و لذلك نجد أن الأدب يعمل على إيجاد الشخصية التى تنظر إلى فلسفة الحياة بمنظر أبيض بهدف تحقيق سعادة و حرية هذه الشخصية من جميع جوانب الحياة المادية و المعنوية، و بالتالى فإن هذه النظرة تختلف عن نظرة الآخرين لواقع الحياة.

و هكذا يعمل الأدب دائمًا على تقوية الإرادة الحرة و التفكير الموضوعى الذى يهدف إلى تبيان الحقيقة و التمسك بمبادئ الفضائل و الخصال الحميدة.[1]

ثالثًا : البعد الاجتماعى للأدب . . .

يلعب الأدب دوراً حاسمًا فى التحولات التى تشهدها المجتمعات الإنسانية قاطبة بما يحمل من إثارة للفكرة و العاطفة و نقد لفلسفة الحياة الاجتماعية. و قد ساهم مساهمة مباشرة فى صنع الأحداث الاجتماعية. فهو يعمل لتحقيق علاقات اجتماعية منسجمة متمثلة فى حفظ الثرات الإنسانى و نقله من جيل إلى أخر، و إشباع حاجات و مطالب الفرد و المجتمع.

كما يعمل الأدب كأداة اتصال و تفاهم و نماذج بين مختلف الثقافات الإنسانية، و تبادل الخبرات و الأفكار و التصورات بين الأفراد و المجتمعات، و يساعد الفرد على التكيف مع الجماعة و تعديل سلوكه، و ربط الماضى بالحاضر توطئةً و استعداداً للمستقبل، لأن كل مجتمع يحتفظ بتراثه الثقافى و من ثم ينمى خبراته عن طريق مراجعة تلك الخبرات و ربط الأحداث بعضها ببعض.[2]

رابعًا : البعد النفسى للأدب . . .

يعمل الأدب بمختلف فنونه على إشباع حاجات الفرد، و ذلك بالتعبير عنها و إظهارها فى إطار مادى محسوس كالشعر و القصة و المسرحية و بقية

---

١ - مقال "الوظائف التربوية للأدب العربى الحديث" بقلم د/عبد المجيد أحمد المشاى.

٢ - المصدر السابق.

Dhaka University Institutional Repository

الفنون الأخرى و التى بواسطته يشعر الفرد بالراحة و الطمأ نينة. "و لم يعد هناك خلاف على أن الأدب هو الذى يمهد سبل سعادة الفرد و اطمئنانه فكريًا و وجدانيًا و نفسيًا و ذلك بواسطة أداء فنى و أشكال فنية تختلف فى مستوياتها و أعماقها و إيجازها و طولها، و حدودها الضيفة أو انتشارها، و أن هذا الأداء الفنى و هذه الأشكال الفنية تفعل دومًا فعلها فى نفوس المتلقين"[1] فتجعلهم يشعرون بالارتياح النفسى.

كما تفيد الدراسات و الأبحاث أن الأدب من الناحية النفسية يعمل على تنمية المواهب و القدرات الإبداعية و إغناء الفكر و تذوق المعانى و الظواهر الفنية، فعندما يعبر الفرد عن فكره و مايحيط به بأساليب شعرية أو قصصية أو مسرحية فتحدث لديه أشباعًا لما يريد تصويره أو التعبير عنه.

و هكذا يلعب الأدب دوراً ملموسًا فى تشكيل نفسية الفرد حيث يستطيع بواسطته تحليل المواقف المختلفة بهدف تطبيقها على مواقف مشابهة، كما أنه يستطع بواسطته إثارة أفكار و عواطف الآخرين بغية التأثير على نفسيات سلوكهم من اجل إحساسهم و إشعارهم بقيمة الشيء الذى يعبر عنه الأدب بمختلف فنونه بهدف إشباع الحاجات و المطالب النفسية التى تُشعِر الفردَ بالراحة إذا ما عَبَّرَ عنها تعبيراً صادقا و صريحًا.[2]

خامسًا : البعد الجمالى للأدب . . .

تتصل وظيفة الأدب الجمالية بالوظائف النفسية، و تعكس الجوانب المختلفة عن طريق اللغة الأدبية، كما أن الرسام و الفنان كل منهما يعبر بالأدوات المرسومة أو المنحوته عن الطبيعة و غيرها، فبإمكان الأديب كذلك أن يعبر عنها و يصور مشاهدها بلغته و أفكاره و وسائله الأدبية الجميلة. و بذلك يتضح أن القيمة الجماليه تكمن فى جوهر الأدب ذاته.[3]

---

١ - مقال بعنوان : "نقاط حول الثورة و الأدب" للأستاذ/عبد الله القويرى، نشرته مجلة الفصول الأربعة، العدد ٣ ديسمبر ١٩٨٩م

٢ - مقال "الوظائف التربوية للأدب العربى الحديث" بقلم د/عبد المجيد أحمد المشاى.

٣ - المصدر نفسه

Dhaka University Institutional Repository

و من المعروف أن العمل الفنى-كما يرى رائد الاتجاه البرناسى "كانت" (١٧٢٤-١٨٠٤) ذو خصائص جوهرية بها تتوافر له صفة الجمال. و أن جماله المحض لايتمثل فى سوى شكله، بل يتجلى هذا الجمال فى الصورة و المضمون و الموسيقى، فالجمال هو الذى يروق كل الناس، دون حاجة إلى أفكار عامة مجردة، و ذلك أنه لاسبيل لنا إلى معرفة شيء عام دون أفكار تجريدية إلا الجمال، فإننا نستطيع أن ندركه و هو محسوس، و نُقَوِّمُهُ على هذه الحالة تقويمًا عامًا مشتركًا بين الناس، دون حاجة إلى أفكار مجردة. (١)

و تفيد للدراسات الأدبية أن مبدأ الجمال فى الأدب يُعَدُّ اَمراً ضرورياً فى الفرد و المجتمع. فالإهتمام بهذه القيمة الجمالية و تنميتها وصقلها تعتبر وظيفة من الوظائف الأساسية التى تسعى إليها الفنون الأدبية الحديثة. فإذا استطاع الإنسان أن يأتى بأصوات حسنة فإنه يكون إذاً متحدثًا لبقًا أو موسيقيًا بارعًا أو شاعراً ممتازاً. و من أهم خصائص الأدب العربى فى جميع عصوره أنه زاخر بالصور و النماذج الجمالية التى تساعد على تنمية التذوق الأدبى لدى الإنسان، و يجعلهم مرتبطين بالماضى، و يستمتعون بالصور البلاغية الجمالية التى تمدهم بنوع من الرضا النفسى و الوجدانى و الإحساس بالقيم الأدبية الجمالية التى تعمل على أن تجعل من الإنسان رجالاً مهذبين، فالأدب بمافيه من قوة عاطفة إنسانية و نقد للحياة، و إبراز لنواحيها المختلفة و تصوير للطبيعة كفيل بأن يحقق لهم مايحتاجون إليه من تربية الذوق الجمالى. (٢)

سادسًا : البعد الثقافى للأدب . . .

يعتبر الأدب مرآة فعلية تنقل أحوال أمته و تصور ما لهذه الأمة من مظاهر الثقافة التى هى نسيج الحياة الإنسانية و الخلقية و الاجتماعية فى الأمة و ما تمكلها من الأنشطة الفكرية و الفنية و العقائدية و مايتصل

---

١ - د/محمد غنيمى هلال، "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده"، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة صـ ٩١ و ما بعدها.

٢ - مقال بعنوان : "الوظائف التربوية للأدب العربى الحديث" بقلم د/عبد المجيد أحمد المشاي.

Dhaka University Institutional Repository

بـها من المهارات المـوصولـة و الخبرات المكتسـبة التى تتكون فى المجتـمع من علـوم و فنـون و قوانيـن و عـادات و تقاليد و أعراف. (١)

و تشكل هذه الثقـافـة بفروعـها المختلفـة القلب النابض للأمـة و الدليل القاطع على حيـويتهـا و رقـيها و تأثيـرها فى الحيـاة و انصهارها فى مـجمل النشاط الفكرى الإنسانى و على نوع وجودها و فاعليتها. (٢)

و لاشك أن الأدب العربى قد حقق فى هذا المجال إنجازات رائعة خلاقة مهـمة تعكس صورة صادقة للتوصل الثقافى الفكرى الحضارى بين الأقطار العربيـة من ناحيـة و بينهـا و بين الأمـة الإسلاميـة من ناجيـة ثانيـة على مدى حقب التاريخ الطويل لتقوم بدورها الواعى و الفعّال فى إثراء الثقافة العربيـة الإسلامـيـة الأصيلة و المهافظة عليـها و الدفـاع عنهـا و مواجهـة كل أنواع التحديات و المخططات الأجنبيـة الشريرة التى تهدف إلى تدمير هذه الثقافة العربيـة الإسلامية المجيدة و تضييق الخناق عليها، و إصابة لغتهـا و علومـها و فنونها و آدابها السامية.

لقد استطاع الأدب العربى أن أدى ما هو مطلوب منه فى حماية الثقافة العربية الإسلامية و استمرارها، و إغنائها و تطويرها، كما لعب هذا الأدب دوراً هامًا فى مواجهة ماتعرضت له أمته على مدى العصور الماضية الطويلة من غزو ثقافى فكرى خطير شنه أعداء الأمة بهدف تشويه ثقافة هـذه الأمـة المجيـدة و محو شخصيتـها و نقلها رويداً رويداً من مجراها العقلى الأول إلى مجرى أخر يرسمه لها الأعـداء، و يدفعونها إلى هذا المجرى من أجل تسهيل سبل تنفيذ مخططاتهم العدوانية الهادفـة إلى الهيمنـة و الاستعـمار و من أجل تكوين أجيال من الأمة العربية الإسلامية تنظر إلى ماضيها على أنه أنقاض و مخلفات يجب أن تختفى ليحل محلها بناء جديد يريده فى الواقـع، و يرسـم حقيقتـه الاستعـمار الغازى تحقيـقًا لأغراضـه الاجتماعية

---

١ - من بحث بعنوان : "نحو مواجهة مجدية للغزو الثقافى" إعداد د/إبراهيم الزروق الشريف، أستاذ علوم السياسة الاجتماعية و التخطيط الإجتماعى، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الفـاتح بطرابلس، نشـرته صـحـيـفـة "الفـجـر الجـديد" عـدد ٩٤٦٤ الصـادر بتـاريخ ٢٠٠٠/١/٢٥م.

٢ - د/عبد الحميد عبد الله الهرامة : "أعمال ندوة التوصل الثقافى بين أقطار المغرب العربى" طرابلس، ليبيا، صـ ٦٥٥

Dhaka University Institutional Repository

و الإقتصادية و السياسية.[١] و ذلك تصديقًا لقوله عز و جلّ شأنه تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : (ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسد من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)[٢] و قوله تبارك و تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : (لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملتهم.)[٣] (صدق الله العظيم)

و لا يزال الأدب العربى يؤدى دوره التاريخى العظيم من أجل المحافظة على هوية الأمة العربية الإسلامية و إحباط كل المؤامرات و المخططات الشريرة التى تستهدف كل مجالات حياة هذه الأمة و جميع ما يتصل بصلة لهوية الأمة و ثقافتها.[٤]

و من هنا نجد الأدب العربى يعمل دومًا على تنمية الثقافة العربية الإسلامية و المحافظة على استقلالها و سيادتها حتى لن تخضع هذه الثقافة الأصيلة للثقافات الأجنبية المزيفة.

سابعًا : البعد القومى و الوحدوى.

يعتبر الأدب عبر العصور وسيلة الدفاع عن المبادئ و القيم الفاضلة، و النضال من أجل تحقيق الأهداف السامية، و هى الخير و الحق و الجمال.

و هكذا فلاتوجد أمة على وجه الأرض مستعدة لأن تتنازل عن تراثها الأدبى إلا إذا شاء لها جهلها أن تتيه فى صحارى النسيان فلا لها و لا عليها، و أن تعيش حياة الغاب يمزق بعضها بعضًا و يأتى بعضها على بعض، و تنظر إليها الأمم نظر احتقار، فإمّا مُتَجَنّبًا و امَّا صيداً. و أن أهم خصائص الأمم البشرية أنها تقبل على تراثها الأدبى و تنفق فيه نفائس الأموال و الأعمال دراسة له، و مدافعة عنه و محافظة عليه كاملاً نقيًا مشرقًا يبرز مكانتها التاريخية و يعزز دورها فى الحياة.[٥]

---

١ - من بحث بعنوان : "نحو مواجهة مجدية للغزو الثقافى" إعداد د/ابراهيم الزروق الشريف
٢ - سورة البقرة، الآية - رقم : ١٠٩
٣ - سورة البقرة، الآية - رقم : ١٢٠
٤ - د/عبد الحميد عبد الله الهرامة : أعمال ندوة التواصل الثقافى بين أقطار المغرب العربى. صـ ٨
٥ - مقال بعنوان "الوظائف التربوية للأدب العربى الحديث" بقلم د/عبد المجبد أحمد المشاي،

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الثانى

الفنـــون الأدبيـــة
و صلتها بنظرية "المحاكاة" الشهيرة

تفيد الدراســات و الأبحاث الأدبيــة أنَّ الأدب باعتباره أداة تعبيــر عــن الحــيــاة و المجتمع يحتوى على صور تعبيرية متنوعة، يمكننا أن نسمها بالفنــون الأدبيــة. و لاشك أن هناك فنونًا أدبيــة كثيــرة، و من أهم هذه الفنون الأدبية و أكثرها انتشاراً بين الناس هى : الشعر، و المقامة، و القصة، و المسرحية.

و كان علينا أن ندرس هذه الفنون الأدبية الهامة كل على حدة فى الفصول المستقلة. و قبل أن نبدأ حديثنا عن هذه الفصول، ينبغى أن نقف هنا قليلاً لنقوم بدراسة موجزة لنظرية "المحاكاة" الشهيرة باعتبارها أهم النظريات الأدبية التى أثرت تأثيراً عميقًا فى الآداب العالمية منذ عصر أرسطو حتى اليوم، و بخاصة فى الفنون الأدبية الموضوعية من الشعر، و القصة و المسرحية. و طالما اختلف علماء العالم فى شرح هذه النظرية و تأويلها و تحديد مداها، و لكنهم لم يختلفوا قط فى أهميتها و عظيم أثرها فى إنتاج الفنون الأدبية الموضوعية و توجيهاتها الفنية.

و كان الفيلسوف اليونانى أفلاطون (المتوفى ٣٤٧ قبل الميلاد) قد اهتدي إلى النظرية الأدبية الفنية المذكورة، ثم أسس هذه النظريــة، و أرسى دعائمها و قام بتقويم الفنــون الأدبية على ضوئها تلميذُه البارز الفيلسوف أرسطو (المتوفى ٣٢٢ قبل الميلاد).

و كان أفلاطون قد فسر كل الموجودات "بالمحاكاة" فكل ما نرى و نعلم ليس سوى انعكاس لعالم المثل الخالصة أو الصور الكاملة فى العالم الآخر. و قدم الفيلسوف المزيد من الحقائق عن فكرته الفنية، فقال إن الموجودات تتسلسل فى ثلاث دوائر :

- دائرة المثل و المدركات العقلية و هى دائرة الحقائق الكلية.

Dhaka University Institutional Repository

- دائرة العالم المحس أو العالم الطبيعى و ما فيه من أحياء و أشياء، و كل ما فى هذه الدائرة الثانية هو تقليد أو محاكاة لمثاله المجرد فى الدائرة الأولى.

- ثم دائرة الفن بما فيه من شعر و تشكيل و تصوير، و كل ما فى هذه الدائرة المثالية هو تقليد أو محاكاة للمحاكاة.[١]

و قد أرجع أفلاطون كل شيء إلى المحاكاة، و الكل يحاكى، فالفيلسوف يحاكى، و السفسطائى يحاكى، و الخطيب و الشاعر يحاكيان، و لكن تختلف حقيقة المحاكاة عند كل منهم.[٢] فهناك محاكاة تعتمد على معرفة و يصحبها الصدق، فهى أقرب مايكون إلى التعبير الذى يلتزم بالحق و يحقق الجمال، و هناك محاكاة لاتصحبها معرفة وثيقة الصلة بحقيقة الأصل الذى يحاكيه، و إنما هى نقل يعتمد على التمويه، و يخلو من الحق و الجمال على السواء، و يعتبر أفلاطون هذا النوع من المحاكاة بأنه خداع يوهم صاحبها الناس أنه يقدم لهم الخير و المتعة و هو فى الواقع مزيف يموه الخيال و الجمال.[٣]

و فى الكتاب السابع من الجمهورية يذكر افلاطون تشبيه المشهور لمدى إدراكنا للأشياء بسرداب فيه جماعة على مقعد، و ظهورهم لفتحة ضيقة منه، و أمام الفتحة نار عالية اللهيب، فهم يرون على ضوئها مناظر أشباح تتحرك منعكسة أمامهم على الحائط، و هذا مبلغ إدراكنا لما نفكر أنه حقيقة الأشياء، على حين ليس هو إلاّ خيالات كانعكاس الأشباح على جدار ذلك السرداب بالقياس إلى عالم الصور الثابتة الخالدة.

و إذا كانت الموجودات كلها فى هذا العالم محاكاة لتلك الصور، فإن الفيلسوف يحاول أن يدرك المثل الحقيقية بفكره أو بعاطفته، كما أن الصانع - كالنجَّار مثلاً - يحاول أن يقرب من الكمال فى صنعه للمنضدة، بتأمله فى

---

١ - د/محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد"، المركز العربى للثقافة و العلوم، بيروت، صـ ٢٧٢ - ٢٧٣ نقلاً عن "جمهورية أفلاطون" ترجمة فؤاد زكريا،الكتاب العاشر صـ ٣٥٩

٢ - د/أميرة حلمى مطر "فى فلسفة الجمال - من أفلاطون إلى سارتر" دار الثقافة، القاهره - صـ ٥٠

٣ - المصدر السابق صـ ٥٢

Dhaka University Institutional Repository

صورتها المثالية، على حين يحاول الشاعر وصف المنضدة أى وصف ظواهر الأشياء لا جوهرها ... [١]

ثم تغيرت ملامح الحركة الفكرية الفنية اليونانية بأكملها بظهور أرسطو، فقد ارتضى منهج "الاستقراء" فى مواجهة منهج "الاستنتاج" الذى كان قد ارتضاه من قبل أستاذه أفلاطون. و الجدير ذكره أن "منهج الاستقراء" هو تتبع الجزئيات للتوصل إلى حكم كلى"[٢] أما منهج "الاستنتاج" فهو انتقال الذهن من قضية مُسَلّم بها إلى قضية أو أكثر أو قضايا أخرى مترتبة عليها. [٣]

و استطاع أرسطو من خلال منهجه "الاستقرائ" أن ينتهى به إلى قواعد عامة جعلها أساسًا لرؤيته الفنية و العلمية.

و إذا كان مايهمنا هنا هو الجانب الفنى من فكر أرسطو، فإننا نلاحظ أن نظرية المحاكاة التى نادى بها أفلاطون من قبله قد استقطبت جانبًا كبيراً من نشاطه الفنى، حتى ليمكن أن يقال : إنّ هذه النظرية ظلت محوراً لفكره الفنى، فقَبِلَ جوانب منها و رفضَ جوانب أخرى و وافق على بعض أسسها الفلسفية كما هى، وَ خَطَا ببعضها الآخر إلى الأمام خطوات هائلة ... فقد وافق أرسطو أستاذه أفلاطون على "أنّ الشعر ضرب من ضروب "المحاكاة" للطبيعة، و لكنه خالفه فى طبيعة هذه المحاكاة، فهى ليست، تقليداً حرفيًا للطبيعة، و لكنها إعادة خلق الطبيعة، ثم مضى أرسطو فى مخالفة أستاذه خطوة أخرى، فرأى أنّ "الشعر إذا كان يحاكى الطبيعة محاكاة خالقة فإن الطبيعة لاتحاكى شيئًا ورائها،" على النقيض مما رأى أستاذه أفلاطون من أن الطبيعة تحاكى بدورها عالم المثل ...[٤]

و اعتبر أرسطو "المحاكاة" أساس الفنون الجميلة و منها الشعر، على الرغم من اختلاف هذه الفنون فى وسائل المحاكاة و مواضيعها و أساليبها،

---

١ - الدكتور محمد غنيمى هلال "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده" دار النهضة للطبع و النشر، للقاهرة صـ ٤٣-٤٤

٢ - الدكتور أحمد زكى بدوى "معجم المصطلحات فى العلوم الاجتماعية" مكتبة لبنان، ببروت صـ ٢١٣

٣ - مجدى وهبه و كامل المهندس "معجم المصطلحات العربية فى اللغة و الأدب" صـ ٢١

٤ - د/محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد" صـ ٢٧٣

Dhaka University Institutional Repository

فالشعر مثل الفنون التصويرية و الموسيقى و الرقص فى محاكاة جوهر الأشياء فى الطبيعة، و الفنون التصويرية تحاكى بالألوان و الرسوم، و الموسيقى تحاكى بالأصوات ذات الإيقاع و الانسجام، و الرقص يحاكى بالإيقاع وحده. (١)

و بيَّن الفيلسوف أن الشعر شأنه شأن الفنون الجميلة الأخرى لايحاكى ظواهر الأشياء و لكن يحاكى جوهرها حتى الرقص لايعبر عن ظاهر الحركات بالإيقاعات و لكنه يحاكى الأخلاق و الوجدانات و الأفعال. (٢)

و قد أعطى الفيلسون للقضية تفصيلات مفيدة فزعم أنّ بعض الفنون التى تحاكى الطبيعة باللون و الشكل "كالتصوير و النحت" تقترب من نقل الطبيعة كما هى، و أنّ بعض الفنون التى تحاكى الطبيعة بالصوت "كالرقص و الموسيقى، و الشعر" تبتعد عن نقل الطبيعة كما هى، لأنها تعيد صياغة الطبيعة كما يراها الفنان أو كما يراها الشاعر ... و كما يحدث فى نقل الطبيعة الجامدة أو محاكاتها يحدث كذلك فى نقل الطبيعة الحية "الإنسانية" و محاكاتها، فالشاعر يضيف إلى الطبيعة أو يختصر، و يصور العواطف خيراً أو شراً مما هى، أى أنّ الفن فى النهاية ليس نقلاً حرفيًا موازيًا للأصل المحاكى.

و يقسم أرسطو المحاكاة وفق العناصر الثلاثه التالية :

- وسيلة المحاكاة : و هى تختلف باختلاف الفنون المعبر بها عنها، لأنها فى الأدب غيرها فى التصوير غيرها فى الموسيقى، فمثلاً هى فى الشعر الوزن أو الإيقاع و اللفظ و النغم، و هى فى الفنون التشكيلية الامتداد المكانى الذى يقابله الامتداد الزمانى في فن الشعر.

- موضوع المحاكاة : هو أن يحاكى الفنُ الطبيعة الجامدة و الطبيعة الحية ليست كما هما، و إنما أفضل أو أدنى مما هما.

- منهج المحاكاة : و هو يختلف كذلك باختلاف الفنون، فهى إما محاكاة سردية عن طريق الرواية، أو محاكاة تشخيصية عن طريق المسرح.

---

١ - د/محمد غنيمى هلال "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده" صـ ٤٣

٢ - المصدر السابق صـ ٤٤

Dhaka University Institutional Repository

و يرى أرسطو أن المحاكاة من جهة، و لذة العلم من جهة ثانية هما الحافز الحقيقى الذى دفع الإنسان إلى قول الشعر، لأن المحاكاة نزعة راسخة فى طبيعة الإنسان، و الشعر كفن إيقاعى يتوافق مع ميل هذا الإنسان المبدئى إلى الإيقاع و الانسجام ... لأنّ لذة العلم نابعة من شره الإنسان إلى المعرفة، و الشعر كفن خالق للطبيعة عن طريق المحاكاة الفاعلة يحقق للإنسان نوعًا من السرور الدافع إلى مزيد من الكشف و المعرفة، أى أن المتعة و المنفعة هما السبب الحقيقى الحافز وراء عملية الإبداع الشعرى.

و الشعر -كما يرى أرسطو- لايصور الحياة كما هى، محدودة تافهة التفصيلات، و لكنه يصورها كما ينبغى أن تكون، على أن نثق أنّ عالم الممكن الذى يخلقه الشاعر أكثر حلولاً ماديًا من عالم التجارب، لأنه يحلق فوق الأشياء الواقعية و يمد طموحه إلى ما ينبغى أن تصبح عليه هذه الأشياء ....[1] و قد قَسَّمَ أرسطو الشعر إلى أنواع : قصصى، غنائى، و تمثيلى ... و لكنه لم يشترط الوزن فى الشعر حتى يصبح شعراً. كما أنه فَرَّق بين الملحمة و المأساة على أساس أن الملحمة حكاية أخبارية تعتمد على وزن خاص و لاتتحد بزمان معين، و لذلك كانت تطول طولاً مسرفًا بخلاف المأساة التى تجسد الفعل عن طريق الحضور المسرحى فى مصاحبة نوع من الأوزان و الأنغام محددة بوحدة زمنية قصيرة.[2]

هذا، و لم يلق أرسطو بالاً للشعر الغنائى، و لم يعتد بسوى الشعر الموضوعى، شعر المسرحيات و الملاحم. و رسالة الشاعر عنده هى تمثيل الأحداث الخارجية و الأشخاص. فالشاعر لايكون شاعراً بفخامة العبارة أو صياغة الصور و لكنه ببراعته فى رسم سير الأحداث و تطورها و إحكام حلقات الحكاية، بحيث يَسْتَتْبِعُ بعضها بعضًا. كما يرى الفيلسوف أن الشعر ينشأ عن غريزة المحاكاة أى محاكاة المرء لما يحيط به مما هو خارج عن نطاق ذاته، و هذه الغريزة أصيلة فى الإنسان منذ الطفولة، و بها يتعلم اللغة، و يندمج فى عالمه أول عهده به، و بها يخلق الشاعر الأحداث و الحكايات

---

١ - د/ محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد" صـ ٢٧٣-٢٧٤

٢ - المصدر السابق صـ ٢٧٥ - ٢٧٦

Dhaka University Institutional Repository

محاكاةً للعالم الخارجى ... و يربط أرسطو بين الأفعال فى الحكاية و الأخلاق فيها، لأن الشعراء يحاكون أفعالاً أصحابها بالضرورة إمّا أخيار و إمّا أشرار، و الحكاية المحكمة فنيا تكشف ضرورةً عن خلق أصحابها، و الوقوف على الخلق على هذا النحو يحرك الإرادة إلى العمل، و يثير عاطفى الخوف و الرحمة اللذين يؤديان إلى التطهير من الانفعالات الضارة. (١)

و يبدو لأول وهلة أنّ هذه النظرية الأدبية اليونانية القديمة لم تترك أثراً ما فى الأدب العربى، و الحق أن علماء العرب الأوائل الذين قاموا بترجمة كتب أرسطو إلى العربية لم يفهموا هذه النظرية حق الفهم، و لم يدركوا أنها نظرية تربط الأدب بالحياة فى التصوير الفنى و أداء رسالة الأدب الإنسانية و وحدته العضوية و توفير وسائل الإقناع و التبرير التى بدونها لاينضج العمل الفنى و لايؤدى وظيفته الفنية و الاجتماعية.

ففى ترجمته لكتاب أرسطو فى فن الشعر نجد أبا بشر متى بن يونس (المتوفى ٣٤٨ هـ) يفسر "المحاكاة" بمعنى "التشبيه أو الاستعارة أو الكلام المخيل" أى الذى ينفعل به المرء انفعالاً نفسانيًا غير فكرى. و أن عناصر المحاكاة بهذا المعنى هى : التشبيه و الوزن و اللحن، و هى التى بها يكتسب الشعر صفاته الانفعالية. و يذكر متى بن يونس فى ترجمته أنّ الناس يشبهون أى "يحاكون" بألوان و أشكال كثيرة، و قوم آخرون يشبهون أى "يحاكون" بالأصوات و كذلك بالحركات. و واضح أنّ ذلك فى الرسم و الموسيقا و الرقص، كما يشبهون بالكلام الموزون فى الشعر. (٢)

- و من جهته يقول أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسى (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) فى عرضه و شرحه لكتاب أرسطو فى الشعر، إنّ "المحاكات" فى الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة، و من قبل الوزن، و من قبل التشبيه نفسه. و هذه الثلاثة قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم فى المزامير و الوزن

---

١ - د/ محمد غنيمى هلال "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده" صـ ٧٢

٢ - الصدر السابق صـ ٤٤

Dhaka University Institutional Repository

فى الرقـص، و المحاكـاة فى اللفـظ ... و قد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها، مثلما يوجد عندنا فى النوع الذى يسمى الموشحات و الأزجال، و هى الأشعار التى استنبطها فى هذا اللسان العربى أهل الجزيرة الأندلسية. (١)

و يذكر ابن رشد فى شرحه أنّ القول الشعرى إمّا هجاء و إمّا مديح، ثم يقول : "وكذلك الحال فى الصنائع المحاكية لصناعة الشعر التى هى الضرب بالعيدان، و الرمز و الرقص - أعنى أنها معدة بالطبع لهذين الغرضين"، ثم يذكر بعد ذلك أنّ "الناس بالطبع قد يخيلون و يحاكون بعضهم بعضًا بالألوان و الأشكال فى الفنون التصويرية و الأصوات فى الموسيقا. (٢)

- كما نجد آثارات أخرى لنظرية "المحاكاة" فى مثل قول أبى سليمان محمد بن طاهر المنطقى السجستانى (المتوفى ٣٨٠ هـ) فيما يحكيه أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى (المتوفى ٤٠٠ هـ) :

"و قد علمنا أن الصناعة "الفنية" تحكى الطبيعة و تروم اللحاق بها و القرب منها ... و الصحيح أنها حكتها و تبعت رسمها، و قصت أثرها لانحطاط رتبتها عنها :(٣)

و يدل مثل هذا القول على إدراك الصلة العامة بين الصناعة الفنية و الطبيعة، و أن الطبيعة بمثابة نموذج أتم يحاول الفن أن يحاكيه.

و لانقصد هنا إلى عرض مثل هذه الآثارات المتفرقة التى لم تغن شيئًا فى نظرية "المحاكاة" و لم تفد الأدب العربى فائدة تذكر، و إنما نريد أن نكشف عن تلك الرؤية الفنية التى اهتدى إليها الفيلسوف اليونانى أفلاطون، ثم أسسها تلميذه الشهير أرسطو. و قد انتقلت هذه الرؤية إلى الأدب العربى القديم، فتركت فيه أنواعًا من التأثير تبعًا لتأويلاتها المختلفة لدى كثير من نقاد العرب القدامى، و كان بعض هذه التأويلات عماد اتجاهات قيمة تربط الأدب بالحياة، و تكشف عن الصلة بين الشعر و ما سواه من الفنون الجميلة.

---

١ - المصدر السابق صـ ٤٢

٢ - المصدر السابق صـ ٤٤ - ٤٥

٣ - المصدر السابق صـ ٤٢

Dhaka University Institutional Repository

و قد تردد صدى هذه الرؤية لدى ثلاثة من نقاد العرب القدامى، فهمنوها ثلاثة أنواع من الفهم تبعهم فيها من سواهم من هؤلاء النقاد. و النقاد الثلاثة هم :

- أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب المعروف بالجاحظ (المتوفى ٢٥٥ هـ)، و قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادى (المتوفى ٣٣٧ هـ)، و عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانى (المتوفى ٤٧١ هـ)، و سنعرض لمدى إفادتهم من الرؤية الفنية المذكورة على حسب الترتيب الزمنى.

فأول مَن ردّد صدى هذه الرؤية هو الجاحظ. و كان كتاب "فن الشعر" لأرسطو قد ترجم فى عصر الجاحظ و قبيل عصره ترجمات عديدة، و كان الجاحظ يطلع على ترجمة أدق لكتاب أرسطو، و لعله كان يقرأ كتاب أرسطو فى ترجمة غير عربية، و من يدرى لعله كان يقرأ اليونانية مباشرة؟ على أن الجاحظ لم يحاول أن يأتى بنظرية كاملة تقوم مقام نظرية المحاكاة لأرسطو، و إنما أفاد منها فأحسن الإفادة فى شأن المفاضلة بين ما سماه نقاد العرب : اللفظ و المعنى. فيورد الجاحظ أنّ "أبا عمرو استحاق بن مرارة الشيبانى (المتوفى ٢٠٦ هـ) كان لايحفل إلا بالمعنى، فمتى كان المعنى رائقًا حسنًا ظلّ كذلك فى أية عبارة وضع فيها.

و ينعى الجاحظ عليه قائلاً أنه استحسن بيتين لمعناهما، على حين ليست عليهما مسحة أدبية سوى الوزن. و هذان البيتان هما :

لاتحسبن الموتَ موت البلى - فإنما الموتُ سوال الرجال
كلاهما موت و لكن ذا - أفظع من ذاك لذل السؤال

و يعلق الجاحظ على ذلك تعليقًا ساخراً كشأنه فى كثير من أحواله فيقول : "و أنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً، و لو لا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك لزعمت أنَّ ابنه لايقول شعراً أبداً."[1] و لعل أبا عمرو الشيبانى أعجب بالبيتين لما اشتملا عليه من حكمة راقته، فيكون

---

١ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : "الحيوان"، تحقيق و شرح الأستاذ عبد السلام هارون جـ ٣ صـ ١٣١

Dhaka University Institutional Repository

بذلك ممثلاً لطائفة من الأدباء و نقاد العرب وَ لَعُوا بالأمثال و الحكم غير مبالين بالصياغة.[1] و لكن الجاحظ ينكر رأى هؤلاء، و يرى أن الأدب روحه الصياغة و التصوير، لامجرد التقرير.

يقول الجاحظ : و ذهب الشيخ أبو عمرو الشيبانى إلى استحسان المعنى، و المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى و العربى، و البدوى و القروى و المدنى، و إنما الشأن فى إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج، و كثرة الماء، و صحة الطبع و جودة السبك، فإنما الشعر صياغة و ضرب من النسج و جنس من التصوير.[2]

فدعامة الجاحظ - فى رده على أبى عمرو و أمثاله - تقوم على توثيق الصلة بين الشعر و الفنون التصويرية، فليس الشعر نظمًا للمعانى المجردة، و إيراداً للأفكار سرداً و تقريراً، و لكن الشعر تصوير للمعانى و تجسيم للأفكار.

و قد تساق المعانى و الحقائق على نحو تجريدى فى العلوم و النظريات المختلفة، و قد يتردد على ألسنَة العوام و غيرهم. و لكن لايستطيع تصويرها سوى من أوتوا موهبة خَاصَة، و هى موهبة الشعر، و بها وحدها تدخل هذه المعانى فى مجال الأدب، و يكون تصويرها الفنى سبيلها إلى العقول و القلوب معًا.

و فى الحق إن خاصة الأدب فى أجناسه المختلفة هى تصوير الأفكار، و ذلك أن المرء يستطيع أن يلخص فكرة القصيدة تجريديًا فى بضعة أسطر، كما يستطيع أن يشرح فكرة المؤلف فى مسرحيته أو قصته فى بضع صفحات. و لكن ذلك التلخيص أو الشرح لا تحيا به الأفكار، و لا تجد سبيلها إلى الإقناع. ففى صور الشعر، كما فى شخصيات القصص و المسرحيات تتحرك الأفكار و تنمو، و تنبض بالحياة التى تكفل لها التأثير و الخلود.

---

١ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : "البيان و التبيين"، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون جـ ٢، صـ ١٧١

٢ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان جـ ٣ صـ ١٣١ - ١٣٢

Dhaka University Institutional Repository

فكلمة الجاحظ توحى إيحاء بما صرح به أرسطو من أن العمل الأدبى متى توفرت فيه وسائل الكمال من التصوير أدى وظيفته فى الإقناع الفنى، فتعيش أفكاره فى صورها، و تتحرك و تنبض بحياة جياشة لم تكن لتتيسر لها إلا فى ثوبها التصويرى. (١)

- و يفيد من الرؤية الفنية اليونانية نفسها قدامة بن جعفر، و لكن على نحو آخر. فيفيد منها فى عدم التزام الشاعر بضرورة الصدق فى عمله الفنى، فإذا كان جوهر الشعر هو التصوير، فإن المعانى مادة الشعر، و الشعر فيها كالصورة، فلاينبغى الحكم على الشعر بمادته، أى معناه، و إنما يحكم عليه بصورته، كما لايعيب النجار فى صنعه رداءة الخشب فى ذاته. فليس الشعر سوى صياغة جميلة، و لايطالب الشاعر بسواها. فلو أنّ الشاعر أكبرَ من شأن حقير، أو حَقَّرَ من شأن عظيم فى تصوير جميل، لما نال ذلك منه، بل لعُدَّ مقياس براعته. و يستشهد قدامة بما روى عن أبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى (المتوفى ٢١٦ هـ) أنه سُئل : مَنْ أشعر الناس؟ فقال : "من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو إلى الكبير فيجعله خسيساً". (٢)

فلم يعتد قدامه بإيمان الشاعر بما يقول، و مخالفته لما يراه الناس فى الواقع، فلا ضير عنده أن يكذب الشاعر نفسه فيصور غير ما يعتقد ... و لذا ينبغى ألاّ ينكر على الشاعر أن يصف شيئًا وصفًا حسنًا، ثم يذمه بعد ذلك ذمًا بينًا، بل يدل ذلك عنده على اقتدار الشاعر و قوته فى صناعته. (٣)

- و خير من استفاد من الفكرة الفنية اليونانية و أفاد فى الأدب العربى من عقد الصلة بين الشعر و الفنون التصويرية هو عبد القاهر الجرجانى. و هو فى رأيه متفق مع الجاحظ فى جوهر فكرته السابقة و لكنه يذهب إلى أبعد منه، فيحمل عبد القاهر على من وقفوا عند المعنى فى عمومه عند حكمهم على الشعر، غير معتدين بالصياغة و النسج، يقول عبد القاهر : "و اعلم أنّ

---

١ - د/محمد غنيمى هلال : "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده" صـ ٤٨

٢ - قدامة بن جعفر : "نقد الشعر" بتصحيح س. م. بوكيباكر مطبعة بريل بمدينة ليدن صـ ١٥١

٣ - المصدر السابق صـ ١٥ - ١٦

Dhaka University Institutional Repository

الداء الدوى ..... غلطَ مَنْ قَدَّمَ الشعر بمعناه، و أقَلَّ الاحتفالَ باللفظ، و جعل لايعطيه من المزية إلا ما فضل من المعنى، و يقول : ما فى اللفظ لو لا المعنى؟ و هل الكلام إلا بمعناه؟ ... فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق ...[١]

ثم يعلل عبد القاهر لرأيه بأن سبيل الكلام "سبيل التصوير و الصياغة" و أن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشيء الذى يقع التصوير و الصوغ فيه، كالفضة و الذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أن محالاً - إذا أنت أردت النظر فى صوغ الخاتم، و فى جودة العمل و رداءته. أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذى وقع فيه العمل و تلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل و المزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه، و كما أنّا لَوْ فَضَّلْنَا خاتمًا على خاتم بأن يكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغى - إذا فضلنا بيتًا على بيت من أجل معناه - ألا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر و كلام.[٢]

و لايقيم عبد القاهر كبير وزن للألفاظ فى ذاتها من حيث تلاؤم حروفها و خفتها فى النطق، و لا مِنْ حيث ترادفها على معنى.[٣] إذ تظهر مزية الألفاظ عنده فى تأليف الكلام، لأن ذلك من وسائل التصوير للمعنى المدلول عليه بالصياغة.

و قد أحكم عبد القاهر الربط بين "نظم" الألفاظ فى سياق صورة أدبية و بين صورة المعنى الذى كشفت عنه هذه الصورة، فوضح أنّ الألفاظ - فى سياقها فى الشعر و فى بليغ الكلام - هى وحدها وسيلتنا إلى الصورة الأدبية. كما أنّ الألفاظ فى الجمل هى وسيلتنا إلى التفكير، و لكنه لا أهمية للألفاظ إلا فى موقعها من الكلام فى الصياغة و تأليف الكلام. و كمال الصياغة لايظهر إذن إلا بأن يؤتى المعنى من جهته، و يختار

---

١ - عبد القاهر الجرجانى : "دلائل الإعجاز" دار المعرفة بيروت ١٩٨٦ صـ ١٩٤ و ما بعدها

٢ - المصدر السابق صـ ١٩٦ - ١٩٧

٣ - المصدر السابق صـ ٤٥

Dhaka University Institutional Repository

له اللفظ الذى هو أخص به و أكشف عنه، و أتم له و أدى بأن يكسبه نبلاً و يُظهر فيه مزية"(١)

و هذا هو جوهر نظرية "النظم" عند عبد القاهر، أى تصوير الكلام البليغ للمعانى، شعراً كان أم نثراً، و كما أنَّ النظم لا يظهر فى الكلمة إلا بحسب موقعها فى الجملة، و بهذا الموقع تتأثر الصورة التى يهدف الأديب إلى رسمها،كذلك الجملة لايبين حسن نظمها إلا إذا ائتلفت بدورها مع جاراتها فيما تهدف إليه هذه الجمل من معنى ليتألف من مجموع الجمل صورة أدبية رائعة.

و هنا يتجاوز عبد القاهر نقاد العرب جميعًا فى إدراكه وحدة الصورة الأدبية المؤلفة من عدة جمل، و إنْ لم يقف بعد ذلك على معنى العمل الأدبى كله بوصفه صورة ذات وحدة كبيرة.

و هذا إدراك خطير اهتدى إليه عبد القاهر عن طريق إدراك قيمة الجمل المتآزرة على رسم صورة تشف عنها الألفاظ فى موقفها من تلك الجمل، كما تشف عنها الجمل فى ائتلافها المحكم بعضها مع بعض.

و يتضح فيما قدمنا أن نقاد العرب قد فهموا نظرية "المحاكاة" اليونانية أنواعًا من الفهم، فأفاد منها الجاحظ أحسن الإفادة فى وجهة أن جوهر الأدب إنما هو فى الصياغة، و نمى هذه الفكرة عبد القاهر فى نظريته "النظم"، و قد اعتمد فيها على عقد الصلة بين الشعر و الفنون، فأدرك معنى الصورة الأدبية إدراكًا عامًا و وثق الصلة بين الصياغة اللغوية و ما تدل عليه من معنى، و بَيَّنَ أن هذه الصياغة بمثابة صورة أدواتها : الألفاظ المتسقة فى الجمل، و الجمل المنتظمة للتعبير عن الصورة، و قد أساء قدامة بن جعفر فى فهم أصالة الفكرة نفسها، فأفاد منها فى وجهة أنّ التزام الشاعر بالصدق و الأصالة ليس أمراً ضروريًا فى الشعر.

---

١ - المصدر السابق صـ ٣٥

Dhaka University Institutional Repository

الفصل الثانى

"الشعر و وظيفته"

و فيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : مفهوم الشعر
- المبحث الثانى : وظيفة الشعر فى العصر الجاهلى
- المبحث الثالث : وظيفة الشعر فى عصر النبوة و الراشدين وبنى أمية
- المبحث الرابع : وظيفة الشعر فى العصر العباسى
- المبحث الخامس: وظيفة الشعر فى العصر الحديث و المعاصر

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الأول

مفهوم الشعر

الشعر فن من أشهر الفنون الأدبية و أكثرها انتشاراً بين الناس، و ربما كان ذلك لقدم عهد البشرية به، فالشعر هو الصورة التعبيرية الأدبية التى ظهرت فى حياة الإنسان منذ العصور الأولى، و أنه الطريقة الوحيدة التى اهتدى إليها الإنسان بحكم تكوينه البيولوجى و النفسى للتعبير و التنفيس عن انفعالاته.

و رغم قدم هذا الفن و انتشاره بين الناس فإنه ليس بإمكان المرء تحديد هويته بسهولة، و قد حاول الكثيرون أن يتعرضوا لذلك، و يدرسوا طبيعة الشعر منذ العصور الأولى حتى الوقت الحاضر، و قد ظهرت نتيجة لذلك طائفة من التعريفات التى لا تكاد تتفق على شيء حتى تختلف فى أشياء. ربما كان ذلك راجعًا إلى اختلاف الأشخاص و العصور التى حوولت فيها تلك المحاولات لا إلى طبيعة الشعر ذاته.

فالشعر - كما تقول الأديبة الإنجليزية البارزة "مس شتاين" - "هو الشعر هو الشعر هو الشعر"[1] أى أن الشعر فى ذاته أو طبيعته لايتغير، و أنّ الذى يتغير هو فهم الأفراد و الجماعات للشعر فى البيئات و الأزمنة المختلفة.

فإذا قلنا إنّ كل إنسان يعرف ما الشعر لم نكن مغالين، لأنه ليس من السهل حتمًا أن يفهم الناس الشعر فهمًا واحداً، و أنّ للشعر - كالأدب بعامة - طبيعة مرنة تتشكل بحسب رغبة كل إنسان و فهمه.

و نحن حين نتحدث هنا عن الشعر العربى لا نهدف بطبيعة الحال إلى وضع تعريف لهذا الشعر يغنى عن غيره، و لكننا نحاول عرض العديد من التعريفات و تقديم المزيد من الحقائق الأساسية المختصة التى تحدد هوية الشعر العربى المجيد و تكشف عن طبيعته و تبرز مكانه بين الفنون الأدبية الأخرى.

---

١ - الدكتور عز الدين اسماعيل : "الأدب و فنونه" صـ ١٣١

Dhaka University Institutional Repository

تفيد الدراسات الأدبية و الأَلْسُنِيَّةِ أن كلمة "شعر" كلمة عربية تعنى " POETRY "[1] فى الإنجليزية، و تطلق على "كلام يوحى عن طريق الإيقاع الصوتى و استعمال المجاز بإدراك الحياة و الأشياء إدراكًا لايوحى به النثر الإخبارى، و قد اختلفت الآراء فى تعريف الشعر إلا أنه اتفق أغلبها على خواص أساسية يجب توافرها فى الكلام حتى يستحق أن يسمى شعراً، و هذه الخواص الشعرية الأساسية هى :

- التعبير عن إحساس قوى و تأثر عميق، و النظرة إلى الحياة نظرة لايمكن إدراكها و لا التعبير عنها بمجرد المنطق و إقامة الحجة و البرهان.

- انتقاء الألفاظ المستخدمة فيه، فيجب اختيار ألفاظ مختصة و مناسبة لكل الوظائف و الموضوعات الشعرية.

- ترتيب الألفاظ ترتيبًا موسقيًا خاصًا يعبر عنه بالوزن.

- الالتزام بالقافية و إن ثار عليها فى العصر الحديث شعراء الشعر الحر متأثرين فى ذلك بالشعر الغربى.

و تسمى كل وحدة من وحدات الشعر العربى قصيدة، و هى تتكون من وحدات موسيقية تعرف بأبيات، و تتحد جميع الأبيات فى قصيدة واحدة فى وزنها و قافيتها، و ما تنتهى به من روى.[2]

و أعطى علماء العرب منذ مستهل أمرهم اهتمامًا بالغًا بالشعر، فقد بذلوا جهوداً جبارة، و ألّفوا كتبًا قيمة تبحث فى هذا الشعر العربى و تحدد هويته و تبرز ما فيه من قيم فنية، إنسانية و جمالية.

و يقفُ فى طليعة أولئك العلماء أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ (١٥٠-٢٥٥ هـ) فقد قال الجاحظ فى مستهل حديثه عن الشعر إنه : (صياغة و ضرب من الصبغ و جنس من التصوير)[3]

---

١ - هانز ڤير"معجم اللغة العربية المعاصرة" عربى - إنجيلزى وضع ج. ميلتون كوان ط - ٣، مكتبة لبنان، بيروت، مكدونالد و إيفانس ليمتد، لندن صـ ٤٧٣

٢ - مجدى وهبة وكامل المهندس "معجم المصطلحات العربية فى اللغة و الأدب" صـ ١١٨

٣ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ "الحيوان"، تحقيق و شرح الأستاذ/عبد السلام هارون، طبع القاهرة. جـ - ٣ صـ ١٣١

Dhaka University Institutional Repository

و كان الجاحظ قد تحدث عن طبيعة الشعر و أسلوبه و لفظه و شكله و صورته و مضمونه فى مواقع متفرقة من كتبه، و انتصر للصياغة و الصورة الفنية الشعرية على المضامين و المعانى الشعرية، فقال : (المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى و العربى و البدوى و القروى و المدنى، و إنما الشأن فى إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج و كثرة الماء، و صحة الطبع و جودة السبك ...)[1]

و يفهم من هذا النص إن سر الجمال و الخلود فى الشعر عند الجاحظ هو الصياغة و جمال العبارة، "فقد أشادَ بصياغة اللوحة الفنية و التأنق فى اختيار الألفاظ الشعرية الموحية المؤثرة، لأن براعة المفتن إنما تبدو واضحة فى قدرته على رسم اللوحه الفنية الرائعة، فالعناية بالأسلوب و الاهتمام بالصياغة هما نظرة المفتن إلى الفن الذى يعبر عن الحقائق تعبيراً فنيًا يجد فيه الناس المتعةَ، و البعد عن الألوف، بما يكسوها من حلل الألفاظ يزينها بأنواع الحلى". [2]

و لاشك فى أن وجهة نظر الجاحظ تجاه الشعر تقوم مبدئيًا على توثيق الصلة بين الشعر و الفنون التصويرية، فليس الشعر عنده نظمًا للمعانى المجردة، و إيراداً للأفكار سرداً و تقريراً، و لكن الشعر تصوير للمعانى و تجسيم للأفكار ....

- أما أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) فقد عرف الشعر بأنه "معدن علم العرب و سفر حكمتها و ديوان أخبارها، و مستودع أيامها، و السور المضروب على مآثرها، و الخندق المحجوز على مفاخرها، و الشاهد العدل يوم النفار، و الحجة القاطعة عند الخصام ... و من قيدها بِقَوَافِى الشعر، و أوثقها بأوزانه و أشهرها بالبيت النادر، و المثل السائر

---

١ - نفس المصدر و نفس الصفحة

٢ - د/بدوى طبانة "دراسات فى نقد الأدب العربى" الطبعة الخامسة، المطبعة الفنية الحديثة. ١٩٦٩م، صـ ١٨٨

Dhaka University Institutional Repository

و المعنى اللطيف، أخلدها على الدهر و أخلصها من المجد، و رفع عنها كيد العدو و غض عين الحسود". (١)

و يفهم من النص المتقدم أن الشعر ديوان العرب و تاريخها الطويل الحافل بالمكارم و البطولات و الأمجاد، أودعت فيه أيامها و أخبارها و سلمها، و حروبها و مفاخرها و حياتها الطويلة المليئة بالأحداث المختلفة، و هذا التاريخ الطويل سيبقى خالداً بخلود الشعر، لايستطيع أحد إنكاره و جحوده و الاعتداء عليه، و سيبقى خالداً يفسر الظواهر الطبيعية و الحياة الاجتماعية و الأدبية و الفنية للشعب العربى الخالد المعتز بعروبته و أصالته ليأخذ من ماضيه العبر و المنهج السليم فى الأدب و الفن يسلم له فنه و أدبه و لغته - لغة القرآن و الجنة.

و لم يقف دور ابن قتيبة عند تحديد هوية الشعر العربى و فوائده العامة، و لكنه تجاوز ذلك إلى جوانب هامة أخرى من الشعر، فأكد على جودة اللفظ و المعنى و على الترابط الوثيق بينهما، لأن اللفظ و المعنى هما عنصرا الشعر، و أن الغاية الفنية لاتتحقق إلا بتوافر هما و انسجامهما معًا، كما أكد على ضرورة إرتباط أبيات القصيدة و انضوائها فى وحدة فنية، و على نوع من العلاقات المعنوية بين الأبيات فى داخل الجزء الواحد من القصيدة، بحيث ينتفى التكلف الذى نرى البيت فبه مقرونًا بغير جاره مضمونًا إلى غير لفقه ...

"و فأوْرَدَ ابن قتيبة أنّ عمرو بن لجأ (و هو عمرو بن لجأ بن حدير بن مصاد التيمى، و قيل هو عمرو بن لحأ. . .(٢)) قد قال لبعض الشعراء : أنا أشعر منك، فقال : و بم ذلك؟ فقال : إنى أقول البيت و أخاه"(٣) أى أنه يقارن البيت بشبهه.

---

١ - ابن قتيبة "عيون الأخبار" جـ ٢، طبعة دار المأمون صـ ١٨٥

٢ - خير الدين الزركلى، "الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء العرب و المستعربين و المستشرقين" جـ ٥، صـ ٥٩

٣ - ابن قتيبة "الشعر و الشعراء" تصحيح محمد بدر الدين الحلبى، مطبعة التقدم. الطبعة الأولى جـ ١، صـ ٩٦

Dhaka University Institutional Repository

و أوشك ابن قتيبه أن أسَّسَّ بعض نظراته الفنية على قيمة التجربة فى القصيدة، مشيراً إلى أنّ اختلال هذا الأساس يترك العمل الشعرى مجوفًا و متراخى البناء فيقول : (و المتكلف من الشعر و إن كان جيداً محكمًا فليس به خفاء على ذوى العلم لتتبيّنَ فيه ما نزل بصاحبه من طول الفكر و شدة العناء و رشح الجبين و كثرة الضرورات، و حذف ما بالمعانى حاجة إليه، و زيادة ما بالمعانى غنى عنه.)[1]

- عرفه أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طباطبا (المتوفى ٣٢٢ هـ) فقال : (إن الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور يستعمله الناس فى مخاطبتهم بما خُصّ به النظم الذى إن عدل عن جهته مجته الأسماع، و فسد عن الذوق، و نظمه معلوم محدود، فمن صَحَّ طبعه و ذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض الذى هو ميزانه و مَنْ اضطرب عليه الذوق فلم يستفدْ من تصحيحه و تقويمه بمعرفة العروض و الحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذى لاتكلف فيه)[2]

و قدم ابن طباطبا تصوراً أشمل للشعر، فأكد على ضرورة الترابط و التلاؤم الوثيق بين أبيات الشعر و ألفاظه و معانيه و انضوائها فى وحدة شعرية فنية، حيث قال : "و أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل، كما يدخل الرسائلَ و الخطب إذا نقض تأليفها، فإن الشعر إذا أُسِّسَ تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، و كلمات الحكمة المستقلة بذاتها، و الأمثلة السائرة المرسومة باختصارها، لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة، فى اشتباه أولها بآخرها، نسجًا و حسنًا و فصاحة و جذالة ألفاظ و دقة معان و صواب تأليف، و يكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجًا لطيفًا ...[3]

---

١ - المصدر السابق صـ ٩٤

٢ - مجدى وهبه و كامل المهندس "معجم المصطلحات العربية فى اللغة و الأدب" صـ ١١٩

٣ - د/محمد أحمد العزب، "عن اللغة و الأدب و النقد" صـ ٣٧٨

Dhaka University Institutional Repository

كما فطن ابن طباطبا إلى قيم قريبة من الوحدة العضوية و لكن فهمه لهذه الوحدة كان أقرب إلى الحرص على وصل الصور أو "التحام الأجزاء" فى عمود الشعر، إذ يرى صاحبنا أن قصارى الشاعر فى وصل الأجزاء أن يصل كلامه - على تصرفه فى فنونه - صلة لطيفة "فيتخلص من الغزل إلى المديح، و من المديح إلى الشكوى و من الشكوى إلى الاستماحة، و من وصف الديار و الآثار إلى وصف الفيافى و النوق ... بألطف تخلص و أحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله، بل يكون متصلاً به و ممتزجًا معه."(١)

و لم يقف ابن طباطبا عند هذا الحد، بل امتد ليقدم المزيد من المعلومات فى هذا الصدد، فقال : "و ينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، و تنسيق أبياته، و يقف على حسن تجاوره أو قبحه فيلائم بينها، لتنتظم له معانيها، و يتصل كلامه فيها، و لايجعل بين ما قد ابتدأ وصفه و بين تمامه فصلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك فى كل بيت، فلا يباعد كلمة من أختها، و لايحجز بينها و بين تمامها بحشو يشينها ...(٢)

- و الشعر عند قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادى (المتوفى ٣٣٧ هـ) هو : (قول موزون مقفى يدل على معنى)(٣)

و يتضح من هذا التعريف أن عناصر الشعر أربعة : اللفظ، و المعنى، و الوزن، و القافية. و أعطى قدامة اهتمامًا كبيراً بجودة اللفظ و المعنى، و الجمالية الشكلية، و لكنه أتى فى نفس الوقت بفكرة جديدة لا توجب للشعر الالتزام بالصدق الفنى، فليس الشعر عنده سوى صياغة جميلة، و لايطالب الشاعر بسواها، فلا ينبغى أن ينكر على الشاعر إذا أتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً أو أتى إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا، لأنه يدل ذلك عنده على اقتدار الشاعر و قوته و براعته.(٤)

---

١ - المصدر السابق صـ ٣٧٦

٢ - المصدر السابق صـ ٣٧٨

٣ - قدامة بن جعفر "نقد الشعر" تصحيح س. م. بو كيباكر مطبعة بريل بمدينة ليدن صـ ٣

٤ - المصدر السابق صـ ١٥ و ما بعدها.

Dhaka University Institutional Repository

- و عرفه أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (المتوفى ٣٧٠ هـ) فقال : "إن الشعر القريض المحدود بعلامات لايجاوزها"[١] ثم أردف ذلك بقوله : "و قائله شاعر لأنه يشعر بما لايشعر غيره"[٢]

- و أعطى حازم بن محمد بن حسن القرطاجنى (٦٠٨ - ٦٨٤ هـ) تعريفًا متميزاً للشعر، قال فيه : إن الشعر (كلام موزون مقفى، من شأنه أن يُحَبِّبَ إلى النفس ما قُصد تحبيبه إليها، و يُكَرِّهَ إليها ما قُصد تكريهه، ليتحمَّلَ بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له و محاكاة مستقلة بنفسها، أو مقصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك")[٣]

و لقد نبه حازم إلى أهمية تأثير الشعر فى النفس، و هو معيار جيد لقياس قيمة العمل الفنى مهما اختلفت أشكاله و أجناسه، ثم أوضح تلك الصفة بقوله : (و كذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب و التعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قَوِىَ انفعالُها و تأثرها)[٤]

و فى موضع آخر نراه يركز مفهوم الشعر على التخييل و الوزن، فى حين يجعل القافية من خصائص اللسان العربى، فيقول : (الشعر كلام مخيل موزون، مختص فى لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك، و التئامه بمقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، لايشترط فيها - بما هى شعر - غير التخييل"[٥]

- و عرفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمى (٧٧٢-٨٠٨ هـ) فقال : (إن الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة و الأوصاف،

---

١ - أبو منصور الأزهرى، "تهذيب اللغة"، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م. جـ ١، صـ ٤٢٠

٢ - نفس المصدر و نفس الصفحة.

٣ - حازم القرطاجنى، "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" تحقيق أ. محمد الحبيب الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦ صـ ٧١

٤ - المصدر نفسه صـ ٧١

٥ - المصدر نفسه صـ ٨٩

Dhaka University Institutional Repository

و المفصّل بأجزاء متفقة فى الوزن و الروى، مستقل كل جزء منها فى غرضه و مقصده عما قبله و بعده، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به)!(١)

و ظل العقل العربى فى تقد يم المساهمة القيمة فى مجال الشعر، و قد قام هذا العقل العربى بتحديد هوية شعره الخالد على أساس الذوق و العلم و الذات و الموضوع و الشكل و المحتوى و الأصالة، و المعاصرة و الأخذ و العطاء ... فى العصر الحديث الذى حمل معه للعقل العربى راية التحديث فى الشعر و أنماطه الفنية و قاده شكلاً و مضمونًا إلى شواطى التطور.

و حين بدأ محمود سامى البارودى (١٨٣٨ - ١٩٠٤م) تجربته الشعرية كان ذلك إيذانًا بمولد حركة فنية جديدة قائدة للاتجاه الإحيائى فى الشعر، الذى أشاد بتراث الشعر العربى القديم، لأنه قادر على العطاء المعاصر شكلاً و مضمونًا، و على التعبير عن هموم إنسان عصره و قضاياه و واقعه بلغة عالية فى نسق و صياغة فنية قديمة.

و كان الشيخ حسين بن أحمد المرصفى (المتوفى ١٣٠٧ هـ) صيحة البدء فى هذه الحركة الشعرية الجديدة، فقد نهج على طريقة القدماء فى تحديد هوية الشعر، حيث يقول فى مستهل حديثه عن الشعر : "إنه كلام مفصل قطعًا متساوية فى الوزن متحدة فى الحرف الأخير من كل قطعة، و تسمى كل قطعة من هذه القطعات عند هم بيتًا، و يسمى الحرف الأخير الذى تتفق فيه رويًا و قافية، و ينفرد كل بيت بإفادته فى تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله و ما بعده، و إذا أفرد كان تامًا فى بابه، فى مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل فى إفادته ثم يستأنف فى البيت الآخر كلاما ما آخر كذلك، و يستطرد للخروج من فن إلى فن، و من مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول و معانيه إلى أن يناسب المقصود الثانى، و يبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب إلى

---

١ - جر جى زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" الجزء الأول، مطبعة الهلال بمصر، ط-٢، ١٩٢٤ صـ ٥٣

Dhaka University Institutional Repository

المدح، و من وصف البيداء و الطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، و من وصف الممدوح إلى وصف قومه و عساكره و من التفجع و العزاء فى الرثاء إلى التأثر و أمثال ذلك".[١]

و لَعَلَّ شيخنا الجليل المرصفى أن يكون من طلائع الرواد الذين فتنوا إلى الوحدة العضوية فى الشعر العربى الحديث، فنظر الأبيات الشعرية "كقيم جمالية" تؤلف هى مجموعها "قيمة جمالية واحدة" لأنها تضم المشاعر الفنية الواحدة، و تُرتَّبُ فيها الصور و الأفكار ترتيبًا متناميًا تتخلق من خلاله القصيدة تخلقًا عضويًا طبيعيًا، و يفضى فيه كل جزء إلى وظيفته إفضاءً متسلسلاً، بحيث تصل فى النهاية إلى بنية حيّةٍ للقصيدة تشابه تمامًا بنية الكائن الحى فى تساوقها و انسجامها و تشكيلها الطبيعى. كما رأى الشيخ المرصفى أن الشعر قد يقوم على أساس من الوحدة الموضوعية، إلاَّ أنه يتجاوز وحدة الموضوع إلى وحدة البناء العضوى الذى لايستقل فيه بيت عما سبقه و مالحقه، مما يثير أفكاراً من نوعية واحدة و يحدث آثارها فى المتلقى على نحو متقارب، فقال : "انظر - هداك الله - أبيات هذه القصيدة فافردها بيتًا بيتًا تجد ظروف جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها بظرف، ثم أجمعها و انظر جمال السياق و حسن النسق، فإنك لاتجد بيتًا يصح أن يقدم أو يؤخر، و لابيتين يمكن أن يكون بينها ثالث" ...[٢]

و قد قفى على آثار هذه الرؤية الفنية الشاعر مطران خليل بن عبده ابن يوسف مطران (١٢٨٨ - ١٣٦٨ هـ/١٨٧١ - ١٩٤٩م) فى مقدمة ديوانه الشعرى، فحمل إلى الحياة الشعرية جديدةَ المضمونِ و هى "الوحدة العضوية، و بنائها جميعًا"، و لعل قيمة هذه الرؤية الفنية تبلغ ذروتها من قيام مطران بوضع أساس تتلامح فيه عناصر الرؤية المذكورة، فيقول : "..... هذا شعر ليس ناظمه بعبده و لا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح و لاينظر قائله إلى جمال البيت المفرد و لو أنكرَ جَارَهُ و شاتَم أخَاهُ، و دَابَر المطلعُ، و قاطعَ المقطعَ، و خالفَ الختامَ،

---

٢ - د/محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد" صـ ٣٤٦

١ - المصدر السابق صـ ٣٨١ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته و فى موضعه، و إلى جملة القصيدة فى تركيبها و فى ترتيبها، و فى تناسق معانيها و توافقها، مع ندور التصوير و غرابة الموضوع، و مطابقة كل ذلك للحقيقة، و شفوفه عن الشعور الحر، و تحرى دقة الوصف و استيفائه فيه على قدر".(١)

و مهما يكن من شيء فقد تميز الشعر العربى الحديث فى مرحلة الإحياء الخالصة بمجموعة من الخصائص الفنية و الفكرية يمكن أن تكون ملامح فارقة بينه و بين غيره من الشعر فى المراحل السابقة أو التالية، و من أهم هذه الخصائص "أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر و حياة الجماهير من حوله فى المجتمع، فيعبر عن هموم الشاعر الذاتية و هموم الجماهير، و يطوف بكل القضايا الاجتماعية و الوطنية، و يصورها فى نسق فنى يستوى على عرش الأصالة الشكلية و المضمونية".

و عندما انتقل الشعر من مرحلة الإحياء الخالصة إلى مرحلة التجديد الكاملة على أيدى طائفة من المفكرين كأمثل طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) و عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م)، و إبراهيم بن محمد عبد القادر المازنى (المتوفى ١٣٦٨ هـ) و الذين نهلوا من الثقافة العربية كما يمثلها هذا الموروث الحضارى العربى العظيم فى شتى منازع الفكر و الوجدان. ثم امتد فهمهم العقلى إلى ما وراء الموروث الحضارى العربى من موروث حضارى إنسانى يمثل أبعاد الحركة العقلية العالمية، فأكبوا عليه تبصراً بحقائقه و فهماً لأسراره، و إظهاراً لكل قيمه الجمالية و التكنيكية، فتكونت لديهم أساسية فنية معينة، و اجهوا بها حركة الإبداع و التطور فى الشعر العربى الحديث.

و كان العقاد أضخم زملائه صوتًا و أكثر هم وعيًا بحركة الإبداع و التطور الفنى و إيقاعاته المتوافقة، فقال فى حديثه عن الشعر : إنه تفجر وجداني يعبر عن ذات شاعره و عن نوازعه الخاصة، و هواتفه الإنسانية و أنّ يغوص من خلال هذا الصدور عن الوجدان الذاتى فى بحار التعبير عن حقائق الكون و الطبيعة و النفس، فلا يرى فيه حقائق الأشياء حقائق مجردة أو صماء أو موضوعية إذا جاز أن يقال، و إنما يرى فيه إلى حقائق الأشياء و هى

---

١ - المصدر السابق صـ ٣٨٢

Dhaka University Institutional Repository

تحمل نبض شاعرها و إحساسه بها و انفعاله بايقاعاتها و رؤيته الحميمة لكل ما فيها من دماثة رائعة أو دماثة فاجعة أو أى شيء آخر غير هذه و تلك، المهم أن يكون كل شئ هنا حاملاً روح شاعره منبئًا عن ملامحه و قسماته،" "فالشاعر الذى لايُعْرَفُ يشعره لايستحق أن يعرف"، إذن لابُدَّ أن يكون "الشعر تعبيراً صادقًا عن شاعره ليؤكد بذلك قضية الوحدة بين الفن و الحياة" ..... و لابد أنّ يكون" تعبيراً عن النفس و الكون، و الطبيعة، و ليس مجرد تهويم هيولى أو هرطقة ناضبة ..." و لابُدَّ أن يكون حاملاً لمحورى الفكر و الشعور، فلا يستقل بالفكر فيصبح رياضة ذهنية جامدة و لايستقل بالشعور فيصبح ثرثرةَ هاربٍ من مواجهة الجذور، و لابُدَّ أن يكون "فى كل مظاهره رصداً لجواهر الأشياء، و ليس مجرد تعدادٍ لصورها و أشكالها و ألوانها ..." و لايكون شعر النظرة الشاملة و لغة الحوار النفسى و بلاغة الخواطر الوجدانية قبل أن يكون شعر التجزئة أو شعر السطح أو شعر بلاغة الكلمات ... و لابد "أن يكون على قدر من الشجاعة التى ترفض التقليد بكل صوره و أنماطه فى الشكل و المضمون" و أن يكون على مستوى الفهم لطبيعة الحركة الشعرية من حيث هى قضية عصر و ليست مجرد حركة فن تعيش بمعزل عن صراعات الأشياء و المفاهيم ... و لابدَّ أن يكون صوت الحرية و حنجرتها جميعًا حتى يستطيع كل شاعر أن يكون نفسه و أن لايكون صدى الآخرين ... و لابد أن تمتد هذه الحرية لتشمل المعمار الشعرى نفسه فتتيح للشاعر أن يعدد القافية ... ثم لابد فى النهاية أن تتنفس القصيدة هواءها الصميمى فتنحنى على وحدتها العضوية التى تجعل منها كائنًا كالكائن الحى. (١)

و قد أعطى العقاد تفصيلات شاملة لقضية الوحدة العضوية فى الشعر العربى، و رغم أن تأثرات عميقة وفدتْ على العرب آنذاك فى فهمهم للفنون الأدبية من الفكر الغربي بعامة، و لكن أديبنا الجليل لم يستسلم تمامًا لروح النظرة الغربية فى ذلك، فقد تناول

---

٢ - المصدر السابق صـ ٢٤٨ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

الشعر و لَوَّنَ جميع قضاياه و على رأسها قضية "الوحدة العضوية" بفهمه الذاتى المستقل و بروح التحدى الحضارى الذى سلح به نفسه، فنراه يحذر من فهم الوحدة العضوية الشعرية على نحو ميكانيكى ضاغط يصيب العمل الشعرى بالضمور و الإحباط، و يؤكد على ضرورة فهم هذه الوحدة العضوية من حيث كونها "وحدة نفسية شعورية و فكرية".

فقد قال العقاد : "إن القصيدة ينبغى أن يكون عملاً فنيًا تامًا يكمل فيها تصوير خاطر و خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه، و الصورة بأجزائها و اللحن الموسيقى بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة و أفسدها، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، و لايغنى عنه غيره فى موضعه، كما لاتغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن الغدة، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها و فائدتها و هندستها و لا قوام لفن بغير ذلك. (١)

و أضاف العقاد فى هذا الصدد قائلاً : "و متى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها، فاعلم أنه ألفاظ لاتنطوى على خاطر مطرد، أو شعور كامل الحياة، بل هو كأمشاج الجنين المخدج شبيه ببعض، أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لايتميز لها عضو، و لاتنقسم فيها وظائف و أجهزة، و كلما استفل الشئ فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين أحزائه." (٢)

- و من جهته قدم إبراهيم عبد القادر المازنى تصورات للشعر تختلف عن زملائه الديوانيين و الأدباء المحدثين الآخرين، فقد عَرَّفَ الشعر بأنه "خاطر لايزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجًا و يصيب متنفسًا" أى أن الشعر هو أداة التنفيس النفسى عن قائله، و من البديهى أن هذه النظرة تضيق عن أن تتسع لألوان أخرى من الشعر الوصفى و الدرامى و الموضوعى وقضايا الشعوب التى يمكن أن تعبر عن آمال الآخرين و آلامِهم ... و المازنى فى هذا

---

١ - المصدر السابق صـ ١٣٢

٢ - المصدر نفسه صـ٣٨٤

Dhaka University Institutional Repository

التعريف متأثر بالرومانسية الإنجليزية، التى تعرف الشعر بأنه "فيض تلقائى للعواطف القوية" و لاشك فى أنّ العاطفة مرتبطة بالتنفيس. يقول المازنى "لابُدّ فى الشعر من عاطفة يفضى بها إليك الشاعر و يستريح" "فالشعر بحالة العواطف لا العقل و لا الإحساس و لا الفكر، و إنما يعنى بالفكر على قدر ارتباطه بالإحساس" و هكذا وَسَمَ الشعر بذاتية محضة و أعطى أهم سمات الشعر الرومانسى.

و لاستكمال نظرته الرومانسية لم يتجاهل المازنى دور الخيال فى الشعر و التعبير عن القبيح لتحويله إلى جمال فنى، "فالشعر يحلق بالمرء فوق الحياة و يزعمه أنْ يحس ما يرى، و أن يرى ما يحس، و أنْ يتخيَّلَ ما يعلم، و أن يعلم مايتخيل، و هو يحيل القبح جمالاً، و يزبد الجمال نضرة و جلالاً، و يفجر فى النفس ينابيع الأمن و الفزع و السرور و الألم". و لكن أديبنا الكبير لم يلبث أن اهتدى إلى عبقريته الفنية فأبحر إلى جديد فى الشعر و أعطاه وظيفته الموضوعية فأكد على ضرورة "أن يؤثر الشعر فى المتلقى و يؤثر عواطفه و حواسه الخامدة و مشاعره الراكدة، و أن يملأ القلب و يشعر النفس كل ما تستطيع البشرية احتماله، و كل ما لاقدرة على تحريكها و انبعاشها"، و قال فى هذا الصدد "إنّ براعة الشعراء لاتستولى على النفس من أجل ما تحدثه فى الذهن من الصور، بل لأنها توقظ فى النفس عاطفة" ...

و لهذا السبب خرج من الشعر الذى لايوقظ عواطف القارىء و لايحرك نفسه و لايستفزها.

و من شروط هذا التأثير فى المتلقى - عند المازنى - الصدق فى العاطفة، و قَدْ سَارَ فى هذا على نهج العلماء القدماء مثل عبد القاهر الجرجانى، فقد أوجب الجرجانى للشعر "المحبة فى القلب إنْ كان فيه الحق و الصدق و الحكمة ... الخ"

و أعطى المازنى المزيد من التفصيلات عن رؤيته الفنية، فأكد على أن يكون الشعر أداة للإبانة و التوضيح، فقد عَابَ الغموض عند الشاعر لأن الكلام الغامض عاجز عن إبانة و توضيح الأغراض الكامنة فى النفوس، و لذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، و أوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب.

Dhaka University Institutional Repository

و المازنى فى هذا الاتجاه ينعطف تجاه الكلاسيكية التى تقيد الشاعر بضرورة مطابقة الألفاظ للحقيقة و الواقع، و لكنه عاد و ناقض نفسه حين قال، "ليس الأصل فى الشعر الاستقصاء فى الشرح و الإحاطة فى التبيين، و لكن الأصل فيه أن نترك كل شيء للخيال."

و لم يقف دور المازنى عند هذا الحد، و إنما امتدَّ هذا الدور ليضيف إلى الشعر فكرته المستلهمة من طبيعة المرحلة، فرأى ضرورة أن يسهم الشعر فى الإصلاح الاجتماعى و التأثير الروحى و الأخلاقى. فليس فى الأرض من ينكر فعل الشعر و تأثيره الأخلاقى، بل أنه اعتبر الشعر فكرة دينية غايتها النهوض الاجتماعى، و وَحَّدَ بين غاية الدين و غاية الشعر، فغاية الدين هى "السمو بالناس إلى منزلة لاتبلغهم إياها غرائزهم الساذجة و عواطفهم الطليقة" و تلك غاية الشعر أيضًا، و لكن عن طريق الجمال، فالفرق بينهما ليس فى الغاية و لكن فى الوسيلة، لأن الشعر يطهر الروح عن طريق العواطف و الاحساسات. و الشعر مسئول عن الرقى الفكرى أيضًا، فمهمته أيضًا "السمو بقومه إلى درجة من الفكر أعلى، و مستوى من التصور أرقى". و هو بالإضافة إلى كونه يستوحى "نظرية التطهير" عند أرسطو الذى يحصر العواطف فى الرحمة و الخوف، فإنه كذلك يوظف الشعر لخدمة الدين و الأخلاق و يجعل منه هاديًا و محرضًا و واعظًا.

بل أن المازنى أعطى الشعر وظيفته التعليمية و قال إن الشعر يدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال الأبد و الحق، و أن يسد النقص فى تجارب المرء."[1]

و يتضح مما سبق أنّ للمازنى فكرتين رئيسيتين فى الشعر. " فكرة الشعر للشعر"، "و فكرة الشعر للحياة و المجتمع." ففكرة الشعر للشعر" مفادها العنصر الجمالى فى الأثر الفنى، فهو يجمّلُ القبيحَ جمالاً فنّيًا، و يزيد الجمالَ نضرة.

أما "فكرة الشعر للحياة و المجتمع" فيرى أنّ الصدق الفنى جزء من غاية الشعر، الذى يعمل على النهوص الروحى و الأخلاقى للمجتمع.

---

١ - مقال بعنوان - "وظيفة الشعر "عند المازنى" نشرته صحيفة الجماهيرية، العدد ٢٨٦٩ الصادر بتاريخ ٢٢ من شهر سبتمبر - ١٩٩٩م

Dhaka University Institutional Repository

و ظل العلمـاء يقومون بالمزيد من المغـامرات العلميـة القيـمة فى مجال الشعر العربى الذى ذاته بحر لاساحل له و لا حدود، و من البديهى أن إنسانًا لايستطيع أن يبحر فيه بلا حدود خلال هذه الفترة الزمانية القليلة و فى إطار هذه الصفحات المحدودة، و تتبع كل ما قاموا به من المغامرات و بذلوا فيها من معاناة و مكابدة و أهوال من أجل استكشاف المزيد من الأسرار الكامنة و الثروات الفنية الضخمة التى لم يتم استخراجها من هذا البحر بعدُ، و عليه فإنه ليس بإمكاننا سوى أن نلقى الضوء على ما جاءت به تلك المغامرات العلمية من ملامح فنية و إنسانية يمتاز بها الشعر العربى الحديث منذ مرحلة الإبداع و التطور حتى يومنا الحاضر، و من أهم هذه الملامح :

- ينبغى أن يكون الشعر قيمة إنسانية و ليس مجرد قيمة لسانية، و أنّ العمل الشعرى بنية حية و ليس قطعا متناثرة. كما يجب أن تتوافر فيه الوحدة العضوية التى يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، و أن يكون الشعر تعبيراً عن ذات الشاعر، و عن نوازعه الخاصة و هواتفه الإنسانية، و عن الكون و الطبيعة. و أن يكون الشعر زاخراً بالفكر الفلسفى إلى جوار كونه زاخراً بالحس الشعرى حتى تتعادل فيه كفة التفكير و كفة الوجدان، و أن يكون مظهراً من مظاهر الجمال الفنى المطلق من ناحية، و مرآة تمثل فى قوة وضعف شخصية الشاعر و بيئته و عصره من ناحية أخرى.

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الثانى

وظيفة الشعر فى العصر الجاهلى :

تفيد الدراسات و الأبحاث الأدبية أنّ العصر الجاهلى كان نقطة البداية فى الرحلات الطويلة التى قام بها الشعر العربى المجيد، فيشمل هذا العصر الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد و بعده، و لكن الذين يبحثون فى الأدب الجاهلى لايتسعون به فى الزمان هذا الاتساع، إذ لايتغلغلون به إلى ما وراء قرن و نصف من البعثة النبوية الشريفة، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمانية، و هى الحقبة التى تكاملت فيها اللغة العربية خصائصها، و التى جَاءَنَا عنها الشعر الجاهلى. و لاحظ ذلك أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ بوضوح، إذ قال : "أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول مَنْ نهج سبيله و سهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر و مهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر - وَجَدْنَا له إلى أنْ جاء اللّه بالإسلام - خمسين و مائة عام، و إذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام"[1]

و يتضح بذلك أن مصطلح العصر الجاهلى يراد به الفترة الزمانية التى سبقت الإسلام بمائة و خمسين عامًا أو مائتى عام.

و أبرز شعراء هذا العصر أمرؤ القيس بن حجر الحارث الكندى (١٣٠ - ٨٠ ق هـ/٤٩٧ - ٥٤٥م)، عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبى (المتوفى ٤٠ ق هـ/٥٨٤م)، عروة بن الورد بن زيد العبسى (المتوفى ٣٠ ق هـ/٥٩٤م)، زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى المعروف بالنابغة الذبيانى (المتوفى ١٨ ق هـ/٦٠٤م)، و ميمون بن قيس بن جندل الوائلى الأعشى (المتوفى هـ ق هـ/٦٢٩م).

و قد نشأ الشعر الجاهلى و نما و ازدهر فى ظل الحياة القبلية، و كان الشعر - كما يراه د/إحسان عباس - فى خدمة المجتمع الصغير الذى يسمى القبيلة.[2] و كانت القبيلة آنذاك بمثابة العقد الاجتماعى، و هى

---

١ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : "الحيوان" طبعة الحلبى جـ / صـ ٧٤

٢ - د / إحسان عباس : "فن الشعر" دار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة صـ ١٦٧

Dhaka University Institutional Repository

تنظم العلاقات بين أفرادها الذين يجب عليهم أن يلتزموا بذلك العقد الاجتماعى التزامًا دقيقًا.

و لم يكن الشعراء إلا أفراداً من ذلك المجتمع القبلى، و كان طبيعيًا أن يلتزم الشعراء بقوانين مجتمعهم، يمارسوا حياتهم وفقًا للعادات و التقاليد السائدة فى ذلك المجتمع، شأنهم فى ذلك شأن سائر أفراد المجتمع، و فوق كل ذلك أن يتخذ الشعراء شعرهم وسيلة لخدمة مجتمعهم، فَبه يشيدون بأمجاد المجتمع و يذيعون عن مفاخره، و يدافعون عن كرامته و شرفه، و يعربون عن اعتزازهم القوى بمجتمعهم، فيجعلون فنهم سجلاً لحياة المجتمع و من لسانه لسانًا له، و به يعربون عن آمال المجتمع و يرسمون الخطوط العامة لسياسته، و يعلنون على الملأ أهدافه، و فى مقابل ذلك يمنحهم المجتمع القبلى لقب شعرائه، فيتحمس أفراد القبيلة لأشعارهم و يتعصبون لهم.

و يرى الباحثون أن موضوع "الاعتزاز بالقبيلة و الدفاع عنها و الإشادة بأمجادها" كان أهم وظائف الشعرِ فى العصر الجاهلى. فقد كان الشعراء ينظمون أشعاراً، يعبرون فيها عن اعتزازهم بقبائلهم و يفخرون بأمجادها و يؤكدون تصميم أفراد القبائل على الدفاع عن ترابهم و ميائهم إذا ما حاول العدو النيل منها. كما يصورون عن آيات البطولات التى يبدونها فى حروبهم مع الأعداء، و يصفون أبطالهم بأنهم أباة الضيم لايهابون الموت و لايتقاعسون فى خوض القتال ضد الأعداء، و يصيحون كذلك انتصارات قومهم و أيامهم المشهورة. و من أبرز الشعراء فى هذا المجال الشاعر عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبى (المتوفى سنة ٤٠ ق هـ حوالى ٥٨٤م) و ننقل هنا نموذجًا من أشهر شعره الذى يقول فيه :

... ورثنا المجد قد علمت معدٌّ — نطاعن دونه حتى نبينَا
متى ننقلْ إلى قومٍ رَحَانَا — يكونوا فى اللقاء لها طحينَا
و نحن التاركون لما سَخطنَا — و نَحْنُ الآخذون إذا رضينَا
و كُنَّا الأيمنينَ إذا التقينَا — و كان الأيْسَرينَ بنو أبينَا
فصَالُوا صَوْلَةً فيمنْ يليهمْ — وَصُلْنَا صولةً فيمن يلينَا

Dhaka University Institutional Repository

فَأبــوا بالنــهاب و بالــــسبايا – و أُبْـــنَا بالمـلـوك مُصفَّديــنَا
و قَدْ عَلــمَ القبائــلُ من معــدٍّ – اِذَا قبـــبٌ بأبطـحـهَا بنـيــنَا
بــأنَّــا المطعمــون اِذا قــدرنَا – وأنَّا المهلـكــون إذا ابتُـليــنَا
و نشربُ إنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْـواً – و يشربُ غيرُنَا كـدراً وطيــنَا
و ملأنا البِرُّ حـتى ضـاق عَـنَّا – و ظَـهْـرُ البَحْـرِ نملـؤُه سفيــنَا
إذا بَلَـغَ الرضيـعُ لـنَا فـطامًا – تخـرُّ لــه الجـبابرُ ساجـديـنَا .[1]

يتحدث الشاعر فى هذه القصيدة عن قبيلته "تغلب" العربية التى حققت من الحضارة ما شاء الله أن تحقق، و لايتجرأ أحد في الشرق أو فى الغرب على إنكارها، لأنها حضارة عريقة مجيدة، وضع أجدادهم لبناتها الأولى، ثم دافع عنها الآباء، وَ ضَحَّوْا بنفوسهم من أجلها، و هاهم الأحفاد يحافظون على هـذه الحـضـارة المجيـدة بدمائـهم، و يحيطونها بقلوبـهم، و يعـمرونـها بأفـكارهـم و عقولهم، فيـا وَيْلَ مَنْ تُسوِّلَ له نفسه المساسَ بحريتهم و النيل من حضارتهم وتقاليدهم و عاداتهم أو الاعتداء عليهم فإنهم عندئذٍ لن يقفوا مكتوفى الأيدى، و لن ينتظروه حـتى يُغيرَ على أرضـهم المقدسـة بل أنهم سيـردون عليـه، و يعبرون خطوط المـوت، مـهمـا ازداد عـددها ليقتصُّـوا من كـل بـاغ و يقطعوا دابره فى كل مكان من أرجاء المعمورة.

و سيغدو غـضبهم و حقدهم رحىً تطحن العدو و تمزقه إربًا إربًا، لأنهم معشر العرب خُلقوا و الحرية تجرى فى عروقهم و دمائهم أينما كانوا، فى البوادى و الحضر و فى السهول و الوديان، و سيبقون أحراراً. يسالمون من يسالمهم، و يعادون مَنْ يعاديهم، بملء إرادتهم دون أن يتدخل أحدٌ فى صياغة قراراتهم.

إنهم العرب مقاتلون أشداء، سلاحهم بأيديهم يقاتلون متعاونين، متضامنين، ليحققوا نصراً مؤزراً، يذلوا به كل جبار، و يُقَوِّمُوْا به كل معوج. و يعتز الشاعر بأخلاق العرب و قوتهم عند القتال، و كرمهم و نبل

---

١ - الشيخ أحمد الشنقيطى : "شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها" طبع دار الأندلس، بيروت ط/٤ ١٩٨٢ صـ ١٤٠ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

أخلاقـــهم حيـــث لايعتـــدون، و لايُعادون إلاّ مَنْ يعاديهم. ثم يفتخر الشاعر بكثرة العدد و العدة بحيث ضاق بهم البر، و ازدحم بسفنهم البحر، إنهم العرب يأبون الضـــيم و يربون أبنائهم و بناتهم على العزة و الشجاعة و القدرة على التحول إلى حيتانٍ بشرية فى البحر و مفارز انتحارية فى البر، دفاعًا عن سيادتهم العربية.

- و بجانب "الاعتزاز بالقبيلة و الدفاع عنها" كان الشعراء فى العصر الجاهلى ينظمون أشعاراً فى التحريض على محاربة الأعداء، و التغـــنى بانتـــصارات قومـــهم و الصياح ببطولات أبطالهم الشجعان "و لانُبالغُ إذا قُلنَا إن التحريض على محاربة الأعداء" كان أهم موضوع استنفد قصائدهم، فقد سعرتهم الحروب و أمـــدها شعرائـــهم بوقـــود جـــزل من التغـــنى ببطولتـــهم، و شجاعتهم الذين لايرهبون الموت، فهم يترامـــون عليه تحت ظـــلال الســـيوف و الرماح مدافعين عن شرف قبائلهم و حماها، و يرتفع هذا الغناء و هذا الصياح فى كل مكان بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه، و لعلَّ ذلك ما دفع الباحثين إلى جمع أشعار العرب الأوائل و قصائدهم التى تسطر تاريخهم و مناقبهم و مفاخر هم، و هل هناك فـــخر أعـــلى من فخر الشجاعـــة و التنكيل بالأعداء. فإذا قرأنا تلك الأشعار لوجدنا هذا الفخر و ما ينطوى فيـــه من الحماســـة و التحريض على الأعداء يدور على كل لسان، كما وجدنا الشعراء يتحدثون دومًا عما تعتز به قبائلهم من الأخذ بأوتارها و من تضـــيق الخناق على أعدائهم، و هم يعـــددون أيامهم مشـــيدين بحســـبهم و نسبـــهم و صبرهـــم فى الملـــمات و كرمـــهم فى الجدب و حمايتهم للجار و إغاثتهم للملهوف و فى أثناء ذلك يُصَوِّبون سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم و كأنهم يريدون القضاء عليهم قضاءً مبرمًا.

قـــال المـــستـــشـــرق الألمانى كـــارل بروكلمـــان (١٢٨٥-١٣٧٥هـ / ١٨٦٨-١٩٥٦م) فى هذا الصدد "..... الحرب كانت فى بعض الأحيان تكاد تستأثر لكل تفكير البدو، و لذلك لعبت دوراً من أهم الأدوار فى أشعارهـــم، و لم يكن عرضًا أنْ سميت أقدم مختارات الشعر العربى بالحماسة نظراً إلى أول أبوابـــها، و أغـــزرها مـــادة، و هو باب التعبيـــر عن ضـــروب الشجاعـــة، و ثوراتها فى أبيات من الشعر قبل القتال، و فى أثناء مراحله المحتدمة

Dhaka University Institutional Repository

كسائر الأجيال المساوية لهم فى مرتبة الحضارة، و أخبار أيام العرب و أشعارها فى الجاهلية و صدر الإسلام ... تقدم حشداً من أمثال هذه المقطوعات الشعرية التى كانت تقال فى استفتاح القتال أو فى مصاحبته ..."[1]

و كان الشعراء فى الجاهلية يتعرضون دومًا لخصومهم، يهددونهم و يتوعدونهم انتقامًا مروعًا، و كان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل، فحينئذٍ يأخذ الشعراء ينشدون أناشيد الحرب، يحرضون فيها أفراد قبائلهم على محاربة الأعداء ليأخذوا بثأرهم ... من مثل قصيدة الشاعر دريد بن الصمة البكرى (المتوفى ٨ هـ/ ٦٣٠م) و التى يتغنى فيها بثأره من قتلة أخيه عبد الله، و مع ذلك لا يزال يتوعدهم و يهدد باستمرار البطش عليهم، فيقول :

و ياراكبًا إما عَرَضْتَ فبلِّغَنْ — أبا غالبٍ أن قَدْ ثَأرْنا بغالبِ.
قتلتُ بعبد الله خير لِداتِه — ذُؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارب.
فلليوم سُميتُم فَزارةُ فاصبروا — لوقع القَنَا تنزون نَزْوَ الجنادبِ.
تكُرُّ عليهم رَجْلتِى و فوارسى — و أكرهُ فيهم صَعْدَتى غير ناكبِ.
فإنْ تُدبروا يأخُذْنكم فى ظهوركم — و أنْ تُقْبلوا يأخذنكم فى الترائبِ.
و ان تُسهِلُوا للخيلِ تُسهِلْ عليكمُ — بطعنٍ كإبزاغ المخاض الضوارب.
و مُرَّةُ قد أخْرَجْنَهم فتركنهم — يروغون بالصَّلْعَاءِ روغَ الثعالبِ.
و أشْجَعَ قَدْ أدركْنَهم فتركْنَهم — يخافون خَطْفَ الطيرمِنْ كل جانبِ.
و ثعلبةَ الخُنشى تركنا شريدهم — تعلَّةَ لاهٍ فى البلادِ و لاعبِ.
فَلَيْتَ قبوراً بالمخاضة أخبرَتْ — فتُخبرَ عنَا الخُضْرَ خُضْرَ مُحَاربِ[2]

---

١ - كارل بروكلمان - "تاريخ الأدب العربى" تعريب د/عبد الحليم النجار، طبع دار المعارف، القاهرة جـ١ - صـ٤٩

٢ - أبو سعيد عبد الملك قريب بن عبد الملك الأصمعى - "الأصمعيات" ديوان العرب مجموعات عيون الشعر، تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، ط-٥ القاهرة صـ ١١١-١١٢

Dhaka University Institutional Repository

و واضح أن الشاعر دريد يتشفى من قتلة أخيه عبد الله، فقد انتصر مع جمع من قبيلته على أعدائه من فزارة، فأخذتهم سيوفهم من أمام و من وراء، و مسهلين فى الأرض، و يصور ما لقيته قبيلة مُرَّة فى الحرب من بلاء شديد، و كيف هربت قبيلة أشجع، و كيف نكلوا ببنى ثعلبة و بنى محارب، حتى شبعت منهم الضباع، و يُهدِّدُهُمْ بأنه سيعيد الكرة عليهم.

و كان الشعراء لم يتغنوا فى هذا اللون من شعرهم بشجاعة قومهم و بطولتهم فحسب، بل تَغَنَّوا فيه كذلك ببعض القيم و المثل و المآثر التى يتحلى بها العرب، و يتخذونها مثلاً رفيعًا فى حياتهم و سلوكهم، على نحو ما نجده عند الشاعر المرقش الأكبر هو عوف و قيل هو عمرو بن سعد بن مالك من بنى قيس بن ثعلبة توفى سنة ٥٢٣م.

فيقول الشاعر :

إن تُبْتَدَرْ غايةٌ يومًا لمكرمةٍ - تَلْقَ السوابقَ مِنَّا و المصلينَا
و ليس يهلكُ مِنَّا سيد أبداً - إلاّ افْتَلَيْنَا غلامًا سيداً فينَا
إنّا لنرخِصُ يوم الرَّوعِ أنْفُسَنَا - و لو نسامُ بها فى الأمن أغلبنَا
شُعْثٌ مفارقُنَا، تغلى مراجلُنَا - نَأسُو بأموالنَا آثارَ أيدينَا
المطعمونَ إذا هَبَّتْ شامية - و خيرُ نادٍ رآهُ الناسُ نادينا
إنّى لمن معشرٍ أفنى أوائلُهُمْ - قيلُ الكُماةُ. ألاَ أيْنَ المحامونَا ؟
لو كان فى الألْفِ منَّا واحدٌ فَدَعَوا - مَنْ فارسٌ ؟ خَالَهُمْ إيَّاهُ يَعْنُونَا
إذا الكماةُ تَنَحَّوْا أنْ يصيبهُمُ - حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاها بأيدينَا
و لاتراهُمْ و إنْ جلت مصيبتهم - مع البكاةِ على مَنْ ماتَ يبكونا
و نركبُ الكُرْهَ أحيانًا فيفرجُهُ - عَنَّا الحِفَاظُ و أسْيَافُ تُواتينَا[1]

ففى الأبيات السابقة يتحدث لنا الشاعر أنهم قوم سَبَّاقُون دومًا إلى المقاصد النبيلة، خُلقوا أبطالاً شرفاء، يضحون بنفوسهم فى سبيل الشرف

---

١ - حنفى عبد الله الحنفى و محمد محرم المصرى، "النصوص الأدبية" دار الإصفهانى للطباعة - جدة، صـ ١٦٥ و ما يليها

Dhaka University Institutional Repository

و الكرامة، ففى ساحة القتال تكون أرواحهم رخيصة فى سبيل المجد و الذود عن الحمى، و لكن فى أيام السلم تكون نفوسهم غالية ذات إباء و عفة، فهم قوم أعزاء و كرام يكرمون الضيوف فيجذب الناس إليهم، و يؤكد الشاعر مجدداً أنهم ذو ثباتٍ و شجاعة معروفون ببطولاتهم و شجاعتهم قد يتعرضون للمخاطر فتكشفها سيوفهم.

- و من الوظائف الفنية التى كان الشعراء يؤدونها فى العصر الجاهلى "الهجاء" فقد كانوا يهجون خصومهم و عشائرهم، فلم يسلم منه أحد من أشرافهم، و كانت أهاجيهم تدور على كل ما يناقض المثل و المروءة و الفضائل من الشجاعة و الكرم و حماية الجار و الوفاء و النجدة و طلب الثأر، و ما هى إلا أنْ يدخل الشاعر فى الهجاء، فإذا هو يخلص خصومهم من كل هذه الفضائل و ما يتصل بها، فيصفون أولئك الخصوم بأنهم قوم لايكرمون الجار و لايحمونه، و يفرون من الحروب و يقعدون عن الأخذ بثأرهم، و لم يكن الشعراء الهجاؤون يقفون عند هذا الحد، بل كانوا يتعرضون لمخازى أعدائهم فى حروبهم و أيامهم التى ولّوا فيها على أدبارهم منهزمين. كما كان الشعراء يقذفون فى أعراض خصومهم، و يطعنون فى أنسابهم متعرضين لأمهاتهم على نحو ما نرى عند منقذ بن الطرح بن قيس بن طريف بن عمرو الأسدى (المتوفى ٥٣ قبل الهجرة/ ٥٧١م) فى هجاء بنى عامر، و قد غدروا بأسدى منهم و قتلوه، فقال يعيرهم بما غدروا مفدّيًا أمهم سلمى استهزاءً بهم لما ألحقوا بها من العار، ثم عاد فادّعى عليها البغاء، فيقول :

سائلْ معدّاً من الفوارسُ لا - أوفُوْا بجيرانهم و لاغَنِمُوا
فِدىً لسلمى ثوبايَ إذا دَنِسَ الـ - قومُ و إذْ يَدْسَمون ما دسموا
أنتم بَنُو المرأة التى زعم الـ - نّاسُ عليها فى الْغَىِّ ما زعمُوا[1]

هذا، وقد أدى الشعراء هذه الوظيفة خلال تأدية وظائفهم الفنية الأخرى، كما ألمحتُ الى ذلك ضمن حديثى عن الموضوعات السابقة، فلا حاجة الآن الى تقديم المزيد من التفصيلات فى الخصوص.

---

١ - أبو العباس المفضل بن محمد الضبى "المفضليات" تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، طبع دار المعارف مصر، صـ ٤١

Dhaka University Institutional Repository

- و من الوظائف الفنية فى العصر الجاهلى "الرثاء"، فقد كان الشعراء يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم، فكانوا يمجدون خلالهم و يصفون مناقبهم، حتى تنفر القبيلة إلى حرب مَنْ قتلوهم. و أفادت الدراسات و الأبحاث الأدبية أنّ النساء كن يشاركن الرجال فى الرثاء، فقد كن ما يزلن يَنُحْنَ على القتيل حتى تثأر القبيلة له. و يظهر أنه كان يشيع عند هم ضرب من "التعديد" و هو ذكر محاسن الميت و مناقبها، و خصالها، فما تزال امرأة تنوح و تعدد محاسن الميت، و تردد عليها صواحبها، و جاء فى الأخبار إن النساء لم يكن يندبن موتاهن يومًا أو أيام، بل كن يُطِلْن ذلك إلى سنين معدودات، و يقال إنهن كن يحلقن شعورهن، و يشققن جيوبهن، و يقرعن صدورهن، و يلطمن خدودهن بأيديهن و بالنعال و الجلود، و كن يصنعن ذلك على القبور و فى مجالس القبيلة و المواسم العظام[1] فإذا نظرنا إلى القصائد العربية الجاهلية لرأينا فيها صوراً جلية واضحة لمراثيها، و من أروع الشعر الجاهلى فى هذا الباب قصيدة الشاعرة تماضر بنت عمرو بن الحارث الخنساء رضى الله تعالى عنها (المتوفاة ٣٤هـ) فى رثاء أخيها "صخر" و التى قالها فى الجاهلية و جاء فيها :

فذيَ بعينك أم بالعين عُوَّارُ - أمْ ذرَّفت أن خلتْ مِنْ أهلها الدارُ
كأنَّ عيني لذكراه إذا خَطرتْ - فيضٌ يسيل على الخدَّين مِدْرارُ
تبكى لِصَخْرٍ هى العبرى وقد وَلَهَتْ - و دونه من جديد التُّربِ استارُ
تبكى خناسُ و ما تنفك ما عمرتْ - لها عليه رنينٌ و هى مقتارُ
تبكى خناسُ على صَخر و حق لها - إذْ رابها الدهرُ إنّ الدهر ضرازُ
و إنَّ صخراً لوالينا و سيدنا - و إنّ صخراً إذا نشتوا لنحَّارُ
و إنَّ صخراً لمقدام إذا ركبوا - و إن صخراً إذا جاعوا لعقار
و إنّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به - كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارٌ [2]

بدأت الشاعرة قصيدتها بالسؤال عما أصاب عينها، أمرض أصابها أم سالت دموعها بسبب فراق الأحبة؟ ثم انتقلت إلى ذكر حالها بعد صخر، فثبت أنّ عينها تسيل بالدمع عندما تذكر صخراً و تذكر أنّ بينها و بينه ترابًا

---

١ - د/شوقي ضيف، "تاريخ الأدب العربى"- العصر الجاهلى - دار المعارف، القاهرة صـ ٢٠٧

٢ - ديوان الخنساء (رضـ) منشورات دار الفكر، بيروت، صـ ٤٩ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

يغطى جسده و ستستمر فى البكاء امتد بها العمر و طال إذ العمر مقدر و الموت محتوم. ثم شرعت فى بيان أخيها و صفاته فهو الولى و السيد و الكريم و هو المقدام فى الحروب و المنفق عند الشدائد و هو القدوة و المثل و صاحب الرأى السديد.

و كان الشعراء يكثرون من تأبين مَنْ يموتون منهم فى ميادين الحرب، و قد يضمنون هذا التأبين هجاء لازعًا لخصومهم و فخراً بعشيرتهم و مآثرها و أيامها. و كانوا يستهلون قصائدهم بالغزل، ثم يخرجون منه إلى رثاء أبطالهم الذين ماتوا خلال حروبهم مع الأعداء، متحدثين عن خلالهم الحميدة من الشجاعة و الجود و المضاء و الصبر و الحزم. و كانوا لم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب، بل فسحوا فى مراثيهم لتأبين أشرافهم و إن ماتوا حتف أنوفهم فخراً بهم و اعتزازاً بمناقبهم و أعمالهم و مآثرهم. وقد نجد هم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضًا عطرة. و من روائع تأبينهم مرثية أوس بن حجر بن مالك التميمى (٩٨-٢ قبل الحجرة/ ٥٣٠ - ٦٢٠م) لفضالة بن كلدة الأسدى، و فيها يقول :

أيَّتُهَا النفسُ أجْملى جزعًا - إن الذى تحذرين قد وَقَعَا
إن الذى جَمَعَ السماحةَ و النـ - ـجْدَةَ و الحزمَ و القُوَى جُمَعَا
الألمعىْ الذى يظنُّ لك الـ - ـظنَّ كأن قَدْ رأى و قَدْ سمعا
المخلف المتلف المرزأ لم - يُمْتَعْ بضعفٍ و لم يَمُتْ طَبِعَا
أوْدى و هل تَنْفَعُ الإشاحةُ مِنْ - شئٍ لِمنْ قَدْ يحاولُ البدَعَا. (١)

- و بجانب هذا الرثاء كان عندهم "مديح" يتمدح فيه الشعراء بمناقب قبائلهم و ساداتها، و كانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التى يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها و إبائها و شجاعة أبنائها و ما فيهم من فتكٍ بأعدائهم و إكرام لضيوفهم و رعاية لحقوق جيرانهم.

و من يديع ما نظم فى هذا الباب القصيدة البائية للشاعر زياد بن معاوية ابن ضباب بن يربوع المعروف بالنابغة الذبيانى (المتوفى ٦٠٤م) فى مدح

---

١ - ديوان أوس بن حجر التميمى، نشر محمد يوسف نجم، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م صـ ٥٣

Dhaka University Institutional Repository

الغساسنة، و جاء فيها :

كلينى لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ – و ليل أقاسيه بطئ الكواكبِ ...
إذا ما غَزوا بالجيش حَلَّق فوقهم – عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائب
يصاحِبْنَهم حتى يُغرْنَ مُغارَهم – من الضاربات بالدماء الدوارب
تُراهن خَلْفَ القوم خُزْراً عيونُها – جلوسَ الشيوخ فى ثياب المرانبِ ...
فَهُمْ يتساقون المنية بينهم – بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضاربِ
يَطير قضاضًا بينها كل فَوْنَسٍ – و يَتْبَعُها منهم فَراشُ الحواجبِ
و لا غَيْبَ فيهم غير أنّ سيوفهم – بهن فلولٌ من قِراع الكتائب ...
لهم شيمةٌ لم يُعْطها اللهُ غيرهم – من الجود، و الأحلامُ غَيْرُ عَوازِبِ
محلتهم ذاتُ الإله، و دينُهُم – قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ ...
جَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذا كُنْتُ لاحقًا – بقومى و إذ أعيَتْ عَلَىَّ مذاهبى[1]

استهل الشاعر قصيدته بمخاطبة ابنته أمامة فيشكو إليها همومه و أشجانه لما وقع فى قبضة الغساسنة من أسرى قومه، و نراه يصور طول الليل و هَمَّه فيه تصويراً بديعًا، فالكواكب بطيئة لا تجرى، حتى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه و يحصدها حصداً لن يؤوبَ، و الليل يثقل على صدره بما يردُّ عليه من موجات الهم و الحزن. ثم يخرج الشاعر من ذلك إلى مدح عمرو بن الحارث الغسانى و آبائه و عشيرته، و يقف طويلاً عند تصوير جيوشه و ما تحقق له من انتصارات عظيمة، و يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور و العقبان تتبع جيش الغساسنة تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم، ثم يفصِّلُ النابغة تلك الصورة حتى يحكم المعنى و يكشفه كشفًا دقيقًا، فيقول إن جماعات الطير من خزر العيون تشبه فى ألوانها ثياب المرانب السوداء التى يلبسها الشيوخ، و هى تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم. و يمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش، و ما على خيله من أثر للطعان و جروح بين مدم و متجمد عليه الدم، و يقدم وصفًا جميلاً لأفراد الجيش، فيصفُ جرأتهم فى الحرب، و اقتحامهم لأهوالها، كأنهم يتساقون كئوس المنية. ثم يصور كيف يثخنون فى أعدائهم، و لم يلبث

---

١ – د/شوقى ضيف "تاريخ الإدب العربي" جـ١ – صـ٢٨٢ و ما بعدها.

Dhaka University Institutional Repository

أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم و باطنها مدح شديد، فيقول إنّ الغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد، و هو ليس فى حقيقته عيبًا، بل هو مفخرة من مفاخرهم، فسيوفهم مفللة من طول قراعها و مضاربتها للكتائب، و لم ينس الشاعر أن يشير إلى نصر هم القديم فى "يوم حليمة" الذى هزم فيه المناذرة شر هزيمة، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء فى ساحة المعركة. و قد جعل سيوفهم مفللةً تشق الدروع المتينة و تمزق أصحابها تمزيقًا مطيحة برؤوسهم و مرسلةً شرراً لاينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب، و سيولاً من الدماء كأنها إيزاغ المخاض. و بعد أن استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة فى ميادين الحروب انتقل الشاعر يصورهم فى سلمهم متحدثًا عن شيمهم و شمائلهم و دينهم و نعيمهم، فيصفهم بالجود و رجاحة الأحلام و العقول، ثم يأخذ فى وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم، و أن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة، و أنهم يخشون العواقب. و لايلبث أن يصفهم بالترف و ما كانوا فيه من رفاهة العيش، فهم رقاق النعال و هم أعفاء، يحيّون بالأزهار فى عيد السَّبَاسب أو يوم الشعانين، و هو من أعياد النصارى، و هم منعمون يلبسون ثيابًا بيض المناكب خضر الأكمام. و عاد يستعطفهم على قومه و أنهم إذا كانوا أهاجوهم و استتبع ذلك شراً و بلاء فإن فى الغساسنة خيراً كثيراً. و لم يلبث أن صَرحَ بما جاء من أجله، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه، و قد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب مَنْ أسر منهم عند ممدوحيه، و كأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم، وردوها فعلاً لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع.

– و من و ظائف الشعر الجاهلى "الغزل"، فقد كان غزل الشعراء الجاهليين موزعًا بين ذكريات شبابهم و وصفهم للمرأة. و معروف أنّ أول صورة تلقانا فى قصائدهم هى الوقوف على الأطلال الدارسة و بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها، و تركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى، و ذِكْرِ المحبوبة و الناقة و الرحلة . . .

و كان الشعراء فى غزلهم يقفون عند المرأة، فيصفون جسدها و لايكادون يتركون شيئًا فيها دون وصف له، إذ كانوا يتعرضون لجبينها، وخدّها، و عنقها و صدرها و عينها وفمها، و ريقها، و معصمها، و ساقها،

Dhaka University Institutional Repository

و ثديها، و شعرها، كما يتعرضون لثيابها و زينتها و حليها و طيبها، و حيائها و عفتها .....

و من القصائد الغزلية قصيدة الشاعر عائذ بن محصن بن ثعلبة الشهير بالمثقب العبدى من بنى عبد القيس من ربيعة (المتوفى ٢٥ق هـ) وفيها يقول :

- أفاطهُم قبلَ بينك متّعينى – و منعك ما سألت كأن تبينى
فلاتعدى مواعد كاذباتٍ – تَمُرُّ بِهَا رياحُ الصيف دونى
فإنّى لوتخالفنى شمالى – خلافك ما وصلت بها يمينى
إذا لقطعتها و لقلتُ بينى – كذلك اجتوى مَنْ يجتوينى
لمن ظعن نطالعُ من حبيب – فما خرجت من الوادى لحين
مَرَرْنَ على شراف فذاتِ رجل – و تكبْنَ الذرايخ باليمين
و هن كذاك حين قطعنَ فلجًا – كأن حمولهن على سفين
يشبهن السفين و هن بخت – عُراضاتٍ الأباهر و الشئونِ
و هن على الرجائز و اكنات – قوائل كل أشجعَ مستكيين
كغزلان خذلن بذات ضال – تنوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلّة و سدلن أخرى – و تَقّين الوصاوص للعيون
عَلَوْنَ رباوة و هبطن غيبًا – فلم يرجِعَنْ قائلة لحين.[1]

أحبَّ الشاعرُ امرأة من قومه تدعى فاطمة و تَطَلَّعَ إلى وصالها، و كانت تعدهُ الموعد تلو الموعد، و لكنها تخلفها جميعًا، فلما أقترب موعد رحيلها أنشد أبياتًا يخاطب فيها صاحبته و يطلب منها أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر و الحديث و التحية، و لكنه لايطلب منها ذلك فيما ينبغى أن يكون عليه العاشق من الرفق و من الإلحاح الذى لاغلظة فيه و لاعنف، و إنما يطلب ذلك فى شيء من الجدال المنطقى العنيف. فنراه يقول لصاحبته إنْ منعته مايسألها، فكأنها قد ارتحلت عنه و كأنما انقطعت بينهما الأسباب، فقربها منه و جوارها له لايغنيان عنه شيئًا إذا لم يصاحبها الوصل. و الشاعر متعجل ملح مشفق من خيبة الأمل لايطمئن إلى الوعد و لايستريح إلى الأمل، فنراه يطلب

---

١ - أبو العباس المفضل بن محمد الضبى، "المفضليات" طبع دار المعارف صـ٢٨٨

Dhaka University Institutional Repository

من صاحبته ألاّ تعده المواعيد الكاذبات و التى تشبه رياح الصيف التى لاخير فيها، لأنها ليس فيها إلا الغبار و العجاج.

ثم ينتقل الشاعر من الطلب الملح إلى الوعيد و النذير، فهو لايرضى منها هذا المطل و لايحب منها هذا الخلف، و هو متصبر و صابر على قلة حبه لهذا النوع من الصبر و المصابرة. فلو أنّ إحدى يديه خالفته كما تخالفه صاحبته هذه لما وصل بها يده الأخرى، بل لقطعها قطعا و لقال لها اذهبى إلى غير رجعة فإنما أكرِهُ من يُكرهُنِى و أتَحَوَّلُ عمن يتحولُ عنّى.

على أنَّ الشاعر بعد هذه المقدمة العنيفة نجده يرقُّ بعض الشيء و ذلك حين نظر إلى الهوادج و هى ترتحلُ بمن كانت تحمل، فهو مُتَفَجّعٌ متولِّهُ يسألُ عمن تحمل الإبلُ، كأنه لايصدق أنها ترتحل عنه بمن يحبُّ، ثم يذكر الأماكن التى يمر بها ذكراً يصوّرُ ما يملأنفسه من لهفة و لوعة و حنين لفراق أحبته، و يقدم فى تسمية هذه الأماكن تصويرا صادقًا لما يجده مِنْ إتباع نفسه للحبيبة فى رحلتها الطويلة بعد أن عجز طرفه عن اتباع صاحبته فى هذه الأمكنة ودروبها و مسالكها و وديانها التى مرت بها فى طريقها إلى المرابِعِ الجديدة فى موكب يشبه السفن و لكنها ليست سفنًا و إنما هى إبل ضخام جسام.

و يدع الشاعر الإبل و وصفها إلى الهوادج و من فيها، فيقول إنهنَّ فى مراكبهن مطمئنات لايروعهن فى سفرهن أحد، و لايخيفهن فى هذه الطرق إنسان، بل إنهن ليروّعن الناس، و يَقْتُلْنَ بنظراتهن الشجاع فيستكين لهن. و يَسْتَمِرُّ الشاعر فى و صفهن، فيقول إنّ أحبته كالغزالة الخذول التى تخلفت عن القطيع و انفردت ترعى السدر و تنوش الأغصان بأعناقها الطويلة كأنها ترتديه و أنه ليذكرهن فى هذه الهوادج و قد غشاها الكلل، بعضها وراء ظهورهن، و بعضها من أمامهن تواجههن. و أخيراً يصور الشاعر كيف كن يتقين الوصاوص للعيون، فيركز هذه الالتقاطة السريعة لمشاهد التحمل لكل ما فى الوداع من عنف و كبت، و تخيل فى آن معًا، ثم يعود إلى وصف الرحلة، فيقول إنّ هذه القافلة تستمر فى سيرها، و لاتكاد تنزل لقائلة أو استراحة حتى تصل إلى مرابعها الجديدة.

Dhaka University Institutional Repository

- و من الوظائف الفنية فى العصر الجاهلى "الوصف". فقد كان الشعراء يصفون الأطلال و الديار الدارسة، و السحاب و المطر و السيل و مشاهد الرحيل و الوداع، و الظعائن الراحلة، و يصفون كل شيء وقعت عليه أعينهم فى صحرائهم، و من روائع ما يمثل هذا النوع من الشعر معلقة الشاعر أبى عقيل لبيد بن ربيعة العامرى رضى الله تعالى عنه (المتوفى ٤١هـ) و التى نظمها فى الجاهلية و استهلها بقوله :

عفت الديار محلها فمقامها - بمنًى تأبَّدَ غولها فرجامها

و يقول فيها . . .

أفتلك أم وحشية متبوعة - خذلت و هادية الصوار قوامُهَا
خنساء ضَيَّعتْ الفرير فلم يرمْ - عرض الشقائق طوفها و بُغَامُها
لمعفّر فهدٍ تَنَازَعَ شَلوه - غُبس كواسبُ ما يمنّ طعامُهَا
صادفن منْهَا عَرّةً فأضَبْنَهَا - إنّ المنايا لاتطيشُ سهامُهَا
بانت و أسبل و اكف من ديمة - يروى الخمائل دائمًا تسجامُهَا
تجتافُ أصلاً فالصًا متنبّذاً - بعجوبِ أنقاء يميل هيامُهَا
يعلو طريقة متنها متواتراً - فى ليلة كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا
تضيئُ فى وجه الظلام منيرة - كجمانة البحرى سُلَّ نظامها
حتى إذا انحسر الظلامُ و أسفرت - بكرت تَذِلُّ عن الثرى أزلامُهَا
فتقصدتْ منها كسابٍ فضرجت - بدم و غودر فى المكر سخامُهَا[1]

يصف الشاعر فى هذه الأبيات بقرة وحشية ترعى مع قطيع من بقر الوحش غافلة عن ولدها الذى مزقته السباعُ و تجاذبت أشلاءه فيما بينها، فأخذت تبحث عنه هنا وهناك، تجرى مفزوعة تصيح منادية هذا الفرير الذى فتكت به السباعُ و تركته أشلاء ممزقة.

و يدخل الليل على هذه البقرة المكلومة، و ينهمر المطر غزيراً يتساقط على متنها فى ليلة غطى السحاب نجومها وسماءها. فيدفعها حب الحياة إلى أن تمضى محاولة أنْ تحمى نفسها من البرد و المطر، تدخل فى جذع شجرة

---

١ - شرح ديوان لبيد، نشر د/إحسان عباس، صـ٢٧٨ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

متقلصة الأغصان، ثابتة فوق كُثبان من الرمل. و الشاعر حريص على تصوير مأساة البقرة فى تلك الليلة التى لاتحميها فيها الأغصان من المطر و البرد، و تنهال عليها كثبان الرمال، و هى تحت الشجرة تتحرك يمنة و يسرة يملؤها قلق الجو الذى تعيشه و قلق الولد الذى فقدته، و هى فى هذه الحالة تبدو بلونها الأبيض تتلألأ الدرة التى سقطت من خيطها.

و يمضى الشاعر يصور صباح هذه البقرة الذى لم يكن بأفضل من ليلها. فقد خرجت تبحث عن و لدها من جديد تتزلق قوائمها فى التراب الندى الذى أصابه مطر الليلة البارحة الشديد. و هنا تظهر عاطفة الأمومة بحق، حيث قضت سبع ليال كاملة بأيامها تبحث عن هذا المفقود دونما كلل أو ملل، غير أنّ الأيام تمضى تباعًا، و يدبُّ اليأس فى قلب الأم، و يجف ضرعها و يصبح باليًا، وقد أخلقه ذلك موت الولد لعدم إرضاعه و فطامه.

و ما تَكَادُ هذه البقرة تفرغ من صراعها الأول، و هو البحث عن ابنها حتى تفاجأ بصوت إنسان يريد أن يفتك بها، عندها تنسى البقرة كل شيء و تنطلق مسرعة لاتلوى على شيء، و ينطلق ورائها الصائد يريد صيدها و لكنها تعجزه و تفلت من سهامه فيرسل ورائها كلابه المسترخية الآذان، المعلمة الضامرة البطون و تجرى البقرة بقدرما يسعها الجرى و لكن الكلاب كانت أسرع، فهى قد دربت على ذلك، عندها ترى البقرة أن لابد من القتال و إلاّ نزل القضاء و دنا الأجل، فتندفع منعطفة نحو هذه الكلاب تدخل معها فى معركة حامية الوطيس قتلت فيها البقرة كلبتين إحداهما "كساب" التى ضرجت بدمائها، و الثانية "سخان" التى تركت صريعة فى موطن القتال.

- و بجانب هذه الوظائف الشعرية الفنية، كان الشعراء ينظمون قصائدهم ليدلوا فيها بتجاربهم و قد يفردون لها مقطوعات تزخر بالحكم والمواعيظ، و المعانى النبيلة، مثل المقطوعة الشعرية الشهيرة للشاعر زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح المزنىّ (المتوفى قبيل الإسلام بمدة قليلة) و التى أوردها فى معلقته التى استهلها بقوله :

أمن امّ أوفى دمنة لم تكلم - بِحَوْمَانَةِ الدّرّاج فالمثلم

Dhaka University Institutional Repository

و جاء فيها . . .

و مـا الحـرب إلا مـا علمـتم – و ما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمـة – و تضر اِذا أضريتموها فتضرم
فتعرككم عَرّكَ الرحى بثفالـها – و تلقح كشافًا ثم تحمل فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم، كلهم – كأحمر عادٍ ثم ترضـعْ فتفـطم
فتغلِلْ لكم ما لاتغـلُّ لأهلـها – قُرىً بالعراق من قفيز و درهمِ[1]

و كان الشاعر قد نظم هذه القصيدة داعيًا فيها إلى السلام و الصلح بين القبيلتين المتحاربتين و هما : عبس و ذبيان بعد أنْ قُتل حصينُ بن ضمضم ابن الضباب المرى الذبيانى رجلاً من بنى غالب من عبس، فكادت الحرب تستعر من جديد بينهما .[2]

ففى المقطوعة الشعرية يصور الشاعر الحرب فى صورة قبيحة، فهى تارة أسد ضار، و تارة ثانية نار مشتعلة و تارة ثالثة رحىً تطحن الناس، و تارة رابعة حيوانة لاتلد إلا ذرارى شؤم. وَ وَسَّعَ التهكم، فيقول إنهم يربحون منها ما لايربحه أهل العراق من الغلال و الدراهم، و هو بذلك ينفر الناس من الحرب و يدعوهم إلى السلام، و أن يتحولوا من هذه الحروب و المعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التى تنتشر فيها الأخوة و المحبة و الرحمة.

و من أروع مانظم فى هذا الباب المقطوعة الشعرية للشاعر أمية بن عبد اللّه بن أبى الصلت الثقفى (المتوفى ٥ هـ) و فيها يقول :

غَذَوْتُكَ مولـوداً و عُلْتُـكَ يافـعًا – تَعُلُّ بِمَا أذْنـي إليـك و تُنْهِـلُ
إذا ليلـةُ نابتْـك بِالشَّـكْوِ لـم أبت – لشـكـواك إلا سـاهـراً أتَمَلْمَـلُ
كأنّى أنـا المطـروقُ دونـك بالـذى – طرقت به دونى، و عينـى تهْمِـلُ
تخاف الرّدى نفسى عليك، و إنها – لَتَعَلَـم أنّ المـوتَ حتـمُ مـؤجَّـلُ
فلما بلغت السـنّ و الغايـة التى – إليها مدى ماكنـت فيـك أؤمـلُ

---

١ – شرح ديوان زهير بن أبى سلمى، صنعة أبى العباس تعلب نشر دار الكتب المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية القاهره/١٣٦٣هـ/١٩٤٤ صـ٣ و ما بعدها

٢ – د/عبد المنعم خضر الزبيرى، "مقدمة لدراسة الشعر الجاهلى" منشورات جامعة قاربونس، بنغازى ١٩٨٠ صـ ١٥١

Dhaka University Institutional Repository

جَعَلْتَ جزائى منْكَ جَبْهًا و غلظـة – كأنـك أنـتَ المنعـم المتفضـلُ
فليتـك اذْ لـم تَـرْعَ حـقَّ أبُـوَتِى – فعلت كما الجار المجاور يفعَـلُ
و سميتنـى باسـم المفنَّـدِ رأيـه – و فى رأيك التفنيد لوكنت تعقلُ
تـراهُ مـعـدًّا للخـلاف كأنـه – بردٍّ على أهـل الصواب موكَّلُ. (١)

يعالج الشاعرُ فى هذه القصيدة قضية أخلاقية هامة تتعلق بابنه الذى صار يخالفه فيما يقول، و لايستمع لحديثه استماع المطيع.

يبدأ الشاعر قصيدته بتذكر ابنه عهود طفولته حتى درج على سن الشباب، و قد اهتم الأب بابنه اهتمامًا متزايداً، و أسبغ عليه نعمة مرة بعد مرة، و لم يتركه يحتاج إلى شيء. و كان له كالماء الذى هو عنصر حيوى للحياة، و لو لا اهتمامه و رعايته لابنه لكان قد ضاعَ فى خضم الحياة.

و يستمر الشاعرُ فى تذكير الابن بمواقفه الأبوية المثالية منه، فقد كان إذا اشتكى لمرض أو هَمٍّ أصابه، يصبح الأب كأنه ممدد على الجمر، و كأنه هو الذى اَلَمَّتْ به المصيبة، و هذا شعور أبوى رائع صادق، يتضح من خلال عاطفة الأبوة الواضحة فى تعبير الشاعر "وعينى تُهمل" حيث لايستطيع احتمال رؤية ابنه مريضًا أو حزينًا.

و يؤكد الشاعر حتمية الموت، و يؤكد معه خوفه على ابنه مع علمه بأن الموت حق، و ها هو ذا ابنه يبلغ مرحلة الشباب، المرحلة التى كان الأب ينتظرها، ليرى فى ابنه الثمرة الطيبة التى كان يرجوها، و لكن الابن لم يكن كما كان الأب يتوقع و يأمل، فقد نسى الابن فضل أبيه، و ما كان أشد حسرة الأب و هو يتلقى من ابنه السوء و العقوق، و أصبح كل ما يتمنَّاه أنَّ لو يعتبر الابن نفسه كالجار و كأنه لايصلُ لأبيه بصلة قرابة و لا رحم، و لكن أين منه ذلك، فقد أصبح يسفه آراء أبيه، و كأنه أعدّ مِنْ نفسه حكما متسلطًا على أقوال و آراء الأب، و مَنْ يقولون الصواب.

و نلاحظ من القصيدة عاطفة الأب الصادقة و حرصه على ابنه و محافظته على حياته، كما نرى فى القصيدة جانبًا اجتماعيًا هامًا و هو قيام الأب

---

١ - محمد صلاح الدين موسى، إبراهيم مرسى العباسى عبد الفتاح أحمد أبو زايدة. "الأدب و النصوص و البلاغة و النقد" مطابع إديتار إيطاليا ط - عام ١٩٩٨م صـ٨٣

Dhaka University Institutional Repository

بواجبه فى رعاية بيته و تربية أولاده، و عدم قسوته على أبنائه عندما يخطئون فى حقه.

هذا، و كانت فى الجاهلية جماعة من الشعراء يسمون بالصعاليك. و هم الفقراء الذين ضاقت بهم سبل العيش فى ظل قبائلهم لاختلال الأوضاع السائدة فيها. فانطلقوا إلى الصحراء يشقون طريقهم فى الحياة بقوتهم، و كانوا يقطعون الطرق على القوافل التجارية و يغيرون على الأغنياء المترفين البخلاء، و من هؤلاء الصعالك أبوخراش خويلد بن مرة من بنى هزيل من مضر (المتوفى ١٥هـ/ ٦٣٥م)، أبو زهير ثابت بن جابر بن سفيان الفهمى المعروف ب"تأبط شراً" (المتوفى ٤٠ ق هـ/ ٥٤٠م)، عمرو بن مالك الإزدى المعروف بالشنفرى (المتوفى ٧٠ ق هـ/ ٥٢٥م) و عروة بن الورد بن زيد العبسى (المتوفى ٣٠ ق هـ / ٥٥٤م).

و كان طبيعيًا أن تختلف وظائف الشعر لدى الشعراء الصعاليك عن الوظائف الشعرية التى كان يؤديها شعراء القبائل. فقد أثبتت الدراسات و الأبحاث الأدبية أن الشعراء الصعاليك كانوا ينظمون قصائدهم فى "تصوير حياة الصعلوك، و روحه البدوية الوحشية، و التحريض على الثورة على الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية الفاسدة السائدة فى القبائل، و التعبير عن فلسفتهم و مثاليتهم الخلقية".

فإذا أمعنا النظر فى أشعارهم لرأينا فيها صيحات عالية من الفقر و الجوع و فيها صورة حية لثورتهم العارمة على الأغنياء الأشحاء. و فيها وصف رائع لما يمتاز به الصعاليك من الشجاعة و الصبر عند البأس و شدة المراس و المضاء، و سرعة العدو. و هم فى أشعارهم يَتَغَنونَ بمغامراتهم و نراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم و البر بالأقارب و الأهل، و نحس كذلك عندهم غير قليل من الترفع و الشعور بالكرامة فى الحياة، كما يصور لنا ذلك أبو خراش الهزلى فيقول :

و إنّى لأثوى الجوعَ حتى يملَّنى — فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى و لاجرْمِى
و أغتبقُ الماءَ القراح فأنتهى — إذ الزادُ أمسَى للمزلّج ذا طعمِ

Dhaka University Institutional Repository

أرُدُّ شجاعَ البطن قد تعلمينه – و أوثرُ غيرى من عيالك بالطُّعم
مخافة أن أحيَا برغْمٍ و ذلّةٍ – و لَلْموتُ خيرُ من حياةٍ على رغم.[1]

يخاطب الشاعر زوجته و يفتخرلها بأنه يصبر على الجوع حتى ينكشف عنه، دون أن يلحقه فيه ضيم، و أنه ليكفيه الماء البارد، بينما يتخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتّى إن وجد الطعام أشربه عباله و أولاده، و يفعل ذلك حتى لايوصم بعار الذل.

و من الصعاليك من اتخذوا صعلكتهم بابًا من أبواب المروءة و التعاون الاجتماعى بينهم و بين فقراء قبائلهم و ضعفائها، و كانوا لايغيرون للغزو و النهب و السلب، و إنما يغيرون ليعينوا الفقراء، و المرضى و المستضعفين من قبائلهم، بل كانوا يتخيرون لغاراتهم مَنْ عرفوا بالشح و البخل، و من لايمدون يد العون للمحتاجين فى قبائلهم، فلايرعون ضعفًا و لا قرابةً و لا حقًا من حقوق أقوامهم.

و بذلك كله تصبح الصعكلة عندهم ضربًا من ضروب النبل الخلقى، و كأنها أصبحت صنواً للفروسية، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعاليك المحتاجين فى قبائلهم. كما نجد ذلك عند الشاعر عروة بن الورد العبسى.

و كان عروة يرعى الضعفاء و الفقراء من صعاليك قومه، و بلغ من ذلك التضامن الاجتماعى أنه كان لايؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه، بل لهم مثل حظّه غزوا معه أو قَعَدَ بهم المرض أو الضعف، و هو بذلك يضرب مثلاً رفيعًا فى الرحمة و الشفقة و البذل و الإيثار. الأمر الذى جعل كثيراً من الناس أن يعجبوا به إعجابًا شديداً. فقد كان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بن الحكم (٢٦هـ / ٦٤٦م - ٤٦هـ / ٧٠٥م) يقول : من زَعَمَ أنَّ حاتما "أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد". و كان يقول أيضًا : مايسرنى أنَّ أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلاعروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤ عافى إنائى شركةً – و أنت امرؤ عافى إنائك واحدُ

---

١ - ديوان الهذليين، طبع دار الكتب المصرية/الدار القومية للطباعة النشر، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م جـ٢ صـ ١٢٧

Dhaka University Institutional Repository

أتهزأُ منّى أنّ سَمِنْتَ و أن ترى – بجسمى شحوبَ الحق، و الحقُّ جاهدُ
أفَرّقُ جسمى فى جسوم كثيرة – و أحسُو قَراحَ الماء، و الماءُ باردُ. (١)

يعبر الشاعر عروة عن معنى إنسانى رفيع، إذ تعرضَ له بَعْضَ أصحابه يعيبه بأنه ضعيف هزيل شاحب اللون، فقال له : إنّنى يشركنى كثيرون من العفاة و السائلين ذوى الجاجة فى إنائى و طعامى، أما أنتَ فلايشركك أحد، و لذلك سمنتَ، أما أنا فأصبَحْتُ ضامراً نحيلاً، و ماشحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين و المعوزين، فلستُ أنا الخليق بالهزو و السخرية، إنّما الخليق بذلك السمين البطين و أضاف قائلاً : إنه يُقَسِّمُ طعامه بينه و بين الفقراء، و بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه مكتفيًا بشرب "الماء البارد؛ على حين يعصف الشتاء بزمهريره، و الذى لاريب فيه أن طَمَحَ إلى مَثَلٍ نبيل فى البر و الإيثار و دفع غوائل البؤس و الشقاء عن البؤساء و الضعفاء.

و تلك هى الفكرة العامة عن وظائف الشعر فى العصر الجاهلى" و التى تبرز لنا بوضوح أن الشعراء الجاهليين كانوا ينظمون أشعارهم ليؤدوا خلالها مهامًا هامًا و هى : الاعتزاز بالقبيلة و الدفاع عنها و الإشادة بأمجادها، و التحريض على مجاربة الأعداء، و التغنى بانتصارات قومهم و الصياح ببطولات أبطالهم الشجعان "و المدح" و "رثاء" أفراد قومهم الذين ماتوا خلال حروبهم مع الأعداء، ثم هجاء الأعداء و الغزل، و وصف الأطلال و الديار الدارسة و مشاهد الرحيل، و المناظر الطبيعية الصحراوية، إلى جانب بث الحكم و المواعيظ و المعانى النبيلة و التهذيبية. و من جهتهم كان الشعراء الصعاليك يؤدون بشعرهم و ظائف فنية أخرى تختلف عن الوظائف السابقة لدى عامة الشعراء فى الجاهلية. فقد كان الشعراء الصعاليك ينظمون أشعارهم لتصوير حياة الصعلوك و روحه البدوية الوحشية، و الحث على الثورة على الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية الظالمة و الجائرة السائده فى القبائل آنذاك، و التعبير عن فلسفتهم و مثلهم الخلقية.

---

١ – أبو الفرج على بن الحسين الإصفهانى : "الأغانى" نشر وطبع دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م جـ٣، صـ٧٤

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الثالث
وظيفة الشعر في عصر النبوة والراشدين وبني أمية

يمثل عصر النبوة والراشدين وبني أمية المرحلة من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ. فيقسم هذا العصر إلى قسمين، يشمل أولهما "عصر النبوة والراشدين" والثاني "عصر بني أمية" وسأبدأ دراستي هذه بالحديث عن "وظيفة الشعر في عصر النبوة والراشدين.

و من المعروف أن الإسلام دين وحركة، فهو دين ينظم للناس علاقاتهم بالله عز وجل، وحركة تنظم لمن آمنوا به تعالى الحياة القويمة التي أرادها الله تعالى لهم. وتبعا لذلك كان أول ما ركز عليه الإسلام هو التوحيد ودعوته الناس إلى الانصياع بالعبادة للإله الواحد الصمد، والقضاء على الوثنية و الجاهلية، والرفع من شأن عقل الإنسان، وحثه على التزود بجميع المعارف وطهارة النفس، ونبذ كل الفواحش، و التحلي بالأخلاق الطيبة والانقياد لأوامر الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد لله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي (٥٣ق هـ -١١ هـ).

وما أن شع الإسلام من بطحاء مكة على شبه الجزيرة العربية، حتى غير الكثير من المبادئ والقيم والمفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع العربي القديم. وكان طبيعيا أن تتغير ملامح الشعر ووظائفه بظهور الإسلام، لأن التغيير الجليل الذي اضطلع به الإسلام في حياة الأمة العربية آنذاك كان له تأثير واضح في المواقف الأدبية التي عاشها الشعراء المخضرمون، إذ تغيرت نفسيتهم التي كانت تشمل حياتهم الأدبية، كما تغير كيانهم القبلي الذي كان يسخر لهم جهدهم الأدبي وإنتاجهم الفني القائم على مبادئ وقيم وتقاليد ترسخت في عقولهم ووجدانهم ... فإذا بهم أصبحوا ليروا تلك المبادئ والقيم

Dhaka University Institutional Repository

القديمة تذوب بالإسلام بين أيديهم وتتلاشى أمام عيونهم لتحل محلـــها قيـــم ومبادئ جديدة أرادها الله تعالى لخلقه وسجلها القرآن الكريم بكلمته.

وكان الشعراء المسلمون الأوائل قد تطبعوا بما خطه الإسلام من قيم دينية وفنية، فعف لسانهم عن الكثير من أغراض الجاهليين ومعانيهم الـــتي تســـلك سبيل الغواية وتنأى عن الهدى والرشاد، واتجهوا إلى المعاني النبيلـــة الســـامية والتي كان فيها دافعهم حماية الدين الإسلامي الحنيف ونشر قيمـــه ومبادئـــه وتعاليمه والذود عن رسوله صلى الله عليه وسلم من خصومه مـــن الكفـــار والمشركين الذين وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن ســـبيل الله، وبذلك أصبحت مسألة " الدفاع عن الدين الحنيف ونشـــر قيمـــه ومبادئـــه وتعاليمه السامية ونصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم" وظيفة شعرية خالدة في عصر النبوة والراشدين.

وإذا تتبعنا الأغراض الموروثة عن عصر ما قبل الإسلام وجدنا تحولا كبيرا طرأ عليها عند شعراء عصر النبوة والراشدين نتيجة لتأثرهم بما جدَّ من قيـــم جديدة في الإسلام . ففي "المديح" نجد أنهم وجهوا هذا الغرض نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وكان مدحهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدور حول مجئ الهدى على يديه و أنـــه صادق أمين فيما وكله الله تبارك وتعالى من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وذلك مثل قول الشاعر قيس بن الأشجعي:

معانا بروح القدس ينكى عدوه رسولا من الرحمن حقا بمعلم
رسولا من الرحمن يتلو كتابه قلما أنار الحق لم يتلعثـــم
أرأمره يزداد في كل موطـــن علواً لأمر حَمَّه الله محكم[1]

١-أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري " السيرة النبوية "قدم وعلق عليها وضبطـــها طـــه عبـــد الرؤوف سعد ، ط/ دار الجيل ، بيروت ١٩٧٥ م جـــ/ ٣ ، ص ١١٣.

Dhaka University Institutional Repository

ومن أروع ما نظم في هذا الباب قصيدة حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي الأنصاري رضي اله تعالى عنه (المتوفى ٥٨هـ/٦٧٤م) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول فيها:

شق له من اسمه كي يجله فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض عبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند
أنذرنا نارا و يبشر جنة علمنا الإسلام فالله نحمد
أنت إله الحق ربي وبذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول الحق من دعا سواك إلهاً أنت أعلى و أمجد
لك الخلق والنعماء و الأمر كله فإياك نستهدي وإياك نعبد
لأن ثواب الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد[1]

فقد أجاد الشاعر كل الإجادة في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كرمه الله تعالى سبحانه وتعالى خير تكريم، وجعله أعلى في الجمال الخُلُقي والخَلْقي ونزهه من كل العيوب والنقائص، فقد اشتق المولى تعالى اسم " محمد" من اسمه "محمود" إجلالا وتكريما لنبيه صلى الله عليه وسلم وأرسله رحمة للبشرية كافة بعد أن يئس البشر من رحمة الله عز وجل إثر انقطاع الرسل عليهم الصلاة والسلام وانتشرت الأوثان التي كانت تعبد في الأرض من دون الله، كما انتشرت بين الناس عادات سيئة وأخلاق ذميمة لا تلائم العقل ولا تناسب الفطرة السليمة، فجاء صلى الله عليه وسلم هدى للناس يهديهم إلى الرشاد، ويوضح لهم طريق الخير يوجه أعمالهم ويضبط سلوكهم وينظم أمور

١- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: دكتور وليد عرفات، طبع دار صادر بيروت ١٩٧٤ م جـ ١ ص ٢٠٦.

Dhaka University Institutional Repository

دينهم ودنياهم، وينهاهم عن الشر ويبين لهم القيم والمبادئ السامية والصفات الحميدة التي يجب أن يتحلوا بها لتتحقق لهم السعادة والرفاهية في الدارين.

وفي النهاية يتجه الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى بالتمجيد والتسبيح لأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقتضي بالضرورة تمجيد الله عز وجل الذي أرسله إلى الدنيا هدي للناس، ولأنه هو الإله الواحد الأحد الذي خلقه وخلق الناس جميعا، فله الأمر كله، ومنه وحده تطلب الهداية وهو وحده مستحق للعبادة.

وهذا، ونجد قصيدة رائعة أخرى لحسان بن ثابت رضى الله تعالى جادت فيها قريحة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في مدح سادة من المهاجرين والأنصار رضى الله تعالى عنهم أمام وفد من بني تميم في عام الوفود، ويقول فيها:

إن الذوائب من فهر و إخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقرى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أوحاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

أعفه ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطمعون ولا يزري بهم طمع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

إنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أوسمعوا[1]

يتحدث الشاعر في قصيدته المرتجلة الشهيرة عن سادة المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم الذين أظهروا للناس طريقة للخير ومنهجا للصلاح والفلاح والهدى والنور. وكل من يخش الله تعالى ويعمل على مرضاته

١-المصدر السابق : جـ ١ ، صـ ١٠٢

Dhaka University Institutional Repository

والتقرب منه يرض بهذه الطريقة والسنة التي شرعها وبينها الرسول الكـــريم صلوات الله وسلامه عليه هو وصحابته الأبرار رضي الله تعالى عنهم.

ثم يقول الشاعر إن المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنـــهم لهـــم أقدار ودرجات، وهم عند العداوة أبطال صناديد، وعند الصداقة لا ينســـون الأتباع والأشياع، بل يقومون عنهم ولهم بكل ما فيه خير ونفع.

ويوضح الشاعر أن شجاعة المهاجرين والأنصـــار رضـــى الله عنـــهم وبطولتهم وكرمهم ونجدتهم، أمور متأصلة فيهم ورثوهـــا عـــن آبائـــهـــم وأجدادهم، سرت في طبيعتهم. إن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فيهم أنفة وشمم و إباء، يعزفون عن الخنا ويترفعون عن الدنايا، ويـــأبون النقـــص، ويرفضون العيب، ويحقرون الطمع والجشع، ولهذا أثنى عليهم مولاهم سبحانه تعالى وسجل لهم القرآن الكريم ذلك في ألمع بيان وأسطع تبيان.

إن هؤلاء المؤمنين الصادقين المخلصين قد أســـلموا أنفســـم لله عـــز وجـــل، وألقوا قيادتهم للرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقدموا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، فما تأخروا عن مناصرته وما نكصوا عن معاونته وما انصرفوا عنه في أي حال من الأحوال. ما أكرم قوم رســـول الله عليـــه الصلاة والسلام وما أنبلهم وما أسماهم وما أروع نصرهم للرسول صلـــى الله عليه وسلم والتفافهم حوله، لأنهم أصحابـــه، وأنهم أفضل الخلائـــق وخـــير الناس جميعا.

-أما الهجاء فإن ما جد فيه من تطور عند الشعراء المسلمين في عصر النبوة والراشدين يبدو واضحا لدى جميع الباحثين. فقد ســـخر الشعـــراء كذلـــك هذاالغرض لخدمة الدين الحنيف، وكان الهجاء عندهم يدور حـــول الطعـــن بالمثالب والمعايب، ولكن في شيء من الحرج والتأدب، لأنهم كانوا يـــهجون

Dhaka University Institutional Repository

قوما جاء منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يمثل هجاؤهم في نكث الوعد والرمي بالكفر وعدم الاستجابة لداعي الله تبارك وتعالى، وعدم التحلي بالصفات الخلقية والفضائل النفسية.

ومما نظم في هذا الباب قول أبي محمد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه (المتوفى ٨هـ/ ٦٢٩ م) في هجاء أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ- ٣١ هـ) الذي واعد المسلمين في بدر الآخرة ولكنه تخلف بقريش ولم يصدق ميعاده، فيعيره بنكث الوعد والكفر وعدم الاستجابة لله عز وجل ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبموقفه المتصلب تجاه الإسلام، وفي نفس الوقت يؤكد الشاعر تضحيته على التضحية بنفسه وأهله وماله من أجل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو يتبع أمره ولا يميل عنه ويشاوره ويطيع مشاورته لأنه صلى الله عليه وسلم هاد يهدي الناس إلي الرشاد ويوضح لهم طريق الخير والفلاح ... مما يعود عليهم بالفلاح في الدنيا والآخرة ،فيقول:

وعدنا أبو سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافينا
وأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت الموالينا
عصيتم رسول الله أف لدينكم ... وأمركم السوء الذي كان غاديا
أطعناه لم نعد له فينا بغيره ... شهابا لنا في الظلمة الليل هاديا[1]

_ وإذا تحولنا إلى موضوع الفخر وجدنا الشعراء المسلمين الأوائل يتجهون به منهجا آخر، فقد دار فخرهم حول شجاعة قومهم وإقدامهم ليس لإشاعة الظلم وفرض السلطان، ولكن لنصرة الإسلام والسعي لمرضاة الله

١-ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٢٤

Dhaka University Institutional Repository

تبارك وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قول العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي (المتوفي ١٨ هـ) رضى الله تعالى عنه الذي يفتخر بما كان من قومه "بني سليم" الذين أمدوا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس لينصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاضوا المعركة حاملين الراية في أعلى الرمح يدفعون بها في ميدان القتال فصبغوها بدماء الأعداء، فيقول:

نصرنا رسول الله من غضب له بألف كُمَيٍّ لا تعد خواسره
حملنا له في عامل الريح رايةً يذود بها في حومة الموت ناصره
نحن خضبناها دما فهو لونها غداة حنين يوم صفوان شاجره[1]

يستمر العباس رضي الله تعالى عنه في فخره على نهجه فيقول إن قومه خاضوا غمار الحرب في حنين حاملين أرواحهم على أكفهم في ثبات وصبر خلف أبي سعيد الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكلابي (المتوفى ١١هـ) الذي ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم قيادة بني سليم في ذلك اليوم دون أن يجدوا غضاضة، لأنهم خرجوا لنصرة الرحمن ودينه من مثل قوله:

واذكر بلاء سليم في مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا الرسول وأمر الناس مشتجر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عزا وعند الله مدخر[2]

---

[1]-مقال بعنوان "العباس بن مرداس" بقلم د/إبراهيم عوضين، وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة، نشرته مجلة "المنهل" السعودية، العدد ٤٥ ١٤٠٣ هـ.

٢- المصدر نفسه والصفحة نفسها-

Dhaka University Institutional Repository

ويشيد الشاعر بقيادة الضحاك بن سفيان الكلابي ويفتخر باستجابة قومه له كالأسود تأهبوا للعراك طاعة لربهم سبحانه وتعالى وحبا للرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، فيقول:

ثم الذين وفوا بما عاهدتم جند بعثت عليهم الضحاك
رجلا به درب السلاح كأنه لما تكنفه العدو يراكا[1]

وإذا تركنا الفخر واتجهنا إلى الحماسة وجدنا أن شعرهم فيها كثير، فالغزوات التي خاضوا غمارها، والسرايا التي شاركوا فيها، والفتوحات التي أسهموا في انتصاراتها...جعلت الشعر يجري متدفقا على ألسنتهم، ولا شك فيه أن حماستهم لم تخل من أثر للإسلام، لأنهم كانوا يقاتلون حماية لدينهم ونصرة لنبيهم الذي يقاتل بينهم، لذا كانوا يرون القتل وسيلة يحققون بها الشهادة والتقرب من ربهم والفوز بمرضاته تعالى ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم والذي يذودون ذماره ويدفعون عنه بالسيف واللسان، فيقول الشاعر كعب بن مالك بن عمر وبن القين السلمي الخزرجي الأنصاري رضي الله تعالى عنه (المتوفى ٥٠هـ/٦٧٠م) عن تلك المعاني الرائعة في أبياته التالية في يوم خيبر:

نحن وردنا خيبرا وفروضه بكل فتى عاري الأشاجع مذود
يرى القتل مدحا أن أصاب شهادة من الله يرجوها وفوزا بأحمد
يذود ويحمي عن ذمار محمد ويدفع عنه باللسن وباليد
وينصره من كل أمر يريه يجود بنفس دون نفس محمد[2]

١-المصدر السابق:ص ٥٢

٢- ابن هشام:السيرة النبوية، جـ ٤ ص ١٢

Dhaka University Institutional Repository

-أما الرثاء في عصر النبوة والراشدين فقد كان موقوفا على شـــهداء المؤمنين الذين استشهدوا في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وســـراياه، ثم رثاء النبي صلى الله عليه وسلم ورثاء خلفائه الراشدين رضي الله تعالى عنـــهم من بعده. وكان الشعراء في رثائهم يعبرون عن وجدان جماعي وهو وجـــدان المسلمين جميعا الذين يرون أصحابهم قد سبقوهم إلى الشهادة أو يرون نبيـــهم يرحل عنهم إلى الرفيق الأعلى مخلفا إياهم بعد أن بلغهم رسالة ربه تعـــالى. أو يرون خلفاءه يموتون أو يقتلون...فالحزن هنا ليس خاصا بشاعر ولكنه حزن المسلمين جميعا، ولذا فإن معاني الرثاء تدور حول التعبير عـــن هـــذا الفقـــد الجماعي أو حول تأبين هؤلاء الشهداء والإشادة بأفعالهم الجيدة التي قدموهـــا في سبيل الله تعالى والجزاء الحسن الذي سيجدونه عند ربهم تعالي. هـــذا مـــا تناوله الشاعر كعب بن مالك الخزرجي الأنصاري رضي الله تعـــالى عنـــه في رثاء أبي عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم رضى الله تعالى عنه (٥٤ق هـــ -٣ هـــ)

بكت عيني وحق لها بكاهـــا ... وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالـــوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيـــل
أصيب المسلمون به جميعـــا ... هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هدت ... وأنت الماجد البر الوصـــول
عليك سلام ربك في جنان ... مخالطها نعيم لا يـــــزول[1]

وكذلك يبدو أثر الإسلام واضحا في رثاء حسان رضى اله تعالى عنـــه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نرى قصائده في رثاء الرسول الكـــــريم صلى الله عليه وسلم تنتهي بمعاني الدعاء بالمثوبة والأجر، فيقول في قصيدتـــه الدالية:

١-المصدر السابق : جـ ٣ ص ٨٨

Dhaka University Institutional Repository

وليس هواي نازعا عن ثنائـــه لعلى به في الجنـــــة الخلد أخلـــد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد[1]

وفي داليته الأخرى نراه يختمها بالدعاء له وللمسلمين وبالصلاة علـــى النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى وملائكته الصالحين فيقول:

يارب فاجمعنا معـــا ونبيـــنا في جنة تثني عيون الحســـد
صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد[2]

-إلى جانب ذلك نشأ في عصر النبوة والراشدين شعر جديد يمكن أن نسميه بالشعر الديني. فقد جرى على ألسنة شعراء هذا العصر شعر يدعو إلى الإسلام والالتزام بعقائد الدين الحنيف وما جاء به من مبادئ وقيم سامية. من مثل الأبيات الشهيرة للصحابي الأصيد بن سلمة رضي الله عنه.

إن الذي سمك السماء بقدرة حتى علا في ملكه وتوحدا
بعث الذي ما مثله فيما مضى يدعو لرحمته النبي محمدا

فقد جاء في الأخبار أن الأصيد بن سلمة أسر في إحدى السرايا الـــتي كان يرسلها رسول صلى الله عليه وسلم، فراه الرســـــول الكريم صلـــى الله عليه وسلم فرقَّ لحاله، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، واطمأن قلبه إلى الإسلام بعد أن استقر بين المسلمين في يثرب، وسمع أبوه الشيخ بخبره فأرسل إليه يعاتبه على إسلامه فرد عليه الأصيد بأبيات من الشعر ومنها قوله المذكور أعـــلاه. ووصلت الأبيات إلى أبيه فلم يملك إلا أن استجاب لداعيها، فقدم إلى رسول

١-ديوان حسان بن ثابت جـ ١ ، ص ٤٥٥
٢-المصدر نفسه : ص ٢٦٩

Dhaka University Institutional Repository

الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه منضما إلى ابنه في صفوف المسلمين ـ ١

ومن أروع ما نظم في هذا الباب قصيدة عبد الله بن قيس العابري المعروف بالنابغة الجعدي:

الحمد لله الذي لاشريك لـــــه من لم يقلها فنفسه ظلمـــا

الموج الليل في النهار وفي الليــ ل نهارا يفرج الظلمـــــا

الخافض الرافع السماء على الــ أرض لم يبن تحتها دعما ٢

يؤكد الشاعر وحدانية الله جلت قدرته، وما له مـــن صفـــات تجعلـــه الواحد الأحد المدبر لهذا الكون، المتحكم في ظواهره الذي يـــولج الليـــل في النهار ويولج النهار في الليل الخافض، ويرفع السماء على الأرض بغير عمـــد، وهو يذكر هذه للتدبر والتفكر وصولا إلى يقين في وحدانية الله تعالى وقدرته.

كما نجد الشعراء الآخرين ينظمون أبيات شعرية يسلكون فيها سبيل الحكمة المستمدة من دين الإسلام ومن روحه ومعانيه القيمة، مثل المقطوعة الشعريـــة للشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمي المزني (المتوفى ٢٦ هـــ) رضي الله تعالى عنه.

اعلم أن متي يأتيني قـــدري فليس يحبسه شح ولا شفـــق

١- أبو الفضل شهاب الدين المعروف بابن حجر العسقلاني "الإصابة في تمييز الصحابة" مطبعة السعادة مصر ، ١٣٢٣ هـــ ج ١ ص ٥٣

٢-ديوان النابغة الجعدي : طبع منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ط-١ ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٢وما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

قد يعوذ الحازم المحمـــــود بعد الثراء ويثري العاجز الحمق

فلا تخافي علينا الفقر انتظـــري فضل الذي بالغني من عنده نثق

إن يفن ما عندنا فالله يرزقـــنا ومن سوانا ولسنا نحن نرتزق[1]

يتحدث كعب رضي الله تعالى عنه عن حقيقة القدر والقضـــاء، وأنـــه لاراد لقضاء الله تعالى وقدره إذا وقع، وهذا القضاء والقدر هو الذي يتحكم في مصائر الناس وفيما يعتريهم من تبدل وتغير، فالحازم المحمود قد يفتقر بعد غنى، والعاجز الأحمق قد يثري بعد فقر، وإنما مرد ذلك كلـــه إلى الله تبـــارك وتعالى، فما الغني والمال إلا من عنده هو. ولذا يخاطب زوجته بألا تخشى مـــن الفقر فإن وراء ذلك ربا غنيا يرجى فضله وعطاؤه، ولئن ذهب ما عنده مـــن مال فإن الله تعالى قادر على أن يرزقه وسواه من عباده، ولا يتركهم بـــدون رزق، فهو راعيهم الذي يفضل عليهم وهو الغني الحميد.

وعلى هذا لمنوال ظل الشعر في خدمة الدين الإسلامي الحنيف طـــوال عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عنهم.

–وإذا انتقلنا إلى عصر بني أمية رأينا تطورا كبـــيرا وقـــع في الحيـــاة السياسية والاجتماعية بالمجتمع العربي، فقد تمزق المجتمع إلى أحزاب وطوائف سياسية مختلفة، وانتهي عهد الخلافة الراشدة بمقتل على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي كرم الله وجهه عام ٤٠ هـــ، وتولـــت الأســـرة الأموية عرش الخلافة، وانتقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق، كما تطورت مظاهر التحضر والترف، وظـــهرت معـــها الفواحـــش

١–ديوان كعب بن زهير " شرح أبي سعيد السكري" طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٠م.

Dhaka University Institutional Repository

والعصبيات القبلية المتطرفة التي لم تكد نيرانها تتحول إلى رماد حتى عادت إلى الوجود تارة أخرى بانتهاء عصر النبـــوة و الراشدين.

ومما لاشك فيه أن هذه الأمور قد أثرت في أدب هذا الطور، فأثرت فيه موضوعا وشكلا، فقد وقع تجديد في ألفاظه و معانيه وموضوعاته وقد أكد هذا التجديد الدكتور طه حسين حين قال: "حاول الشعر في هذا العصر (أى عصر بني أمية)(أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب بل فيهما وفي الموضوع أيضا، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقا تاما، لأن عصر الأمويين لم تطل، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان وإنما كان عصر تحول وانتقـــال".[١] وتفيـــد الدراسات والأبحاث الأدبية أن الشعر في عصر بني أمية دخل في حياة جديدة لم يكن عهدا بها في الماضي، إذ تطورت فيه الموضوعات التقليديـــة الموروثـــة، وظهرت بجانبها موضوعات جديدة و من أهمها ما يسمي بالشعر السياســـي.

وكان الشعر السياسي قد طرأ وجرى على ألسنة كثرة من شعراء هذا الطور بحيث لم يبق الشعر في خدمة الدين الحنيف مثلمـــا كـــان في عصـــر النبـــوة والراشدين، بل صار أداة تخدم الأحزاب السياســـية المختلفـــة المنافســـة في الحكـــم مثل الحـــزب الأمـــوي الحـــاكم ، وحـــزب الشيعـــة، وحـــزب الزبيريين...فقد كان لكل حزب سياسي شعراء يتخذون من شعرهم وســـيلة تدعم سياسة حزبهم، وتعبر عن فلسفة ذلك الحزب ونظريته، وتدافـــع عنـــه وتحتج له، وتثبت حقه في الخلافة، وتجادل خصومه، وتشن هجوما عليهم ومن يقفون في صفوفهم.

ومن الشعر السياسي قصيدة أبي حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي (٢٨-١١٠ هـــ) في الخليفة عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي (٢٦-٨٦ هـــ)(والتي يضفي فيها الشاعر على الأمويين صفات التقـــى والـــورع

١-دكتور طه حسين "حديث الأربعاء" طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٤/ جـــ، ص ١٤.

Dhaka University Institutional Repository

والصلاح والعدل والاستقامة، ويرتكز على هذه الصفـــات لبيـــان أحقيـــة الأمويين بالحكم والخلافة دون غيرهم من الأحـــزاب، فيقول:

لولا الخليفة والقرآن يقـــرؤه ما قام للناس أحكام ولا جمـــع
أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليـــــت، ولا هيابة ورع
أنت المبارك يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيـــــع
فكل أمر على يمن أمرت به فينا مطاع ومهما قلت يستمـــع
يا آل مروان إن الله فضلكم فضلا عظيما على من دينه البدع[1]

يقول الشاعر إن الخليفة عبد الملك بن مروان يقرأ القـــرآن الكـــريم ويلتزم به، وهو أمين الله المبارك الذي يهدي الناس إلى الرشاد ويعصمهم عن الأهواء، وما هو كذلك فكل أمر يأمر به مطاع، وكل قول يقوله مســـموع، وذلك لأنه من بني مروان الذين فضلهم الله –جلت قدرته – على خصومهم من أهل البدع.

ومن أروع ما نظم في هذا الباب "هاشميـــات" الشـــاعر أبي المســـتهل الكميت بن زيد الأسدي (٦٠– ١١٦هـــ) والتي ينهج فيها الشاعر نهجـــا منطقيا لإثبات شرعية آل البيت ووراثتهم للحكم وأحقيتهم به لقرابتهم مـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في الخليفة مثل التقوى والزهد والعلم بالكتاب والسنة واتباع هـــدى الشريعـــة والمساواة والعدل بين الناس والإصابة في الرأى والقول، والشجاعة والسخاء والنجدة، مؤكدا على أن هذه الصفات لا يتصف بهـــا إلا آل البيـــت مثـــل هاشميته الميمية حيث يقول فيها:

بل هواي الذي أجن وأبدي لبني هـــاشـــم فروع الأنـــام

١–ديوان جرير " شرح إيليا حاوي " ط / دار الكتب اللبناني ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٢٥٥

Dhaka University Institutional Repository

للقريبين من ندى والبعيديـــ ن من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النـــا س ومرسي قواعد الإســـلام

الحماة الكفاه في الحرب إن لـــ ف ضرام وقوده بضـــرام
والغيوث الذين إن أحل النا س مأوي حواضن الأيتـــام
والولاة الكفاة للأمر إن طـــ رّق يتناً بمجهض أو تمـــام[1]

وسلك شعراء الأحزاب السياسية الأخرى السبيل نفســـه في إثبـــات شرعية أصحابها في الحكم وأحقيتهم به. وهكذا وجدت الأحزاب السياسية في عصر بني أمية من الشعراء من يسندها، ويعضدها، ويدافع عنها كل حســـب مكنته الأدبية وطاقته الفنية. وبما أن هذه الأحزاب السياسية كـــانت مختلفـــة الأهواء ومتعددة الغايات، ولذا فإن الشعر قد جاء يعبر عن هـــذه الأهـــواء ويوظف نفسه لتلك الغايات السياسية.

— وبجانب الشعر السياسي نجد هناك نوعا جديدا آخر من الشعر يشغـــل حيزا ضخما في الحياة الأدبية للعصر الأموي الذي اشتعلت فيـــه عصبيـــات متطرفة أضرمت نارها وأذكت جذوتها عوامل سياسية فكرية وعقلية ســـائدة آنذاك. وكان الشعر الناتج عن هذه العصبيات يحتشد بمعان تتصـــل بـــالفخر بالقبائل وحوادثها التاريخية في الجاهلية والإسلام، والتقليل من شأن القبـــائل المعادية لها، واستخلاص الصور الضاحكة بالمهجو، وهو يضم كذلك فحشا في القول ورميا للنســاء بالباطل على نحو ماكانت عليه الحال عند شعراء الجاهلية.

ويسمي هذا النوع من الشعر بشعر النقائض، وتتمثل قيمة هذا الشعر في فنية نقض المعاني بحيث "ينظم شاعر قصيدة في الفخر بقبيلتـــه وأمجادهـــا

١-محمد محمود الرافعي " شرح الهاشميات " طبعة التمدن الصناعية ، القاهرة ، ص ٣٩.

Dhaka University Institutional Repository

ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى، فينبري له من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورويها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه "[1]

ولعل من أوضح الأمثلة على هذا النوع من الشعر ميميتا الشاعرين البارزين- أبي فراس همام بن غالب التميمي الدارمي الشهير بالفرزدق (المتوفي ١١٠ هـ) وأبي حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي (٢٨- ١١٠هـ) فيقول الفرزدق في قصيدته:

عف المنازل آخر الأيام مطر ومور واختلاف نعام

قال ابن صانعة الزورب لقومه لا أستطيع رواسي الأعلام

إن الأقارع والحتات وغالبا وأبا هنيدة دافعوا مقامي

بمناقب سبقت أباك صدورها ومآثر لمتوجين كرام

إني وجدت أبي بني لي بيته في دوحة الرؤساء و الحكام

من كل أبيض في ذؤابة دارم ملك إلى نضد الملوك همام

فاسأل بنا ربكم إذا لقيتم جشم الأراقم أو بني همام

منا الذي جمع الملوك وبينهم حرب يشب سعيرها لضرام

وأبي أبن صعصعة بن ليلى غالب غلب الملوك ورهطه أعمامي

خالي الذي ترك النجيع برمحه يوم التقا شرقا على بسطام

١- د.شوقي ضيف"تاريخ الادب العربي" ج٢ص ٢٤١ ومابعدها

Dhaka University Institutional Repository

وترى عطية ضاربا بفنائـــه ربقين بين حظائر الأغنـــام

ما مس مذ ولدت عطية أمـــه كفي عطية من عنان لجـــام[1]

يستهل الفرزدق قصيدته ببيت يرسم فيه صورة ديار المحبوبة الراحلة وقد غيرها توالى الأيام، وما تناوبها من أمطار ورياح وأتربة تثيرها هذه الريـــاح، ثم ينطلق منه إلى فخره على جرير وهجاؤه إياه. فهو في هجائه لجريـــر يرســم صورة ساخرة في هذا الهجاء. فجرير ليس له سوى أم تصنع الحظائر الصغيرة للجداء والعنوق، وهو -أي أن جرير-يعترف لذلك أمام قومه بأنه لا يستطيع أن يقف أمام ما لخصمه من حسب أصيل ونسب عريق، بل لا يســـتطيع أن يناطح بشعره القمم الشوامخ والجبال الرواسخ.

والفرزدق مفتون بالسادة المبرزين في قومه، فيوظفهم توظيفا جيـــدا في فخره، كما يوظف جلائل الأعمال التي قاموا بها في حياتهم الماضيـــة، يذكـــر الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي (المتوفى ٣١هـــ) ويذكر الحتات بن يزيد المجاشعي وأباه غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي الدارمـــي المجاشعي (المتوفي ٤٠ هـــ)...أولئك النفر الذين ترتفع فعالهم وتتقـــدم مثـــل مناكب الجبال، وهم الرؤساء وهم الحكام على الناس، وهم الذين توجوا من قبل كسرى، تشهد على تقدمهم وحروبهم القبائل العظيمة مثل بـــني جشـــم الأراقم من تغلب وبني همام من بكر .

والفرزدق موسوعة تاريخ لأمجاد تميم، يستلهم التاريخ في أحداثه ليعلو على جرير، فهو يذكر سفيان بن مجاشع الذي أصلح بين الملك الحارث بـــن

١- محمد عثمان علي "في الأدب الإسلامي"- عصر النبوة والراشدين وبني أمية،طبع دارالاوزاعى بمصر ص ٥٨١ وما بعدها.

Dhaka University Institutional Repository

عمرو بن عدي بن نصر اللخمي الكندي والملك المنذر بن امرئ القيس الثالث بن النعمان بن الأسود اللخمي (المتوفى ٦٠ هـ) ويذكر مجددا أباه غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي الدارمي المجاشعي وغلبته على الملوك في الجاهلية، ويذكر خاله عاصم بن خليفة بن معقل الضبي (المتوفي ٣٠ هـ)، الذي قتل فارس ربيعة أبي الصهباء بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني (المتوفى ١٠ ق هـ) ويذكر كل ما قام به قومه من أعمال ضخمة في الجاهلية والإسلام...

إذا كان هذا هو فعل أجداده وما عرفوا به من أمجاد وأحداث، فما الذي لجرير، سوى أبيه عطية الذي يضرب جبلين بين حظائر البهم الصغيرة، لم يتقلد سيفا في حياته، ولم تمس كفاه منذ أن ولدته أمه عنان فراس، فضلا عن أن يسير إلى قتال أو حرب يحقق فيه مجدا يرثه جرير.

ومن جهته يرد جرير على الفرزدق بقصيدة ميمية مماثلة جاء فيها:

سرت الهموم فبتن غير نيام ... وأخو الهموم يروم كل مرام
مهلا فرزدق إن قومك فيهم ... خزر القلوب وخفة الأحلام
الظاعنون على العمي بجميعهم ... والنازلون بشر دار مقام
بئس الفوارس يوم نعف قشاوة ... والخيل عادية على بسطام
لوغيركم علق الزبير و رحله ... أدى الجوار إلى بني العوَّام
وكان العنان على أبيك محرما ... والكير كان عليه غير حرام
عمدا أعرف بالهوان مجاشعا ... إن اللئام على غير كرام
إن المكارم قد سبقت بفضلها ... فأنسب أباك لعروة بن حزام

Dhaka University Institutional Repository

قيم المراء وقد علوت مجاشعا عليا ذات معاقل وقـــوام
وحللت في متمنع لورمتـــ لهويت قبل تثبت الأقـــدام[1]

يبدأ جرير قصيدته بالحديث عن الهموم التي اعترته برحيل محبوبته، فـــلا ينام لأن همومه لا تنام، ويسترجع ذكرياته مع هذه المحبوبة أيام كـــان الهـــوى مجتمعا، ثم ينتقل إلى هجاء الفرزدق، وهو في هجائه للفرزدق يرسم صـــورة ساخرة في هذا الهجاء .فيصف قومه بأنهم أصحاب قلوب خائرة وأحلام غـــير رزينة، يركبون الأمور دون أن يدروا عواقبها. كما يعير الفرزدق بما صنعتـــه أسلافه من جريمة شنيعة بقتل الزبير بن العوام بن خويلد الأســـدي (٢٨ق-٣٦ هـــ) رضي الله تعالى عنه بعد موقعة الجمل. ويصور كذلك والد الفرزدق بأنه حداد لا يعرف إلا الكير أما عنان الفرس فمحرم عليه. ثم ينتقل إلى فخره على الفرزدق، فيفخر بشعره الذي يبدو كالسم الزعاف في فم من يوجه إليه هجاءه، وبهذا الشعر قد علا على مجاشع، وبه أيضا قد حل في مكان عال لَـــوْ رَامَهُ الفرزدق لسقط قبل أن تثبت أقدامه.

– هذا، وكثر كذلك شعر المديح في العصر الأموي الذي أفرز جماعة مـــن الأثرياء جرى المال بين أيديهم بوفرة غامرة، وكان الشعراء قد توجـــهوا إلى الأثرياء بالمديح بغية الإفادة من أريحيتهم في العطاء والرفد. وكان مدحهم قد امتزج كثيرا بالسياسة ودارت غلبته حول صفات الجود، والمروءة والبـــأس والنجدة وغيرها من صفات المدح الموروثة من شعراء ما قبل الإسلام. وقـــد امتزج أيضا بصفات مستحدثة في الإسلام، من صفـــات التقـــوى والـــورع والصلاح وغيرها، مثل قصيدة أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد (المتـــوفى ٨٠ هـــ) في مدح بني هاشم:

١–المصدر السابق : ص ٥٨٩ وما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

نهاركم مكابدة وصـــوم وليلتكم صلاة واقتـــراء
وليتم بالقرآن وبالتـــزكي فأسرع فيكم ذاك البـــلاء
بكى نجد غداة غد عليـكم ومكة والمدينة والجـــواء
وحق كل أرض فارقـوهـا عليهم – لا أبالكم – البكاء[1]

يمتدح الشاعر بني هاشم بتقواهم القائمة على الأعمال الصالحة حيث نهارهم صوم ومكابدة وليلهم عبادة وتهجد، ولذا فولايتهم أحق بالاتباع لأنها ولاية يقرها القرآن الكريم ويزكيها، فهي ليست ولاية مطامع في الدنيا، إذ لوكانت كذلك لما أسرع إليهم هذا البلاء الذي عاشوا فيه طوال حياتهم، وهم إذا فارقوا هذه الدنيا فإن أثرهم على الأرض سوف يجتاح كل البقاع نجدها ومكتها ومدينتها وجوائها، بل حق لكل أرض فارقوها أن تتأثر لفراقهم، وأن تبكي عليهم.

ويسلك المسلك نفسه أبو فراس همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق (المتوفى ١١٠ هـ) في شيء من الغلو والمبالغة، وذلك في مدحه ليزيد بن عبد الملك. فقد ذهب الشاعر بعيدا حين صور يزيد بأنه أصلح الناس بالنبوة إن كان هناك نبوة بعد المصطفي صلى الله عليه وسلم' وأن حبله هو حبل الله عزوجل، ومن يعتصم به من الرعية يجد الحبل السالم المتين، ' ثم صورآبائه بني أمية بأنهم ورثة الأنبياء وكتبهم، فيقول:

لوكان بعد المصطفي من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائـــم
لكنت الذي يختاره الله بعـــده لحمل الأمانات الثقال العظام

١– أبوالفرج الإصفهاني " الأغاني " طبع ساسي جـ ٢١ ، ص ٦

Dhaka University Institutional Repository

ورثتم خليل الله كل خزانـــة وكل كتاب بالنبوة قائـــــم
وحبلك حبل الله من يعتصم به إذا ناله يأخذ به حبل سالم[1]

-أما الهجاء فقد تأثر كذلك بروح العصر وطبيعته العصبية المتطرفـــة، إذ أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ويطيلـــون في وصفـــهم بالفسوق والفجور والبغي والطغيان، كما يرمونهم دومـــا بـــالظلم وانتـــهاك الحرمات، وتعطيل أحكام الله تعالى وسنة رسوله محمد سلى الله عليه وســـلم، من مثل قصيده الكميت بن زيد الأسدي، والتي يقول فيها:

ألا هل عم في رأيـــه متأمـــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
عطلت الأحكام حـــتى كأنهـــا على ملة غير التي نتنحـــــل
كلام الـــنبي الهـــداة كلمـــنا وأفعال أهل الجاهلية نفعـــل
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتام حتام العنـــاء المـــطـــول
رضوا بفعال السوء من أمر دينهم فقد أتموا طورا عداء و أثكـــلو
لهم كل عام بدعـــة يحدثـــونهـــا أزلوا بها أتباعهم ثم أوحـــلوا
تحل دماء المسلمـــين لهـــديهـــم ويحرم طلع النخلة المـــتهدل
فيارب، هل إلا بك النصريرتجي عليهم ، وهل إلا عليك المعول[2]

يهجو الكيت بني أمية ويشن الهجوم العنيف عليهم بجورهم وسوء حكمهـــم، ويحث الناس على الاستيقاظ من نومهم الذي جعل حكام بني أمية يسلبونهم حريتهم. ويدعوهم إلى التأمل ما هم فيه، والعودة إلى دينهم فهو الكفيل بخلاصهم من الحكم الأموي الذي طالت مدته، حيث ظهر فيها ما كان حكام بني أمية يقومون به من جور وطغيان، وتعطيل أحكـــــام

١-ديوان الفرزدق جمع محمد جمال ، المطبعة الوطنية ، بيروت ١٩٣٣م ص ٨٢٩.

[2]- محمد محمود الرافعي " شرح الهاشميات " ص ٧٠

Dhaka University Institutional Repository

الشريعة الإسلامية. ويسخر الكيمت من هؤلاء الحكام قائلا: "إنهم حكـــام يتكلمون كلام الأنبياء ويفعلون أفعال الجاهلية. ويري أن سبب ذلك كله هو الرضاء بالدنيا، والركون إليها والتمسك بها وأخذ الأمور الجادة مأخذ الهزل.

ويكشف الشاعر عن ضيقه بحكم بني أمية فيقول إنهم عاثوا في الأرض فسادا، أيتموا الأطفال، وأثكلوا الأمهات، واستحدثوا البدع والضـــلالات، وحملوا الناس عليها، واستحلوا دماء المسلمين، ومنعوا الرزق عن العبـــاد. ثم يتجه إلى الله جلت قدرته ويدعوه ليخلص المسلمين من ظلم بني أمية، فمـــا النصر إلا من عنده، لا اعتماد إلا عليها.

-أما الرثاء فقد حدث فيه تطور ملحوظ في العصر الأموي، فلم يعـــدْ مرتبطا بالقبيلة و حروبها، بل صار يتجه نحو اتجاهات مختلفة، وذلـــك تبعـا للعاطفة التي يصدر عنها الشعر، فهناك رثاء حزبي يصدر عن عاطفـــة حزبية، مثل رثاء الخوارج والشيعة لإخوتهم، وهناك أيضا رثاء يصدر عن عاطفة ذاتية مثل رثاء الشعراء عند وفاة أحد أصدقائهم أو أقاربهم، وهناك رثاء الخلفـــاء والأمراء الذي يصدر عن دوافع تتصل بالشاعر نفسه، وتتمثل في التعبير عن حزنه أو حزن المسلمين جميعا.

على أن هذه الاتجاهات المختلفة التي بدت في رثاء هذا الطور قد تأثرت كثيرا بالمعاني الدينية. ولقد كثر على ألسنة شعراء الرثاء الحديث عن المـــوت وحتميته لكل إنسان، والتمسك بالصبر عند وقوعه، فالإنسان لا سبيل له إلى الخلود ولا راد للمنية إن حلت، ولكل أجل كتاب، والإنسان في هذه الدنيا إما مفجوع به أو مفجع بغيره من الأحباب والأصحاب، وغير ذلـــك مـــن العاني المستوحاة من القرآن الكـــريم، مثل رثاء محمد بن خالد بن الـــوليد في

Dhaka University Institutional Repository

الخليفة أبي حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشـــي (٦١-١٥١هـــ) رضى الله تعالى عنه وجاء فيه:

هل في الخلود إلى القيامة مطمع أم للمنون من ابن آدم مدفع
هيهات ما للنفس من متأخـــر عن وقتها لو أن علما ينفع
أين الملوك وعيشهم فيما مضى وزمانهم فيه وما قد جمـــعوا
ذهبوا ونحن على طريقة من مضى منهم فمفجوع به أو مفجَّعٌ[1]

ومن روائع ما نظم في هذا الباب رثاء أبي حرزة بن عطية الخطفي التميمي (٢٨-١١٠ هـــ) لزوجته، وجاء فيه:

لولا الحياء لهاجني استـــعبـــــار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلبي إذ علتني كـــــبره وذو التمائم من بينك صغار
ولقد أراك كسيت أجمل منظـــر ومع الجمال سكينة و وقار
وصلى الملائكة الذي تخيروا والصالحون عليك والأبرار[2]

توفيت زوجة جرير "أم حرزة" فتركت في قلبه نارا تضطرم، وتركت لـــه صبية صغارا زادوا في إذكاء هذه النار، فإذا هي تزداد اضطرامـــا، فـــأنشد قصيدة رائعة يتحدث فيها عن شديد حزنه لفقد زوجته وشوقه إليها، ويقول إن الحياء يمنعه من زيارة قبرها والبكاء عليها، ويذكر ما تركته في قلبـــه مـــن حسرة، إذ فارقته وهو شيخ كبير، وتركت أطفالها صغارا لا يدرون ما الموت وما الفراق.

١-أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني " معجم الشعراء" تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، طبع القدســـي ، القاهرية ، ١٣٥٤ هـــ ص ٣٤٥.

٢-د. شوقي ضيف " تاريخ الأدب العربي "جـــ ٢ ، ص ٢٨٦

Dhaka University Institutional Repository

ويستبد بالشاعر الحزن، فيلجأ إلي ذكراها ليجد فيها العزاء، فيذكر أنها كانت نعم الزوجة، وأنها قضت حياتها معه معززة مكرمة ولم يحدث أن أساء إليها يوما. ويتذكرها ماثلة أمامه في طلعة بهية، وقد كسيت أجمل منظر من سكينة ووقار. ثم يتجه الشاعر بالدعاء لها، فيدعو لها بأن يصلى عليها الملائكة والصالحون والأبرار، كما يطلب لها الصلاة الدائمة التي لا تنقطع من الله سبحانه وتعالى.

هذا، ونجد هناك نوعا آخر من الرثاء لم يكن الشعراء يعرفونه من قبل، وهو رثاء الشاعر نفسه قبل موته مثل قصيدة مالك بن الريب بن حوط بن قرط المازني التميمي (المتوفى ٦٠ هـ) وجاء فيها:

ولما ترائت عند مرْوَ منيتي وخُلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي : ارفعوني لأنني يقر لعيني أن سهيل باداليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فأنزلا رابية، إني مقيم لياليا
وقوما إذا ما استُلَّ روحي وهيئا لي السدروالأكفان ثم ابكيا ليا
لا تحسداني – بارك الله فيكما من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا إلى الهيجا إلى من دعانيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يا لهف نفسي على غد إذا أولجوا عني وخلفت ثاويا[1]

أحس الشاعر بمرضه الذي شعر بأنه لن يمهله طويلا، فقام يقول قصيدته، وهو يحدد المكان الذي اشتد فيه مرضه وهو منطقة (مرو) وهي منطقة بعيدة عن موطن الشاعر، ولهذا كان إحساسه بالغربة كبيرا، مما زاد

١–محمد صلاح الدين بن موسى ، ابراهيم موسر العباسي ، وعبد الفتاح أحمد أبو زايدة "الأدب والنصوص والبلاغة والنقد" جـ ٢، مطبع أديتار ، كاليري ، إيطاليا ١٩٩٨ ص ٩٧.

Dhaka University Institutional Repository

في آلامه الجسمية والنفسية شعوره باقتراب وفاته، والشاعر يطلب من أصحابه أن يرفعوه عن الأرض ويضعوه على مكان مرتفع حتى ير النجم الذي يعرفه في بلاده وهو "نجم سهيل".

ويبلغ الحزن بالشاعر درجة كبيرة، حيث يطلب من صاحبيه عند وفاته أن يهيئا له ما يغسلانه وكذلك الكفن، ثم ليبكيَا عليه بكاء المفارق الحزين. ثم يظهر الشاعر شيئا من كبريائه وعزة نفسه، فيطلب أن يتم حفر مضجعه بالرماح، وأن يكون مضجعه واسعا يليق به وبجسمه الذي حمل النفس الشجاعة. ويذكر الشاعر ماضيه الذي كان فيه شجاعا قوي البأس تستعصي هزيمته على أقوياء الرجال، أما الآن وفي ساعات المرض والموت فلم يعد له حول ولا قوة، ويذكر أنه كان ينثني على الأعداء ويلاحقهم عندما كان الأبطال يفرون، كما كان يلبي دعوة كل من يستنجد به .ثم يذكر الشاعر أيام النعيم وكيف كان كريما في السلم وشجاعا في الحرب، أما الآن وقد حان موعد الدفن فإن أهله يقولون لا تبعد على عادة من يشيعون الموتى، ولكن هل هناك مكان أبعد مما هو فيه؟ وتنتهي آخر أنفاس الشاعر، فيرسل أنَّاته الأخيرة الحزينة، وما عساه أن يفعل وقد انتهي كل شيء، فالليالي ستنطوي وقد أصبح في باطن الأرض.

-إذا تجاوزنا الرثاء إلى "الوصف" وجدنا معانيه في هذا الطور تلتصق التصاقا كبيرا بالقديم. فقد حذا الشعراء الأمويون حذو الشعراء الجاهليين في الوصف. فجاءت صورهم فيه تكرارا لما هو مألوف لدي الشعراء من قبلهم. ويمكننا أن نورد هنا على سبيل المثال ما جاء في قصيدة أبي حرزة جرير بن عطية التميمي.

400408

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

ঢাকা বিশ্ববিদ্যালয় গ্রন্থাগার

Dhaka University Institutional Repository

تجري السواك على أغر كأنـــــه بدر تحد من متون غمـــام
والعيس جائلة الفروض كأنهـــــا بقر جوافل أو رعيل نعـــام
نصي القلوص بكل خرق ناضـــت عمق الفجاج مخرج بقتام
يدمي على خدم السريح أظلـــها والمرو من وهج الهجيرة حام
بات الوســـاد على ذراع شملـــّة وثني أشاجعه بفضل زمـــام[1]

يتحدث الشاعر عن محبوبته وقد زاره خيالها في نومه ليـــلا، فيصـــف ثغرها الذي تجري عليه السواك، فيبدو لامعا متلألئا كأنـــه بردتســـاقط مـــن سحاب ممطر. ثم ينطلق الشاعر إلي الحديث عن الإبل والتنقل بها في الصحراء، فهي تمضي مسرعة سرعة قطيع من البقر أو رعيل من النعام، وهـــو ينْضـــي راحلته في فلاة واسعة ذات فجاج عميقة يلفها الغبار، فمناسمها داميـــة مـــن ضرب بالحجارة التي توهجت من شدة الحر، وهي مع ذلك تنطلق مسرعة...

فهذه كلها صور متكررة يأخذها الشـــاعر الأمـــوي مـــن المـــوروث الشعري، ولكن مع هذا التقليد الواضح للمـــوروث الشعـــري القـــديم في موضوع الوصف فإن هناك شاعرا برز في هذا الطور الأموي، كـــان أكـــثر الشعراء بداوة، حيث كان يسلك مذهب شعراء البدو في قصـــائده، وهـــو الشاعر أبو الحارث ذو الرمة غيلان بن عقبة بـــن نهيـــس العـــدوي (٧٧-١٧٧هـــ) الذي تلمذ لراعي الإبل محمد بن عبد الله بن الثقفـــي النمـــيري (المتوفى ٩٠ هـــ) في الشعر، فكان راوية له وعنه أخذ مذهـــب البـــدو في القصيدة .٢

١- محمد عثمان على " في الأدب الإسلامي" (عصر النبوة والراشدين وبني أمية)ص ٥٨٨.

٢- محمد بن السلام الجمحي" طبقات الشعراء " تقديم يوسف هارون ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٦٩.

Dhaka University Institutional Repository

وكان ذو الرمة أكبر شاعر تغني بالصحراء، وعشقها، وعشق أيامـــها ولياليها ورمالها وآجامها وأعشابها وحيوانها،وكل ما يطوي فيها مـــن آبـــار وسمائم، وسرآب وطير ورياح، وكل ما يلمع في سمائها من كواكب ونجـــوم وسحاب وغيوم. وكأنها وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره في لوحات رائعة، وأروع ما نظم في هذا الباب قولـــه في ظبية وابنها:

إذا استودعته صفصفا أو صريمـــة تَنَحَّت و نصت جيدها بالمناظر
حذارا على وسنان يصرعه الكري بكل مقيل عن ضعاف فواتـــر
تهجره إلا اختـــــلاسا نهارهـــا وكم من رهبة العين هاجـــــر
حذار المنايا رهبة أن يفتنهـــــا به وهي إلا ذاك أضعف ناصـــر ١

يرسم الشاعر لوحة فنية رائعة تصوِّر العواطـــف والمواقـــف النفســـية للحيوان، فيصور لنا ظبية وقد ألفت بابنها على أرض رملية مســـتوية، وهـــو سنان قد صرعه الكرى، ولكن الظبية تقف بعيدا عن ابنها حـــذار أن تـــدل عليها السباع بقربها منه، فهي تقف بعيدا وعينها مشدودة إليه، وقـــد امتـــلأ قلبها بالحب والحنان الشفقة. وعلى هذا النحو كان ذو الرمة يبث في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه.

-أما الغزل فوجدنا معالم التطور فيه أكثر وأوسع في العصر الأمـــوي. فقد تطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطورا واســـعا بحيـــث تكـــاد تختفـــي الموضوعات الشعرية الأخرى. ولم يشمل هذا التطـــور صورتـــه الموســـيقية

١-ديوان ذي الرمة : طبع المكتب العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانيـــــة ١٩٦٤ م ، ص ٢٨٦.

Dhaka University Institutional Repository

وأسلوبه الفني فحسب، بل شمل كذلك صورته المعنوية، ولم يعد الغزل في هذا الطور الوقوف بالأطلال والبكاء على الديار كما كان الحال في العصر الجاهلي، بل أصبح يعبر عن أحاسيس الحب في نفوس الشعراء، وكان من شعراء الغزل من يتحفظ فيكتم حبه في نفسه من أمثال جميل بن عبد الله بن معمر العذري (المتوفى ٨٢هـ) وعروة بن يحيى بن مالك بن الحارث الليثي (المتوفى ١٣٠ هـ) وغيرهما من الشعراء الذين يعرفون بشعراء الحب العذري.١

وكان الشاعر العذري يعرب دائما عن ظمأه إلى رؤية معشوقته ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضربا من التصوف وهو يتغني دوما بمعشوقته متذللا متضرعا متوسلا ، فهي ملاكه السماوي ، وكأنها فعلا وراء السحاب : وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية يصورفيها وجده الذي ليس بعده وجد ، وعذابه الذي لا يشبه عذاب ، وتمضي به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظة ، ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلا أو يصير إلى الشيخوخة ولكن حبه لها يظل شابا في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمان ، ولا يرقى إليه السلوان حتى ليظل يغشى عليه ، بل حتى ليجن أحيانا جنونا . و خير ما يرسم لنا صور الحب العذري قصيدة جميل بن معمر التي يقول فيها:

سأمنح طرفي حين ألقاك غيركم لكيما يروا أن الهوى حيث أنظر
وأكنى بأسماء سواك وأتقى زيارتكم والحب لا يتغير٢

١–د . شوقي ضيف " تاريخ الأدب العرب"ي جـ ٢ ، ص ٣٤٩.

٢–د. خريستو نجم " جميل بثنية والحب العذري" تقديم د. ياسين الأيوبى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ هـ صفحة – ١٨٩.

Dhaka University Institutional Repository

فالقصيدة عبارة عن نصائح تسديها حبيبته " بثينة " بنت حبأ بن ثعلبة بن الهوذ بن عمرو بن الأحب بن ربيعة إلى الشاعر فتوصيه أن يتكتم في الزيارة ، لأنها تخشى عليه من أبناء عمها ، والكاشحين الحاسدين ، وخير وسيلة للتمويه وإبعاد الشبهات أن يظهر البغض لها ويمنح الطرف سواها ، وإذا تغزَّل فيكن عنها ، وليرمز إليها . ومضى الشاعر يرسم لنا حالته ، فيقول:

أ في الناس أمثالي أحبوا فحبهم كحبي أم أحببت من بينهم وحدي
فلم أري مثل الناس لم يغلبوا الهوى ولم أري داء كالهوى كيف لا يعدي
أكان كذا يلقى المحبون قبلنا بما وجدوا أو لم يجد أحد وجدى
أبى القلب إلا حب بثينة لم يرد سواها وحب القلب بثينة لم يجد
فلا و أبيها الخير ما خنت عهدها ولا لي علم بالذي فعلت بعدي[1]

يحس الشاعر بغليان الأحاسيس وتَضَرُّمِ الوجدان ، ويخال نفسه فريدا بآلامه ، وحيدا بأحزانه ويصرح بأنه ما دام قد نذر دمه لواحدة من النساء يشقى بحبها ويسعد ، و لكنه لا يستطيع دفعها عن قلبه ، ولا تستطيع امرأة أخرى أن تسلك الطريق إلى نفسه ، لأن حبه لبثينة دائب الغليان لا يفتر . كما يؤكد ثباته على العهد ، ومحافظته على العفة والزهد بالأغراض الجنسية.

ومن الشعراء من كان يصرح بحبه ولا يتعفف في شعره ، وهم الأغلبية العظمى ، وفي مقدمتهم عمر ابن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومى القرشى (٢٣- ٩٣ هـ / ٦٤٤- ٧١٢ م) وكان عمر بن أبي ربيعة يتغزل في فتيات قريش النبيلات ، ويصور في غزله عواطف المرأة ونفسيتها ، وما يتعمقها من دقائق الحب وما يثير في قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ

١-المصدر السابق نفسه : ص - ١٩٤.

Dhaka University Institutional Repository

الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول أن تعيد الصفاء بينهما.١

ونورد هنا على سبيل المثال إحدى قصائده الشهيرة التي تمثل مسلكه الفني في الغزل العربي ، يقول فيها:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
ولقد قالت لجارات لها وتعرت ذات يوم تبترد
غادة تفتر عن أشنبها حين تجلوه أقاح أو برد
ولقد أذكر إذ قلت لها دموعي فوق خدي تطرد
قلت من أنت ؟ فقالت : أنا من شَفَّهُ والوجْدُ وأبلاه الكمد
قلت أهلا : أنتم بغيتنا فتسمينا فقالت أنا هند
حدثوني أنها لي نفشت عقدا ، يا حبذا تلك العقد.
كلما قلت متي ميعادنا ؟ ضحكت هند وقالت بعد غد٢

ويبدأ الشاعر قصيدته بأمنية طالما راودت الشعراء المحبين ، وهي أن تنجزه حبيبته وعدها لتشفي ما تلاقيه نفسه من وجد وحرقة ، ويتمنى لها أن تمتلك زمام أمرها، فلا يغيرها الوشاة ولا تضعفها غمزات الجارات الحاسدات، وينتقل بعد ذلك ليروى لنا حكاية صاحبتيه مع جاراتها الحواسد ، و قد تخففت من ثيابها أمامهن ذات يوم في صيف قائظ ، وسألتْهنَّ رأيهن في جمالها ، وهل يوافقن عمر فيما يقول ، فسخرن منها وما ذلك إلا حسد ، والحسد قديم في الناس.

١–د. شوقي ضيق " تاريخ الأدب العربي" – العصر الإسلامي ، ص ٣٥٣.
٢–ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ط / دار صادر ، بيروت ، ص ١٠١ وما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

ثم ينتقل الشاعر ليصف بعض محاسن محبوبته ، فهى غادة ، وهي وضاءة الثغر حين تبتسم ، وهي حوراء ، غيداء ، وكأنما أراد بهذا الوصف أن يبطل سخرية الحواسد ، وهو يتلذذ بذكر هذه المحاسن ويتلهى بها عن الشوق المضطرم . كما يتلهى الشاعر بالعودة إلى إحدى ذكرياته معها ذكرى لقائهما الأول ، ويروى في حوار ممتع شائق ، ويتضح من خلال هذا الحوار أنها كانت تعرفه قبل أن يعرفها ، وأنها تكن له من الحب ما لا يعلم به ، فتفصح له عن مشاعرها نحوه ، وتعرفه بنفسها معتزة بالجمال القاتل الذي تملكه . ويرحب بها عمر ويطلب منها أن تذكر اسمها ، ويذكرها بعلاقات الجوار ، فتنهار بين يديه في ذلة وخضوع.

ثم ينتقل ليعرض لنا المحاولات التي يقوم بها الوشاة بهدف التفريق بين الحبيبين ، و لكن عمر لا يضيق بالوشاة ، بل ينشغل عنهم بحديثهم الذي يفرحه على عكس ما كانوا يتوقعون . ويصور صاحبته وهي تتملص من وعدها ، فهي لا تضيق بما يطلب منها الشاعر أن تحدد له الميعاد ، ولا تغضب منه ، بل تتهرب منه ضاحكة ، وكأنها تريد أن تشده إلى حبها وإن كان هذا حب بلا أمل لا سبيل إلى تحقيقه.

وبذلك يبدو أن عمر حَوَّلَ الغزل من الزجل إلى المرأة ، فقد كانت المرأة قبل غزله هي المعشوقة ، أما في غزله فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول نفسه من عاشق إلى معشوق ...، وعلى هذا فإن العاطفة قد انعكست عنده وشذت هذه الشذوذ .[1]

-ورغم انتشار الغزل واللهو والفحش ... في العصر الأموى نجد هناك نفرا من الشعراء ينظمون أشعارا تدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها

١-د . شوقي ضيف : "التطور والتجديد في الشعر الأموي" ، ص ٢٢٩.

Dhaka University Institutional Repository

الزائل والتفرغ إلى العبادات والتحلى بمكارم الأخلاق التي يحث عليها الدين الإسلامي الحنيف . ومن هؤلاء الشعراء أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدولي الكناني (١ ق هـ - ٦٩هـ) ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة فادع الإله وأحسن الأعمال
فليعطينك ما أراد بقدرة فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد ولا تكن بطلابهم لهجا تضعضع للعباد سؤالا
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال ١

كما يدعو الشاعر إلى المثل العليا التي تصور موقف المسلمين من الدنيا ونعيمها ومن هذه المثل الأخذ بمبدأ التوكل على الله والثقة الكاملة فيربه تعالى ، مثل قوله:

ولا تقعد على كسل التمني تحيل على المقادر القضاء
فإن مقادر الرحمن تجرى بأرزاق الرحمن من السماء
مقدرة بقبض أو ببسط وعجز المرء أسباب البلاء
وبعض الرزق في دعة وخفض وبعض الرزق يكتسب بالعناء٢

يوضح أبو الأسود في أبياته المذكورة أن التوكل مرتبط بالسعى ، فالتوكل وحده لا يكفي ، وصحيح أن الأرزاق تجري بتقدير من الله سبحانه وتعالى،

١- ديوان أبي الأسود ، صنعة أبي سعيد السكري ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط/ دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٢٣

٢-المصدر السابق نفسه : ص ١٢٦.

Dhaka University Institutional Repository

ولكن على المرء أن يسعى في دنياه وأن لا يقصر نفسه على التمنى وإرجـــاع القصور إلى القضاء والقدر.

ومن أخص ما يتميز به شعر الزهد هو هاجس الموت التي شغل أذهـــان شعراء الزهد ووجداناتهم ، فهم يرونه في كل خطوة من خطوات الحياة ، حتى إن النوم ليجفوهم من كثرة التفكير فيه والإنشغال به ، هذا ما نجده عنـــد أبي سعيد سابق بن عبد الله البربري (المتوفي ١٠٠ هـــ) واعظ الخليفة أبى حفص عمربن عبد العزيز بن مروان الأموي (٦١- ١٥١هـــ) ويصـــور معظـــم شعره كذلك معاني التقوى والورع ، والزهد والانصراف عن الدنيا ، وأخـــذ العدة للرحيل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملا صالحا ، ومن قوله في ذلك:

تأوّبني همٌّ كثـــــير بلابـــله طروقا فغال النوم عني غوائله
فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت باب أنت لا بد داخله
أيأمن ريب الدهر يا نفس واه تجيش له بالمفظعات مراجله
إذا الجسد المعمور زائل روحه خوى وجمال البيت يا نفس آهله
إذا الأرض خفت بعد ثقلٍ جبالها وخلَّى سبيل البحر يا نفس ساحله
فلا يرتجي عونا على حمل وزره مسيء وأولى الناس بالوزر حاصله[1]

وعلى هذا النحو استمر الشعراء في توظيف أشعارهم لبث الكثـــير مـــن معاني الزهد في العصر الأموي . وتلك هي بعض المعلومات العامة والموجـــزة عن وظائف الشعر في عهد النبوة والراشدين وبني أمية.

❋ ❋ ❋ ❋

١-ابن عساكر "تاريخ دمشق " طبع دمشق ١٣٢٩ هـــ ج ٦ ، ص ٤٣.

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الرابع

وظيفة الشعر في العصر العباسي

يمثل العصر العباسي المرحلة من قيام الدولة العباسية ستة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد بأيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ. وكان العصر العباسي بمثابة ملتقى الحضارات الشرقية والغربية آنذاك، فقد دخلت ثقافات الشرق والغرب في مجال الأدب العربي من الهند والفرس واليونان ، فتوسع رحاب الأدب توسعا كبيرا، وازدهر الشعر ازدهارا رائعا.

تفيد الدراسات والأبحاث الأدبية أن الشعراء العباسيين ظلوا يوظفون الشعر لغاياتهم ومراميهم القبلية والدينية والفنية والنفسية الموروثة، فقد كانوا ينظمون أشعارهم في الأغراض القديمة من المديح وغيره مما كان ينظم فيه الشعراء قبلهم، وبذلك أبقوا الشعر العربي على وظائفه وشخصيته الموروثة، وقد يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة، وأذواقهم المتحضرة المرهفة.

_أولى وظيفة شعرية نقف عندها "المديح". ومعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة وقد تطورت صورة هذه المثالية الخلقية لدى الشعراء العباسيين، فنراهم يعيدون و يبدئون في تصويره المثل الخلقية صورا حية ناطقة. وكانوا يستنبطون معانيا طريفة في السماحة والكرم والحلم والمروءة والعفة، وشرف النفس، وعلو الهمة والشجاعة و البأس، ويجسمونها في الممدوح تجسيما قويا ليجعلوه مثلا ينبغي أن يحتذي به للناس، وقد مضى الشعراء في مديح الخليفة والحاكم ويضيفون إلى هذه المثالية الخلقية مثالية الحكم، وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة الإسلامية وتقوي الله

Dhaka University Institutional Repository

تعالى والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة إلا بدونها.[1] مثل قصيـــدة الشـــاعر أبى عبادة الوليد بن عبيد الطائي المعروف بالبحتري (٢٠٤هـــ-٢٨٤ هـــ) في مدح الخليفة جعفر المتوكل على الله وهو ابن المعتصم بن هارون الرشيد عـــاشر الخلفاء العباسيين، يقول:

أيها الراغب الذي طلب الجو د فأبلى كوم المطايا وأنضـــى
رد حياض الإمام تلق نـــوالا يسع الراغبين طولا و عرضـــا
فهناك العطاء جزلا لمـــن را م جزيل العطاء و الجود محضا
دبر الملك بالســـداد فأبـــرا ماً صلاح الإسلام فيه و نقضا
يتوخى الإحسان قولا وفعـــلا ويطيع الإله بسطا و قبضـــا
إذا ما تشنعت حوله الحـــر ب وكان المقام بالقوم دحضا
يابن عم النبي حقا و يـــا أز كي قريش نفسا ودينا وعرضا
بنت بالفضل والعلو فأصبحـــ ت سماءً وأصبح الناسُ أرضاً
و أرى الفضل بين عارفة منك ترجى وعزمة منك تمضـــى[2]

يمدح البحتري الخليفة العباسي جعفر المتوكل على الله، فيخاطب طالب الجود الذي أتعب نفسه وهزل مطاياه في البحث عنه، ويحثه على أن يمضى إلى الإمام جعفر يجد عطاياه التي تعم طالبي الجود جميعا، فيجد لديه النوال الواســـع والجود الخالص، إنه أكرم من الغيث وأمضى من الحسام.

ويستمر الشاعر في تصويره خليفته في الصورة العربية الإسلامية فيقـــول إنه يدبر ما أوتيه من الملك تدبيرا سديدا صائبا، فإذا أبرم أمرا أو نقضه كـــان

١-دكتور شوقي ضيف " تاريخ الأدب العربي" العصر العباسي، ص ١٦٠

٢- -ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، المجلد الثاني ص ١٢١٥ وما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

ذلك لصالح الإسلام ونجاح أمره، لأنه لا يريد فيما يقول أو يفعل سوى الوصول إلى الكمال، ولا ينبغي فيما يفعل أو يدع سوي طاعة الله جلت قدرته وعظـــم شأنه، وإذا ما دارت رحى الحرب واشتد الخطر على من في المعركة فإنه يبـــدي شجاعته الرائعة، يهاجم الأعداء فيقطع أوصالهم ويعجز خيلهم عن الحركة .

ويقبل الشاعر على ممدوحه ويخاطبه فيقول:يابن عم الرسول صلـــى الله عليه وسلم ويا أطيب قريش نفسا وأقومهم دينا، وأصحهم عرضـــا، لقـد علوت على الناس، وارتفعت عنهم ارتفاعا قويا حتى صرت بالنسبة إليهم كأنك سماء، وهم أرض ويرى الشاعر أن فضل ممدوحه على الناس يتمثل في كـــرم يرجوه منه الناس دوما.

وقد يكون الخليفة سيئ الخلق مثل الأمين وهو محمـــد بـــن هـــارون الرشـــيد المهدي (١٧٠-١٩٨ هـــ) ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الخلقية ومثالية الحكم، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو، و إنما يمدحونـــه خليفـــة للمسلمين وموضع آمالهم وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات الـــتي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . ١

ولم يصور الشعراء في مدائحهم المثالية الخليفة ومثالية الحكم فحسب، بـــل صوروا كذلك الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء وخاصة الفتن، والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة الإسلامية من الروم والترك، وبذلـــك قـــامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة، فهي تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء. ومن أشهر ما يصور ذلك قصيدة الشاعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (المتوفى ٢٣٢ هـــ) في مدح

١-دكتور شوقي ضيف "تاريخ الأدب العربي" -العصر العباسي- ص ١٦١

Dhaka University Institutional Repository

أمير المؤمنين أبي إسحاق المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (١٧٩ – ٢٢٧ هـ) يقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الحد واللعب
أين الرواية بل أين النجوم و ما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب ؟
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتَّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفتْ عنك المني حفَّلا معسولة الحلب
أبقيت جدَّ نبي الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب
تدبير معتصم بالله ، منتقم لله مرتغب في الله مرتقب
لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
خليفة الله جازي الله سعيك عن جرثومة الدين و الإسلام و الحسب
بصُرْتَ بالراحة الكبري فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
فبين أيامك اللاتي نصرتَ بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر الممراض كأنهم صفر الوجوه وحلت أوجه العرب[1].

يمدح الشاعر أمير المؤمنين الخليفة المعتصم بالله ويشيد ببسالته التي أبداها في فتح مدينة عمورية التي كانت مدينة حصينة من بلاد آسيا الصغرى قريبة من أنقرة، وكانت يومئذ تحت حكم الروم الذين أغاروا على بعض الثغور الإسلامية، فمضى المعتصم لحربهم، وحاصر عمورية واقتحمها وغنم منها مغانم كثيرة وكان ذلك عام ٢٢٣ هـ .

ويستهل الشاعر قصيدته بتفضيل القوة على العقل، والسيف على الكتب، والهزو بالمنجمين الذين زعموا أن الوقت لا يناسب غزو بلاد الروم، ولكن المعتصم لم يبال بهم فمضى مسرعا وحارب الروم وانتصر عليهم.

---

[1] – ديوان أبي تمام، طبع دار المعارف، القاهرة ١٢٩٢ هـ. ج ١، ص ٤٥ وما إليها.

Dhaka University Institutional Repository

ويعرب الشاعر عن بالغ تقديره لفتح عمورية ويصف هذا الفتح بأنه أعظم الفتوح قدرا. وهو فتح الفتوح تفَّح له أبواب السماء إجلالا له، وهو فتح حقق مجدا للإسلام والمسلمين وبينما هوى بحظ المشركين وبلادهم.

ويشيد الشاعر بالمعتصم فيذكر أن هذا الفتح قد دبره خليفة يعتصم بالله ويتخذه ملجأ، وينتقم له من هولاء الأعداء الذين أغاروا على بلاد الإسلام وانتهكوا حماها، ويرغب فيما عند الله تعالى وينتظر تحقيق وعده في أن ينصره الله جلت قدرته ما دام يعز دينه خليفة ينصره رعب أعدائه كلما غزا قوما أو قصد بلدا، شجاع حتى كأنه من نفسه الباسلة. في جيش جرار ، يعينه الله عزوجل، ولو لم ينصره الله تبارك وتعالى ما انتصر. إنه خليفة يلبى صوت من يستجير به فيعرض عن النوم وعن المتعة، فيلبي دعوته بالسيف ويشن الهجوم على الأعداء بالجيش الضخم الذي تزلزل الأرض تحت قدميه، وهو يفعل ذلك لأنه يرجو به وجه الله تعالى ولا يريد به كسب المال.

ثم يسأل الله تبارك وتعالى أن يجزي الخليفة خير الجزاء لسعيه في الدفاع عن الإسلام وشرف العروبة، ويختتم حديثه قائلا: إن هذه المعركة التي دارت بين الخليفة وبين الروم تشبه إلى مدى بعيد معركة بدر التي دارت رحاها بين المسلمين وقوى الشر من قريش المشركين.

_وإذا تركنا المديح إلى "الهجاء" وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح. وقد كان الشعراء يرسمون في هجائهم المساوي الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد، ومن ذلك قول أبى عمر حماد بن عمر بن يونس بن كليب السوائي المعروف "بحماد عجرد"حين استطار الهجاء بينه وبين أبي معاذ بن برد بن يرجوخ العقيلى (٩٠-١٦٧هـ).

قل لعيسى الأمير: عيسى بن عمرو ذي المساعي ا لعظام في قحطان

Dhaka University Institutional Repository

والبناء العالى الذي طـــال حـــــتى قصرت دونه يدا كـــل باني
لك جار بالمصر لم يجعـــــل اللـــ ه له منـــك حرمـــة الجـــيران
لا يصلى ولا يصـــــوم ولا يقـــ رأ حرفا من محكم القـــــرآن
طهر المصر منه يـــا أيهـــا المـــ ولى المسمي بالعد ل والإحسان
وتقرب بذاك فيـــــه إلى اللـــ ه تفز منه فوز أهل الجنـــــان
يا بن برد اخسأ ، إليك فمثل الك لْبِ في الناس أنت لا إنســـان
ولعمري لأنت شر مـــــن الكـــــ لْبِ وأولى مـــنـــه بكـــل هـــوان[1]

يغري حماد بهذا الشعر الأمير عيسى بن عمرو والى البصرة على أن ينفي بشار بن برد من هذه المدينة أو يقتله، ويبرر هذا الطلب بفعال يأتى بها بشار.

وقد بدأ الشاعر قصيدته بمدح أمير البصرة ذاكرا أن له مـــآثر عظيمـــة لايستطيع الناس أن يشيدوا بمثلها، ثم أخبره بعدئذ أن له جـــارا في البصـــرة لا يستحق أن يكون له ما للجيران من وفاء عهد، لأنه لا يعمل بأوامر الدين، فلا يصلى ولايصوم، ولا يقرأ القرآن، ومثله رجس وكلب يجب تطهير المدينة منه، والقيام بذلك عمل يتقرب به إلى الله وتعالى.

كما نجد أشد أنواع الاحتقار والاستهزاء لدى على بن العباس بن جريح الشهير بابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣ هـــ) زعيـــم شعـــراء الهجـــاء في الأدب العربي. ومن أروع النماذج في هذا الباب قصيدته التي يقول فيها:

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلب طول
فالكلب واف وفيك غدر ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشـــي وما تحامى ولا تصـــول
وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قـــصة تطـــــول

---

[1] السباعي بيومي ، محمد خلف الله ، محمد الدسوقي شوقى ضيف ، عبد الحميد حسن " الأدب والنصوص " طبع دار نهضة مصر بالقاهرة ١٣٩٨ هـــ ص ١٣٢.

Dhaka University Institutional Repository

وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبـــول
بيت كمعناك ليس فيـــه معنى سوى أنه فضـــول[1]

إن ابن الرومي في هذه القصيدة يهجو من يسمى "عمرو" فصور وجهـــه بأنه قبيح ومشين وهو شبيه بوجه الكلب، وبهذا المدخل انتقل الشاعر إلى تحقير المهجو والتقليل من شأنه، فأسقطه من مرتبة البشر ووضعه في مرتبـــة الكلـــب الذي لا يعرف الحياء ويفعل ما يشاء لأنه غير عاقل. وكأن الشاعر يريد أن يجرد المهجو من صفة العقل ويرميه بالحمق .

ولم يكف الشاعر برسم تلك الصورة القبيحة بل ازداد في تلوينها ونقشها فقام بالمقارنة بين عمرو وذلك الحيوان وجعل مرتبة عمرو دون مرتبة الكلـــب، إذكان من المستطاع أن يؤدب الكلب فيترك مقابحه أما مقابح عمـــرو فإنهـــا لا تزول بل تظل تلازمه، والكلب وفيٌّ لصاحبه أما عمرو فإنه يغدر بصاحبه وبغيره، والكلب يدافع عن مواشي صاحبه ويحميها أما عمرو فإنه لا يثور لعرضـــه ولا يقوم لحمايته، فهو أقل قدرا من الكلب. يا ليته اكتفى الشاعر بهجاء عمـــرو في شخصيته، بل تجاوز ذلك ليحقر قومه، ويقول إن قوم عمرو أهل سوء وبخـــلاء وجبناء، وما عمرو إلا بقايا هؤلاء القوم الأذلاء، وأنهم يشبهون الحجارة الـــتي تقادم عليها الزمن، وهى ثابتة صامتة لا تتحرك، و أن حياتهم لا قيمة لها، وهـــم أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء.

. أما "الفخر" فظلت حيويته القديمة الموروثـــة. فقـــد حـــذا الشعـــراء العباسيون حذْو الشعراء من قبلهم ومضوا يفتخرون بما يتحلى به المـــرء مـــن صفات الفروسية النادرة والشجاعة المتفوقة وما يتمسك به من خصال الشرف

١-دكتور شوقي ضيف "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" دار المعارف بمصر، الطبعة التاسعة، ص ٢١٣.

Dhaka University Institutional Repository

في حالي الغنى والفقر. ومن ذلك قصيدة الشاعر أبى فراس الحـــارث بـــن أبي العلاء سعيد بن أحمد بن حمدان (٣٢٠-٣٥٧ هـــ) يقول فيها:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدهـــم وفي الليلة الظلماء يفتقد البـــدر
ولو سد غيرك ما سددت اكتفوابه وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر
وإني لجرار لكـــــل كتيبـــة معودة ألا يخل بهـــا النصـــر
فأصدى إلي أن ترتوي البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحى الخلوف بغـــارة أو الجيش ما لم تأته قبلي النـــذر
يا رب دار لم نخفـــنى منيعـــة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغـــنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقـــر
ونحن أناس لا توسط عندنـــا لنا الصدر دون العالمين أو القـــبر
تهون علينا في المعالي نفوسنـــا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر[1]

يفتخر الشاعر بمكانته في قومه وشجاعته في الحروب ومروءته وتطلعه إلى المعالي واستهانته بكل شيء في سبيلها. فيقول إن قومه سيبحثون عنه إذا جـــد الجد، ولكنهم لن يجدوا أحدا مثله يحتل ما يحتله هو من مكانة عالية في المجتمـــع. ولقد هيأت له هذه المكانة في قومه أن أصبح قائدا يألف النصر في الحـــروب، يقاتل حتى ترتوى من دم الأعداء سيوفه ورماحه، وحتى يشبع من جثتهم الذئاب والنسور، وهو واثق بشجاعته فلا يحارب حيا غاب رجاله، ولا يفاجئ جيشـــا على غرة، كما أن الحصون المنيعة لا تصده بل تخر صريعة أمامه، وبرغم هـــذه الشجاعة الفائقة عنده مروءة وكرم في معاملة النساء. وهو رجل لا يغيره الغنى ولا يمنعه عن المجد الفقر، ولا يقبل دون الصدر مكانته، يبذل في ســـبيل العليـــا نفسه ولا يجدها غالية مهما بذل فيها من ثمن.

١- السباعى بيومى وزملاؤه "الأدب والنصوص" ص ١٢٦

Dhaka University Institutional Repository

هذا، ونجد هناك نفرا من الشعراء في هذا العصر العباسي يبالغون في فخرهم. فقد كانوا ينظمون أشعارهم يتناولون خلالها صورا تخالف العقل والمروءة والشيم الرفيعة، مثل قصيدة الشاعر هبة الله سعيد بن سناء الملك(المتوفى ٦٣٥هـ.)

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيري يهوي أن يعيش مخلدا
ولكني لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
توقدُ عزمى يترك الماء جمرة وحيلة حلمي تترك السيف مبردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل رأيت الهدى ألا أميل إلى الهدى
وإنك عبدى يا زمان و إنني على الرغم منى أن أرى لك سيدا
وما أنا راض أننى واطئ الثرى ولى همة لا ترضى الأفق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتى لخرت جميعا نحو وجهي سجدا
أرى الخلق دونى إذ أرانى فوقهم زكاء وعلما واعتلاء و سؤددا
ولى قلم في أغلى أن هزَّزتُه مما ضرَّنى ألا أهزَّ المهندا[1]

يصور لنا الشاعر نفسه رجلا لايهاب الموت ولا يرهب الدهر، ولا يبالى بأحداثه إذا نزلت، كما يسجل عزمه المتقد وحلمه و أنفته المتكبرة وإقدامه على الخطوب، ويبالغ في رسم هذه الصورة فيقول إن عزمه المتقد يحيل الماء جمرا، وحلمه يدع السيف البتار مبردا، وإقدامه على الخطوب يجعله يفكر في أن يمد يده إلى أحداث الدهر ولا ينتظر حتى تأتى إليه، وأنفته المتكبرة تجعله حتى يأبى الرى إن وجد الماء يمن عليه، وينصرف عن الهوى إذا كان إدراكه بذلة ويطغى إحساسه بمكانته فيرى الدهر طوع أمره، ويرى الأرض أقل من أن يطأها بقدمه، والنجوم جديرة أن تسجد له لو أنها عرفت مقداره.

١- أحمد الهاشمي " جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب " دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثلاثون، الجزء الثاني، ص ٥١٣.

Dhaka University Institutional Repository

ويفتخر الشاعر بأنه يجد الخلق أقل منه في الذكاء والعلم والمكانة والسيادة، ثم يعود مفتخرا بكرمه ممجدا قلمه، ذاكرا أن له ما للسيف من تأثير بل إن السيف مطيع لأمره سريع التلبية لإشارته.

-أما "الرثاء" فقد حدث فيه تطور كبير في العصر العباسي، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا رثاه الشعراء رثاء حارا، وقد صوروا في رثائهم لهم محنة الأمة في وفاتهم وكيف ملأ موتهم قلوب الأمة حسرة وفزعا، ومن أروع ما يصور ذلك مرثية أبى عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي في الخليفة أبى الفضل جعفر المتوكل على الله بن محمد بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد (٢٠٦-٢٤٧هـ) وجاء فيها:

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره
وكأن الصبأ توفي نذورا إذا انبرت تراوحه أذيالها و تباكره
تغير حسن الجعفري وأنسه وقوض بادي الجعفري وحاضره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها أبوابه ومقاصره
تخفى له مغتاله تحت غرة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثنى الأعادي أعزل الليل حاسره
لوكان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام على الراح بعد أن أرى دما بدم يجرى على الأرض مائره
أكان ولى العهد أضمر غدرة فمن عجب أن ولى العهد غادره[1].

١-ديوان البحتري، تحقيق:حسن كامل الصيرفي، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، المجلد الثاني، ص ١٠٤٥ وما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

هذه القصيدة ترثى خليفة قتل غدرا وتسجل أحداثا سياسية لابست تلك المأساة. وبدأ الشاعر رثاءه بالبكاء على القصر الذي كان المتوكل يقيم فيه والذي يحفظ له البحتري أكرم الذكريات وأعذبها.

وقد أطال البحتري في وصف ما نزل بالقصر من هوان ووحشة، ووازن بين ما صارت إليه حاله وما كان عليه من بهجة وجلال، وأشار في ثنايا ذلك إلى أن الخلافة يومئذ كان لها من مجد وسلطان وأن قصر الجعفري جمع بين أرجائه ما استطاعت الدنيا أن تجمعه من وسائل الترف وأسباب النعيم.

وتحدث الشاعر بعدئذ عن اغتيال الخليفة بأيدي الأتراك بالتعاون مع ولى العهد المتمرد "المنتصر" بن المتوكل وموقف أنصاره منه وما أصابهم من قتل، وكيف أندفع قاتلوه أطماعهم، ويدفعهم إلى هذه الجريمة البشعة، فهم ضالعون مع ولى العهد، فلايخشون لذلك أن يطالبهم بدم القتيل رهطه وأقاربه. ووصف لنا موقفه من مقتل الخليفة على مرأى منه فأسف لعجزه عن الدفاع عن صديقه. إذ كان أعزل لا سلاح معه، ولو كان سلاحه في يده لساور الأعداء ولأرضى خلة الوفاء. ثم أبدى أمله بأن يؤخذ بثأر القتيل سريعا. وعاد إلى نفسه، فذكر أن أمله في الأخذ بالثأر بعيد التحقيق ما دام القاتل هو صاحب الدم.

ثم أنفس الشاعر عن نفسه بهجاء ولى العهد والدعاء عليه بألا يهنأ بما أغتصبه وألا ينجو من سيف سله غدرا، وأن تعود الأمور إلى خليفة حازم، يأخذ بدم القتيل ولا يدعه يراق هدرا.

ومن أروع ما نظم في هذا الباب قصيدة الشاعر على بن جرح المعروف بابن الرومي (٢٢١-٢٨٣ هـ) في ولده، يقول فيها:

بكاؤكما يشفى و إن كان لا يجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي

توخى حمام الموت أوسط صبيتي ... فلله كيف اختار واسط العقد

Dhaka University Institutional Repository

وإنى وإن متعت بابني بعـــــده لذاكره ما حنت النيب في نجـــد
أولادنا مثل الجوارح أيهـــــا فقدناه كان الفاجع البين الفقـــد
لكل مكان لا يسد اختلالـــــه مكان أخيه من جزوع ولا جلد
طواه الردى عنى فاضحى مزاره بعيدا على قرب قريبا على بعـــد
محمد ! ما شيء توهـــم سلوة لقلبي إلا زاد قلبي مـــن الوجـــد
أرى أخويك الباقيين كليهمـــا يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لوَّعـــــا فؤادي بمثل النار من غير ما قصد
وأنت وإن أفردت في دار وحشة فإني بدار الأنس في وحشة الفرد
عليك ســـلام الله منى تحيـــــة ومن كل غيث صادق البرق والرعـــد[1]

كان لابن الرومي أولاد ثلاثة، وكان يحبهم جميعا، وكانوا يملأون عليـــه البيت، ويأنس إليهم، وكان ابنه محمد عزيزا عليه وفجأة هجم المرض على هذا الصغير، وظل يتسلل في أوصاله حتى قضى عليه، وكانت مفاجأة كبيرة على ابن الرومي، فأنشد هذه القصيدة.

يستهل الشاعر قصيدته هذه بمخاطبة عينيه ويطلب منهما أن تجودا لـــــه بالدمع حتى يشفى مما هو فيه وإن كان ذلك لا ينفعه شيئا، ثم يبين لنا أن الموت تعمد أن يختار ابنه الأوسط وبرغم أنه يحب أولاده الثلاثة بلاشك ولكن العاطفة التي يقدمها له ابنه الأوسط تختلف عن التى يقدمها له الاثنان الآخران.

ويفصل الشاعر فكرته السابقة فيبن لنا أنه سيظل يذكره ويحن إليه كمـــا تحن النوق المسنة إلى نجدها برغم أنه يتمتع بابنيه إلا أن لكل واحـــد مكانـــه في قلب الأب والأم لا يسدها الأخر.

١-السباعي البيومي وزملاؤه "الأدب النصوص" ص ٩٩ وما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

ثم ينتقل الشاعر ليصف لنا فظاعة الكارثة التى حلت به وهـــى فقدانـــه لابنـــه الأوسط في الوقت الذي كانت تظهر عليه علامات النجابة والفهم والذكـــاء، وبدأ يدرك ما حوله ، ويفكر في كل ما يرى ويشاهد الأمر الذي جعل الوالـــد والوالدة يبنيان آمالا عريضة وتوقعات مستقبلية لابنهما، وبينما همـــا في هـــذه الأحلام الوردية فإذا بالمنية تعاجله وهو بين أيديهما، ولم يستطيعا أن يفعلا شـــيئا وتبددت أحلامهما. فمات الولد ودفن في مقبرة قريبة، وأصبح مـــزاره بعيـــدا، فعندما يذهب والده لزيارته في المقبرة القريبة يقف على القبر، ولا يفصله عـــن جثة ابنه سوى أمتار، ولكنه هيهات فهو بعيد، وكذلك عندما يخلو الأب لنفســه لحظات فإنه يتذكر ابنه الذي دفن قريبا منه. ولكنه بعيد تحت أطباق الثرى.

وينتقل ابن الورمي إلى الفكرة الأخيرة، يصور لنا فيها تأثير الفجيعة الـــتى حلت به بفقدان ابنه فيتحدث لنا ذكرياته مع ابنه حين كان يستمتع بضمه إليه، ويتلمس كل عضو من أعضائه، فهذه الذكريات توقظها تلك الأماكن التي كان يتردد عليها ويلعب فيها ولازالت ماثلة أمام عينيه، وعلى الرغم مـــن الصـــبر ومحاولة إخفاء الأحزان التي يعانيها إلا أن زائريه يلومونه على الحزن والآســـى الذي يصدر منه بين الحين والآخر، ولكن الحقيقة أن أحزان ابن الرومي الـــتي يخفيها أكثر من التي يظهرها، فمحاولة الصبر والتجلد تظهر في شكل صيحـــة حزينة من قلبه فيصرخ باسم ابنه "محمد" وهو يحاول السلو والنسيان، ولكن قلبه يزداد حزنا، ومما يثير أحزانه هو ما يقوم به ولداه الآخـــران اللـــذان يلعبـــان وينقصهما أخوهما الثالث الذي نسياه، ولا زال الوالد يتذكر الأماكن التى كـــان يتشاجر ويتجاذب فيها الثلاثة وهي الآن محل للاثنين فقط، هذا الأمر يثـــير الأب ويحرق فؤاده. وتزداد أحزان الشاعر عندما يتذكر ابنه فيخاطبه ويقول له: يـــا محمد! أنت في ظلمة القبر، وظللت وحيدا في وحشة، فإنني مثلك أعيش وحيـــدا

Dhaka University Institutional Repository

بائسا في عالم الإنس لفقدك. وأخيرا يبعث الشاعر بتحيته وسلامه لابنه صافيا كما يأتى المطر من صادق البرق والرعد.

هذا، وظهرت هناك ضروب جديدة من الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر، ومن ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق، مثل قول بعض الشعراء في رثاء مدينة بغداد حين قام الجيش- الذي أحاط بغداد-بشن الهجوم عليها، ورماها بالمجانيق، فاندلعت فيها النيران واحترقت فيها بعض الأحياء وعم فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء، فيقول بعضهم:

ألا ابك لإحراق وهدم منازل وقتل وإنهاب اللهى والذخائر

وإبراز ربات الخدور حواسرا خرجن بلا خمر و لا بمآزر

وكأن لم تكن بغداد أحسن منظرا وملهى رأته عين لا وناظر[1]

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثى البستان والطير والحيوان، من مثل قول القاسم بن يوسف ابن القاسم بن صبيح العجلى وزير الخليفة العباسي أبى جعفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد (المتوفي ٢٢٠هـ) في رثاء شاة:

عين ابكي لعترنا السوداء كا لعروس الأدماء يوم الجلاء ٢

_وإذا تجاوزنا الرثاء إلى الغزل رأينا أن هذا النوع من الشعر قد كثر كثرة مفرطة في العصر العباسى، حتى يمكن للمرءأن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالغزل، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة المتفوقة وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة. وقد مضوا يتسعون

١-دكتور شوقي ضيف " تاريخ الأدب العربي "- العصر العباسي " ص ١٧٥

٢- المصدر السابق ص١٧٠

Dhaka University Institutional Repository

بكل صوره القدمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة فقد استبقوا هذه الصور الموروثة وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف.

وقد مضى الغزل يجرى في نفس التيارين: "الصريح والعفيف" اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية. وكان تيار الغزل العفيف قد أخذ مجراه يضيق ضيقا شديدا في هذا العصر العباسي، أما تيار الغزل الصريح الرقيق فقد كان أكثر حدة وعنفا بسبب كثرة الغناء والجواري والشراب وما إلى ذلك من مظاهر التحضر والترف وما انتشر معها من فساد الأخلاق في المجتمع العربي آنذاك.[1]

فقد كان الشعراء يتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالمرأة متحررين من كل خلق وعرف ودين، ومثل القطعة الشهيرة للشاعر أبى معاذ بشاربن برد (٩٦- هـ/ ١٦٨ هـ) ويقول فيها:

يا منظرا حسنا رأيته ... في وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ... ثوب الثياب وقد طويته
والله رب محمد ... ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك و ربما ... عرض البلاء وما ابتغيه
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى على وما بكيته
يشوقنى بيت الحبيب ... إذا ذكرت و أين بيته
قام الخليفة دونه ... فصبرت عنه و ما قلَيْتُهُ[2]

١- المصدر نفسه ص ٣٧٠

٢-أبو الفرج الأصبهانى "الأغانى" طبع دار الكتب المصرية ج ٣، ص ٢٣٩ وما بعدها.

Dhaka University Institutional Repository

هذه القطعة تكشف عن مشاعر بشار الحائرة ولهفته على الاستجابة لداعي المنظر الحسن الذي رآه في وجه فتاة جميلة، لولا سطوة الخليفة محمد بن عبد الله المهدي بن المنصور بن محمد بن على العباسي (١٣٧-١٦٩هـ)، وخوف عقابه، و فهو ينجذب إلى ذلك المنظر الحسن في وجه فاتنته، ويود لو يفديه بروحه ويحز في نفسه، وأن هذه الفاتنة قد بعثت تستثير عنده دواعي ذلك الشباب الذي قد ولى، فلا يملك إلا أن يصبر عنها إطاعة للخليفة ووفاء بوعده له.

ثم يعود الشاعر إلى حنينه مرة أخرى إلى تلك الفاتنة المخضوبة الكف الناعمة الأصابع التي تبكى على الشاعر، والشاعر لايرى من الحكمة أن يجزي ذلك البكاء، ويزيد شوقه إلى بيت محبوبته ولكن أين منه ذلك البيت؟ لقد حرم عليه الخليفة القرب منه، ونهاه عن الحديث إلى النساء وقول التشبيب، فلا حيلة له إلا أن يطيع للخليفة ويفي بالعهد.

-ونجد لونا جليا واضحا من ألوان الغزل الصريح الرقيق عند بشار في موضع آخر، حيث نراه يقول:

يا ليلتى تزداد نكرا ... من حب من أحببت بكرا
حوراء ،إن نظرت إليـ ... ـك سقتك بالعينين خمرا
تُنْسى التقى معاده ... وتكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حديثها ... قطع الرياض كسين زهرا
كأن تحت لسانها ... هاروتَ ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ... ثيابها ذهبا وعطرا
وكأنها برد الشرا ... ب صفا ووافق منك فطرا
جنية إنسية ... أو بين ذاك أجل أمرا[١]

١- المصدر نفسه ص ١٥٥

Dhaka University Institutional Repository

هذه القطعة تمثل لونا من ألوان الغزل العباسى الرقيق الذي بعثت عليه الحضارة الجديدة وكثرة الجواري وظهورهن في المجتمع، وقد كان لبشار جولات في هذا الميدان برغم حرمانه من نعمة البصر. ففي مستهل هذه القطعة الشعرية يلمح الشاعر إلى جهله بما أصاب حبيبته من مرض، ثم وصول هذا الخبر إليه على يد رسول زائر مما أضاف على نفسه آلاما إلى آلامه، وجعله نهبا مقسما بين عناء الحب والقلق على محبوبته من المرض.

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف جمال حبيبته، فهو لا يصف عيني الحبيبة فحسب، ولكنه يجعل نظراتها تفيض خمرا فتسكر مَنْ تقع عليه. ويتحدث بعد ذلك عن صفاء جسم الحبيبة وسحر حديثها وطيب أريحها، فيقول إنها فتاة بارعة الجمال، وأن روعة جمالها تأخذ بقلب التقى والحكيم، وحديثها الذي تردده أشبه بقطع الرياض المكسوة بالزهر، وهى فتاة صافية لون الجسم، يفوح العطر من أردانها، ويستمتع جليسها بقربها، كما يستمتع الظمآن أو الصائم بالمصفى البارد من الشراب، ولهذه الفتاة جمال أخاذ يملك على المرء مشاعره فلايدرى أهى إنسية أم جنية أم من صنف من الخلق جمع محاسن الطائفتين.

_وكان بجانب هذا الغزل الصريح المكشوف الرقيق يوجد هناك تيار الغزل العفيف، حيث نجد فيه الحب النقي الطاهر يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه، حتى ليصبح ضربا من الهيام القوى الحاد الذي يدفع الشاعر إلى التغني بمحبوبته في شعر عذب لا يخدش حياء، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذي لا ينتهى. وطبيعى أن يضعف هذا التيار في العصر العباسى الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء بالعفة والطهر، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف (المتوفي ١٩٢ أو١٩٣ هـ) وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بِعْنَ وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق، فعاشوا

Dhaka University Institutional Repository

يتعذبون بالحب ، وعاش الحب في قلوبهم قويا حادا [1] ومن خير من يمثل هذا اللون الآخر من الغزل العباسي هو الشاعر أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود اليمامي (المتوفى ١٩٢ هـ) الذي تخصص في الغزل ووقف عليه نشاطه الفنى ، فيقول فى إحدى قصائده الشهيرة في هذا الصدد:

أزين نساء العالمين أجيبي دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابى ما أقيم حروفه لشدة إعوالى و طول نحيبي
أخط و أمحو ما أخط بعبرة تسح على القرطاس سح ذنوب
أري البين يشكوه المجبون كلهم فيا رب قرب دار كل حبيب
أقول ودارى بالعراق ودارها حجازية في حرة و سهوب
سقى مترلا بين العقيق و واقم إلى كل أطم بالحجاز ولوب
أزوار بيت الله مروا بيثرب لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم : يا أهل يثرب أسعدوا على جلب الحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق أمخا هوى تنشب رهنا في حبال شعوب
به سقم أعيا المداوين علمه سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
فقولوا لهم : جئناه من ماء زمزم لتشفيه من دائه بذنوب
فرشوا على قبرى من الماء و أندبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب[2]

تعرض هذه القصيدة لونا آخر من الغزل العباسى يغاير الغزل الصريح المكشوف الذي يمثله بشار بن برد وأمثاله من الشعراء العباسيين . وكان العباس بن الأحنف قد أبدع في قصيدته تصوير أحوال المحبين من هيام وشكوى وتودد للمحبوبة واستجلاب لرضاها . فهو لا يشتغل كثيرا بذكر المفاتن الجسمية وعرض صورها الحسية ، ولكن يتحدث عن الحنين والشوق والغربة والدموع

---

[1] - د. شوقي ضيف " تاريخ الأدب العربي" – العصر العباسي – ص ٣٧١.

[2] - الباعي بيومي وزملاؤه " الأدب والنصوص " ص ٨٠ وما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

التي تسح على القرطاس وهو يكتب فيمحو ما يخطه، وهو يعرض لنا حال المحب وقد فني في محبوبته فأصبحت هي كل نصيبه من الدنيا، وأصبح يتمنى لو كانت نصيبه كذلك في الآخرة.

ويعرض لنا الشاعر وقد رقت عاطفته نحو المحبين جميعا فأصبح يدعو لكل حبيب أن تقرب داره ممن يحب. إنه يناجيها من العراق وهى في الحجاز، ويدعو لمنازلها بالسقيا، وينادي الحجيج أن يعرجوا على دارها في المدينة ليأتوا له من هناك بجرعة من ماء تبل ظمأه وترى حرقته، وتداوى سقمه الذي أعيا الأطباء، ويرش هؤلاء الحجيج على وجه تعلل، ويجيبون به إذا هم سئلوا عن سر جلب الماء من المدينة. ففي الحجاز زمزم، ومن دأب الحجيج أن يحرصوا على الشرب منها، والتزود بجرعات من مائها، ويعودون بها لأهليهم وذويهم. والشاعر في شدة وجده وازدياد سقمه غير واثق من امتداد حياته إلى أن يعود الحجيج، ولكنه حريص على أن يصل إليه هذا الماء حيا أو ميتا.

_ومن ناحية أخرى ظل نفر من الشعراء ينظمون أشعارا تمثل نزعتهم السياسية، و إن كان قد ضعف هذا الشعر بسبب ضعف الأحزاب السياسية في العصر العباسى. فقد سقط حزب الزبيريين نهائيا منذ سنة ٧٢ هـ. كما تم القضاء على حزب الخوارج، أما حزب الشيعة فقد ظل حيا في كثير من النفوس، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين[١] .ومضى أتباعهم ينظمون أشعارا تحث المواطنين على النضال ضد العباسيين وتطالب بأن يتخلى العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى أبناء على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمي

١- دكتور شوقي ضيف "تاريخ الأدب العربى" -العصر العباسي- ص ٢٩١ -

Dhaka University Institutional Repository

القرشى–رضي الله عنهم– لأنهم أولياء الخلافة وأصحابها الشرعيون. فقد تبعهم في تقرير نظريتهم كثير من الشعراء. غير أنهم كانوا يخافون من بطش العباسيين، وكانوا ينظمون ما ينظمونه سرا وقلما أعلنوه، وخير من يمثل شعـــراء الشيعـــة سديف بن اسماعيل بن ميمون مولى بني هاشم) المتوفى ١٤٦هـــ/٧٦٣م) واسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفزع الحميرى (١٠٥– ١٧٥ هـــ (وكان سديف قد نظم كثيرا من الأشعار في أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن بعض تلك الأشعـــار قوله:

إنا لنأمل أن نرتد ألفتنـــــا بعد التباعد والشحناء والإحنِ

وتنقضى دولة أحكام قادتنـــا فينا كأحكام قوم عابدى وثن

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى الحسن[1]

وكان الشاعر قد نظم هذه القطعة الشعرية ليحرض فيها المواطنين علـــى الثورة ضد العباسيين ويؤكد تضامنه مع أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه الملقب بالنفس الزكية ويحثه على مواصلـــة النضال من أجل التخلص من حكم العباسيين.

ـومن أروع ما نظم في هذا الباب قصيدة اسماعيل بن محمد الحميرى التى يقول فيها:

١–أبو على حسن بن رشيق القيروانى "العمدة في صناعة الشعر ونقده" نشر محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، طبع ٦، القاهرة ١٩٥٥ م جـــ ١، ص ٤٥

Dhaka University Institutional Repository

ألا إن الأئمـــــة من قريش ولاة الحق أربعـــة سواء

على والثلاثة من بنيـــــه هم أسباطه والأوصيـــاء

فسبط سبط إيمان و حلـــم وسبط غيَّبتْه كربـــلاء

وسبط لا يذوق الموتَ حتى يقود الخيل يقدمها اللواء[1].

يؤكد لنا الشاعر الحميري في الأبيات المذكورة على أن الخلافة يجـــب أن تكون في أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأن أربعة أئمة منهم أحقـــاء بالخلافة وهم أبو الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشـــي رضي الله تعالى عنه (٢٣هـ/ ٤٠ هـ) وثلاثة من أبنائه وهم:أبو محمد الحسـن رضى الله عنه (٣- ٥٠ هـ) وحسين رضى الله تعالى عنـــه (المولـود ٤هـ والمقتول بكربلاء ٦١هـ) وأبو القاسم محمد بن الحنفية رضى الله تعـالى عنـه (٢١-٨١ هـ).

ومن جهته التف حول العباسيين عدد كبير من الشعراء، ومضوا يقفـــون مدافعين عن نظريتهم في الخلافة، مناضلين عنـــهم خصومـــهم مـــن الشيعـــة وأشباههم، ومن أوائل من استظهروا في أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين الشاعر الحسين بن مطير بن مكمل الأسدى (المتوفى ١٦٩هـ)، وكـــان يجعـــل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها، كما كان يغلو في مدح العباسيين غُلوًا شديدا حتى ليرفعهم على البشر درجات، من مثل قوله في الخليفة أبى عبد الله محمد بن عبد الله المنصور بن محمد المـــهدى (١٢٨-١٦٩هـــ) فيقول:

لو يُعبدُ الناس يا مهدي أفضلهم ما كان في الناس إلا أنت معبـــود

١- دكتور شوقي ضيف "تاريخ الأدب العربي"-العصر العباسي ص-٣١١

Dhaka University Institutional Repository

أضحت يمينك من جود مصورة لا بل يمينك منها صور الجـــود
لو أن من نوره مثقال خردلـــة في السود طرا إذن لا بيضت السود[1]

كما نجد شاعرا آخر وهو محمد عبد الله بن مسلم مولى بني عمـــرو بـــن عوف الأنصاري المتوفى (١٧٠هـــ/٧٨٦هـــ) وهو يجعـــل العباســـيين أوليـــاء الخلافة وأصحابها الشرعيون وحصوها الحقيقيون وهـــم الذيـــن اســـتخلصوا للخلافة. ومن هذا القبيل قوله في الخليفة أبي جعفر هارون الرشيد فيقول:

وأن أمير المؤمنين و رهطـــه لأهل المعالى من لؤبي بن غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو الن بي بأمر الحق غير التكـــاذب[2]

_ومن الوظائف الشعرية الفنية التي كان يؤديـــها الشعـــراء العباســـيون "الوصف". فقد كان الشاعر قديما يستهل قصيدته بمقدمة يصف فيها الأطـــلال وعهود الهوى بها، وما يلبث أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتا ما يركبه من بعير أو فرس، وما يراه فيها من حيوان وحشي، وقد يعرض لوصـــف مشـــهد الصيد، وكل ذلك استبقاه الشاعر العباسي، ولكنه مع إضافات كثـــيرة حـــتى يلائم بيئته وعصره. وقد تحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة مـــن وصـــف الأطلال إلى وصف القصور، ومن وصف الصحراء ومســـالكها وحيوانهـــا إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهجة في الربيع. ومن أروع ما يصـــور ذلك قصيدة أبي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (١٨٨-٢٣١هـــ) في وصف الربيع، فيقول:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمـــر وغدا الثرى في حليـــه يتكسر
نزلت مقدمة المصيف حميـــدة يد الشتاء جديدة لا تكفـــــر

١- أبو الفرج " الأغاني " طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ، جـ ١٦ ص ٢٣١
٢- المصدر السابق: جـ ٣ ، ص ٢٩٣

Dhaka University Institutional Repository

مطر يذوب الصحو منه وبعـــده صحو يكاد من الغضارة يمطـــر
ما كانت الأيام تسلب بهجـــة لو أن حسن الرياض كان يعمر
دنيا معاش للورى حـــــتى إذا حل الربيع فإنما هي منظـــــــر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلـــــوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالنـــدى فكأنما عين إليك تحـــــــدر
تبدو ، ويحجبها الجحيم كأنهـــا عذراء تبدو تارة وتخفـــــــر
حتى غدت وهداتها و نجادهـــا فئتين في خلع الربيـــع تبختر
صبغ الذي لولا بدائع لطفـــــه ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر[1]

يتحدث الشاعر عن فصل الربيع، فيصف جماله وحسن منظره وعلو مكانته في فصول السنة وقد جعل الشاعر الربيع فاتحة قصيدته، كما جعله يمثل الدهر في تلك الحواشى الزاهية المشرقة التى يتمايل فيهام الثرى وكأنه عروس تتثنى في حليها و تتكسر في زينتها. ويستمر فيتصور الربيع مجمعا للشتاء والسيف. فهو أول المصيف حين لم تكن الدنيا قد خلصت بعد من آثار الشتاء، وهى لذلـــــك متأرجحة بين مطر يذوب وصحو يكاد يقطر، لما حجب وجه الأرض من خضر يانعة .

وأن هذا الظل الظليل وما امتلأت به الربا من الأزهار ليخفف من ضيـــاء النهار حتى كأنما الدنيا برغم شروق الشمس مضاءة بالقمر . إن الدنيا في غـــير الربيع قد خلقت ليسعى الناس في مناكبها ويأكلوا من رزقها ، أما الربيع فقـــد خلق ليتمتع الناس بالنظر إليه . ولم لا ؟ وهاهو النور الناضر قد كســـا ظـــهر الأرض جمالا تتفتح له القلوب مبهجة بهذه الزهرات تنحـــدر عليـــها قطـــرات الندى، يداعبها النسيم ، فتبدو ثم تختفي بين صويحباتها كعذراء خفرة تظهر ثم لا تلبث أن تحتجب . لقد ملأ الزهر الوهاد النجـــاد فـــأخذت الأرض زخرفـــها

١- ديوان أبي تمام / طبع دار المعارف، القاهرة ١٢٩٢ هـ جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

و أزينت وارتدت من جميل الحلل الأصفر الفاقع والأحمر القاني والأبيض الدري . فإذا تقصى المرء النظر بدا له وجه الأرض كأنه ارتدي حللا أجيد صبغـــها ، وأنه بعدئذ لا يملك نفسه من الإعجاب بقدرة اللطيف الخبير القادر على كـــل شيء .

كما نجد لوحات رائعة مماثلة أخرى يرسمها الشعراء، العباسيون الآخـــرون مثل عبد الله بن الخليفة المعتز بالله (٢٤٧- ٢٩٦هـــ). فنراه يصـــف ســـحابة يقول فيها:

وسارية لا تمل البكـــــاء جرى دمعها في خدود الثـــرى
سرتْ تقدح الصبح في ليلهـا ببرق كهنديـــــة تنتضـــي
فلما دانت جلجلت في السما ء رعدا كجـــرس الرحـــا
ضمان عليها ارتداع اليفـاع بأنوارها واعتجـار الربـــا
فما زال مدمعـــها باكيـــا على التراب حتى اكتسى ما اكتسى
فأضحت سواء وجوه البـــلاد وجن النبات بهـــا و التقى[1]

فالشاعر في الأبيات التي بين أيدينا يصف سحابة وهي تمشي ليلا لا تمـــل الأمطار، فدمعها منهمر يجرى على خد الأرض، مشت يضئ برقها اللامع-كأنه الصبح أو السيف المسلول-جنح الليل، فلما دنت من الأرض كـــان رعدهـــا شديدا يشبه صوت الرحا، وقد تعهدت هذه السحابة أن تسكب مائها، فترتوي به الأرض وتخرج أزهارا تملأ الربا، وتكسو المرتفعات وقد ظل غيثها منســـكبا على التراب حتى اكتسى الثرى بأنواع النبات، فأصبح وجه الأرض أخضر يانعا وغزر الزرع واشتد ساقه.

_وبجانب هذه الوظائف الفنية نجد في هذا الطور من العصر العباسي اتجاها دينيا يمثل طابعه "الزهد" في الدنيا و الكشف عن باطلـــها وغرورهـــا، وتنفـــير

١-السباعي بيومي وزملاؤه " الأدب النصوص " ص ١٤٢

Dhaka University Institutional Repository

الناس من الاستنامة إليها والإقبال على لذاتها، والحرص على رغائبها من جـــاه ومال ومن روائع ما يصور معاني الزهد الأبيات التالية التي نظمها مالك بن دينار المحدث الناسك، يقول:

أتيت القبـــور فناديتهـــ نَّ أن المعظم و المحتقـــــر
وأين المدل بسلطانـــــه وأين المزكي إذا ما افتخر
تفانوا جميعا فمـــــا مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما تـــرى معتبر[1]

فمالك بن دينار يتحدث في مجالسه عن الموت والفنـــاء وعـــن القبـــور وأهلها، ويذكر المرء بأن لكل إنسان أجل محدود، وبعد انقضاء هـــذا الأجـــل يصبح ترابا في تراب كمن سبقوه، فأولى له أن يتعظ ويعتبر.

ومن أروع ما نظم في هذا الباب الأبيات الشهيرة لأم الخير رابعـــة بنـــت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عقيل (المتوفاة ١٣٥هـــ) إذ تقول:

أحبك حبين : حب الهوى وحبـــــا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكـــا
وأما الذي أنت أهل لـــــه فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد في ذا و ذاكا[2]

تدعو الرابعة العدوية إلى حب الذات الإلهية والتفرغ للنســـك والتبتـــل والعبادة، وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانية، ونراها تمـــيز بين حبين:حب الذات الإلهية شكرا لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه وحبه

١- دكتور شوقي ضيف "تاريخ الأدب العربي" -العصر العباسي- ص ٤٠٠

٢-المصدر السابق:ص ٤٠٢

Dhaka University Institutional Repository

لجماله وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والأستار بينها وبين الذات الإلهية ، وهو الحب الخالص الذي يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة.

وقد حدث تطور واسع في هذا اللون من شعر الزهد فيما بعد بظهور عدد كبير من المتصوفين مثل أبي حفص شرف الدين سلطان العاشقين عمر بن على الحموي المصري المعروف بابن الفارض (٥٧٧- ٦٣٣هـ) وأبي بكر بن محمد بن على بن محمد بن عربي بدون ألف ولام تفريقا بينه وبين أبي بكر العربي[1] (٥٦٠-٦٣٨هـ) وغيرهما في أواخر العصر العباسي ، فأصبح هذا الشعر الديني يعرف منذ ذلك الحين بالشعر الصوفي.

وكان للصوفيين أشعار رائعة يعربون فيها عن الفلسفة الصوفية ومثاليتها الرفيعة من الإخلاص في الإيمان والتقوى والتخلي عن العيوب والتحلى بالصفات الحسنة و التفرغ للنسك والعبادة والذكر وطاعة الله تبارك وتعالى في السر والعلانية ، ومجاهدة النفس ،وذكر الله تعالى الدائم والخلوة وتفرغ القلوب من هموم الحياة ومشاغل الدنيا ، والتفكير في نعم الله جلت قدرته ، التوبة عن الذنوب ، ومحاسبة النفس والخوف من الله تعالى ورجاء حضرته والصدق معه والإخلاص له ، والورع والزهد والرضا بما قسم له ، والتوكل على الله تعالى والشكر له.[2] ومن أروع القصائد التى تمثل الفلسفة الصوفية في الشعر العربي ميمية ابن فارض والتي يقول فيها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها هلال ، وكم يبدو إذا طلعت نجم

---

[1]- د. بكرى شيخ أمين " مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني " طبع منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ،١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ص ٢٤٤.

[2]- المصدر السابق : ص ٣٣٥

Dhaka University Institutional Repository

لولا شذاها ما اهتديـــت لحانهـــــا ولولا سناها ما تصورها الوهـــــم

يقولون لى : ضفها فأنـــت بوصفها خبير ، أجل عندي بأوصافها علـــم

صفا ولاماه ، لطف ولا هـــــوا نور لا نار وروح ولا جســـــــم

تقدم كل الكائنات حديثـــــــها قديما ولا شكل هناك ولا رســـــم

قالوا شربت الإثم ، كلا وإنمـــــــا شربت التى فى تركها عنـــدي الإثم

فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحبا ومن لم يمت شكرا بها فاته الحـــزم

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهـــــم[1]

ولا شك أن هذه القصيدة الخمرية تعد بحق نموذجا لاكتمال الرموز الخمريـــة في الشعر الصوفي بشكل عام . فقد أفادت الدراسات الأبحاث الأدبية أن خمرية إبن الفارض مبنية على الاصطلاح الصوفي ، فإنه يذكر في عباراته الخمرية بأسمائـــها وأوصافها ويريد بها معانيا أخرى من حب الذات الإلهية والهيام بها والتشوق إلى لقائها..

والخمر في شعر ابن الفارض رمز على المحبة الإلهية بوصفها أزلية قديمة مترهـــة عن العلل ، مجردة عن حدود الزمان والمكان ، وهذه المحبة في الأسرار العرفانيـــة هي التي بواسطتها أظهرت الأشياء وتجلت الحقائق وأشرقت الأكوان ، وهـــــي الخمر الأزلية التي شربتها الأرواح المتجردة فانتشت وأخذها السكر واستخفها الطرب قبل أن يخلق العالم . ولم يكتـــف ابن الفارض بذكر الخمـــــر فـــــي

---

[1]- د. عاطف جودة نصر " الرمز الشعري عند الصوفية " طبع دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط/ ثالثة ١٩٨٣ ص ٣٦٦.

Dhaka University Institutional Repository

إظهار حبه للذات الإلهية فحسب، بل جاء كذلك بألفاظ أخرى مرتبطة بهـــذه الخمر المدامة كالبدر والهلال والشمس والنجم والشذى والحـــان، والدنـــان، فالبدر من حيث أنه كأس هذه المدامة إنما هو رمز الإنسان الكامل بوصفه أفقـــا لتجلى المحبة ومظهرا للمقام الأعلى.

ولهذه المدامة تحولات رمزية ، فهى تبدو شمسا مشرقة على كـــل تقديـــر وتصوير، وليس الهلال والنجم إلا تحولين من التحولات الرمزية للبـــدر، فـــهو هلال إذا ما احتجبت بطهور نفسه عن إظهار بقية النور، وهو نفسه نجم إذا ما نظر إلى غيره فاهتدى به. وقد تحدث ابن الفارض عن عرف المدامـــة الشـــذى الذي ينغم الهيام، ووصف ما ينبعث منها من سنا رائق وضوء شفاف مســـتعيرا ذلك كله من أساليب الخمريين. بيد أنه أشرب هذه النعوت ما حفل به الرمـــز الصوفي من أذواق وأسرار، فهذه المدامة رمز على عالم الروح الأعظم، وســـناها تلويح إلى نورانية العقل الإنساني الذي لولاه لما أثبت الوهم لهذه المدامة الرمزية صورة ذهنية، لأنها لا صورة لها في نفسها، ولا غرو أن كانت هذه نعوت الخمرة الإلهية أن ينتشي العرفاء والمحبون لمجرد ذكرها فتذهب عنهم ظلمـــة الغفـــلات وتشرق على قلوبهم أنوار التجليات، ويحصل لهم السكر، فيغيبوا عـــن أوهـــام الأغيار تحققا لمعاني الأسرار. ١

كما نجد عند محي الدين ابن عربي قصيدة غزلية صوفية مرموزة تدور حول بنت عذراء تسمى "النظام" بوصفها رمزا على الحكمة الإلهية، وهـــى قصيـــدة تجيش بالصور الموحية التي وصف من خلالها جمال الجوهر الأنثوي ورمزيته على التجليات الإلهية، بحيث امتزجت بالأنثى الطبيعية وما تحفل به من رياض خضراء وحمائم جميلة وغزلان راتعة و طلول دارسة. يقول ابن عربي في قصيدته:

١-المصدر السابق ص ٣٦٨

Dhaka University Institutional Repository

مرضى من مريضة الأجفـــان عللانى بذكرهـــــا عللانى
هفت الورق بالرياض وناحت شجو هذا الحمام مما شجانى
بأبي طفلة لعوب تمـــــــدي من بنات الخدور بين الغوانى
طالعت في العيان شمسا فلمـــا أفلت أشرقت بأفق جنـــانى

لا شك أن هذه من أنجح القصائد التي تمثل نزعة صوفية رائعة في الشـــعر العربي، ويبدو أن ظاهر هذه القصيدة غزل محض بفتاة آدمية، تغـــن بالجمـــال، وترنم بالوصال، ولكن حقيقتها شيء آخر، وذلك أن أبن عربي لم يكن رجـــل غزل إنساني، ولا صاحب كأس وخمر، وإنما كان صوفيا وفى أرقى درجات العفة والطهر والتقوى. ومن هنا أن شعره يحمل في الظاهر معـــاني الغـــزل الصبابـــة والأشواق والخمر، ولكنه يريد بها معانيا أخرى وهى حب الذات الإلهية والهيـــام بها والتشوق إلى لقائها، والسكر بذكرها... إذ نجد ابن عربي لايتركنا ننساب في توهمنا بل يوضح لنا ما يريده في قصيدته، فيشرح مقاصده بنفسه فيقول:

مرضى من مريضة الأجفان عللانى بذكرها عللانى

المرض:الميل، يقول: لما مالت عيون الخضرة المطلوبة للعارفين من جـــانب الحق سبحانه وتعالى بالرحمة والتلطف إلينا، أمالت قلبي بالتعشق إليها، فإنها لمـــا تنزهت جلالا، وعلت قدرا، وسمت جبروتا وكبرا، لم يكن أن تعرف فتحـــــب، فتنزلت بالألطاف الخفية إلى قلوب العارفين...

Dhaka University Institutional Repository

ونستطيع أن نصل إلى نتيجة بعد هذا فنقول: إن البداية التى انطلق منـــها ابـــن عربى كانت بداية إنسانية، ثم ما لبثت هذه العاطفة الإنسانية التي كانت موضوع الحب فيها الفتاة أن استحالت إلى حالة صوفية إلهية، وكان موضوع الحب فيها هو الذات العلية، وكانت الأوصاف التي يستفيض المحب في ذكرها وفي التغـــني بها هي صفات للـــذات الإلهية من جمال وجلال وكمال.١

وحقا، أن ابن عربي جمع كنوزا من الرموز في شعره واستطاع بنجاح أن يجعل الألفاظ والعبارات الغزلية أو الخمرية أدوات تعبير عن عاطفـــة إنســـانية تسامت بصاحبها، أو تسامى بها صاحبها إلى جعلها عاطفة إلهية، المحبوبة فيها هى الذات العلية. وهكذا يحمل شعر ابن عربي-كغيره من الصوفيين-معنيـــين في آن واحد، معنى ظاهريا وهو الغزل، ومعنى باطنيا وهو حب الله تعالى والهيـــام بـــه، والتشوق إلى لقائه.

هذا، وأصيب الأدب العربي بالجمود والركود إثر انهيار الدولة العباســـية بأيدي العثمانيين سنة ٦٥٦هـــ. إذ حولوا الدولة العربيـــــة إلى ولايـــة تابعـــة للإمبراطورية العثمانية، يا ليت وقفوا عند ذلك، فقد سلبوا خير ما فيـــها مـــن ثروات علمية وفنية، وأخذوا معها كثيرا مـــن العلمـــاء والأدبـــاء والشعـــراء والمهندسين وأصحاب الصناعات الفنية، فانطفأت مصـــابيح الحركـــة العلميـــة والأدبية العربية التي كانت مشتعلة في العصور السابقة.

١- د. بكرى شيخ أمين " مطالعات في الشعر المملوكى والعثمان"ى ص ٢٤٧- ٢٤٨

Dhaka University Institutional Repository

ولا نستطيع أن نقول أن الشعر العربي انعدم عقب انهيار الدولة العباسية، فقد كان موجودا ولكن وجود خير من العدم، إذ اقتصر على نفر يقرئون في بعض القصائد الموروثة خاصة التي كانت قريبة من عصورهم، ثم يعارضونها أو يخمسونها أو يربعونها، فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال، وإنما هي تقليد ركيك ضعيف [1] .وبذلك ابتعد الشعراء إثر سقوط بغداد عن وظائفهم الفنية التي يجب أن يقوموا بها وفقا لمتطلبات حياتهم ومجتمعهم، وأصبحوا بأنفسهم أصحاب الحرف يتلهون بالشعر لقتل الوقت.[2] إذ لم تكن أشعارهم ترتبط بواقعهم، ولم تكن تعبر عن مجتمعهم أوقضايا هذا المجتمع وشعبه و آماله وطموحاته...

*****

١-د. شوقى ضيف " الفن ومذاهبه في الشعر العربى" دار المعارف بالقاهرة ص ٥٠٩.

٢-سامى الخوري وجاك الديك " الدليل الأدبى "طبع دار النهار للنشر ، بيروت ، ط أولى ، ص ١٢٥.

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الخامس

وظيفة الشعر في العصر الحديث والمعاصر

توشك الحركة الأدبية أن تجمع على أن الحملة الفرنسية على مصـــر سنة ١٧٩٨ م كانت بداية الحداثة في الأدب العربي ، [١] فقد مهدت هـــذه الحملة الاتصال الحضاري بين العالمين العربي والغربي ، والتي صاحبها كثـــير من مظاهر تحديث الحياة المادية والأدبية ليس في مصر وحدها بل في العـــالم العربي بأكمله .

ورغم كل هذا ، ظلت الحياة الأدبية راسفة في قيود التقليد في أكثر من مظاهرها لفترة طويلة ، لأن الجوانب الفكرية والفنية قد تحتاج إلى فترة أكثر حتى يمكن استيعابها والاطلاع على رؤيتها الجديدة ، وهذا أمر يؤسف له بأن الحياة الأدبية العربية قد أصيب بها الجمود الشكلي والخواء المضموني منـــذ انهيار الدولة العباسية ، وبلغت المأساة ذروتها في أوائل القرن التاسع عشـــر الميلادي .

وكانت الحياة الأدبية العربية في هذه المرحلة تتطلع إلى من يجـــدد لهـــا شبابها الذابل ، ويعيدها إلى عصور اخضرارها الأولى ، وقد برز فعلا جيـــل من العمالقة الذين قدموا خدمات جليلة في المجالات الأدبية ، فحملوا لـــواء حركة التجديد وساهموا في إثراء الحياة الأدبية بعديـــد مـــن الإبداعـــات الجديـــدة ، وفي طليعة هؤلاء العمالقة : محمود سامي بن حسن بن عبد الله البارودي (١٢٥٥-١٣٢٢هـــ/ ١٨٣٩-١٩٠٤م) ، أمير الشعراء أحمد شوقي بن على بن أحمد شوقي (١٢٨٧-١٣٥١هـــ/١٨٧١-١٩٣٢م)

---

[١] – د. محمد أحمد العزب" عن اللغة والأدب والنقد" ص – ٨٩.

Dhaka University Institutional Repository

ومحمد حافظ إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحـــافظ إبراهيـــم (١٢٨٧-١٣٥١هـــ/ ١٨٧١-١٩٣٢م) وغيرهم . لقد كـــان ظـــهور هـــؤلاء الشعراء بمثابة ثورة طبيعية إلى إحياء الحياة الأدبية وإحداث التغيير في أنماطها الفكرية والفنية ، والسير بها نحو شاطئ العصر الحديث والمعاصر الذي يمتاز عن غيره من العصور السابقة بملامحه وسماته وقضايـــاه ووظائفـــه الفنيـــة الخاصـــة .

وقد استجاب الشعراء لروح العصر الحديث ومتطلبات وطنهم الكبير الذي كان يعاني من ذل الاحتلال الأجنبي البغيض الـــذي ســيطر علـــى مقدرات الوطن العربي ، وخيراته ونهب ثرواته ، ومـــارس أبشـــع أنـــواع الجرائم والاعتداءات ضد أهاليه،وألحق بهم مآسي إنسانية حقيقة لا مثيل لها.

فقد كان الشعراء يمثلون خير تمثيل عصرهم وذاتهم وأهالى بلادهـــم ، وكانوا يعيشون بأشعارهم في عصرهم يستمدون تجـــاربهم الشعريـــة مـــن المشاهد التي يرونها ، والأحداث التي يعيشونها . فأهم الوظائف الفنية التي كان الشعراء يؤدونها بأشعارهم آنذاك هي " التعبير عن ذاتهم وخواطرهـــم الذاتية " لأنها تعكس صورة الإنسان الحديث ، وفرحته أو ألمـــه وحزنـــه ، وخير ما يمثل صورة رائعة لذات الشاعر وخاطره قصيدة رائد حركة الإحياء والبعث في الأدب العربي محمـــــود سامي البارودي بعنوان " طيف سميرة " وسميرة هي ابنته الصغيرة التي رأى خيالها في النوم وهو في منفـــاه بجزيـــرة سرنديب ، فهاج شوقه ، وفاض به الحنين فنظم هذه القصيـــدة ، وابتدأها بالحديث عن هذا الخيال فيقول فيها :

تأوب طيف من سميرة زائـــــر وما الطيف إلا ما تريه الخواطـــر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب بأوراقه والنجم بالأفق حـــائر
فيا لك من طيف ألم و دونـــــه محيط من البحر الجنوبي زاخـــر

Dhaka University Institutional Repository

تخطى إلى الأرض وجد و ما لـــه سوى نزوات الشوق حاد و زاجر
ألم ولم يلبث وسار وليتـــــــه أقام ولو طالت على الدياجـــــر
تحمل أهوال الظلام مخاطـــــرا وعهدي بمن جاءت به لا يخاطـــر
خماسية لم تدر ما الليل والســري ولم تنحسر عن صفحتيها الستائـــر
عقيلة أتراب توالين حولهـــــا كما دار بالبدر النجوم الزواهـــر
غوافل لا يعرفن بؤس معيشـــة ولا هن بالخطب الملم شواعـــر
تعودن خفض العيش في ظل والـد رحيم وبيت شيدته العناصـــــر
تمثلها الذكري لعيني كأنـــــني إليها على بعد من الأرض ناظـر
فيا بعد ما بيني وبين أحبـــــتي يا قرب ما التفت عليه الضمائـر
فلن تكن الأيام فرقن بيننـــــــا فكل امرئ يوما إلى الله صائـر[1]

تعد هذه القصيدة نموذجا لاكتمال الصورة الذاتية الصادقـــة في الشعـــر العربي ، حيث يتحدث فيها الشاعر عن ذاته وعما يـــدور في خـــاطره إزاء أفراد أسرته ، فيقول في هذا الصدد إن خيال ابنته سميرة زاره في نومه ليـــلا وهو في المنفي بجزيرة سرنديب ، مؤكدا على أن هذا الخيال في النوم ما هو إلا أثرا من آثار الصور التي تجول في الأفئدة اليقظة ، وقد وقع هذا الخيـــال في طريقه إلى حجب الظلام الدامس الذي لا يهتدي فيه النجم .

ويعرب الشاعر عن استغرابه البالغ بهذا الطيف الذي استطاع أن يلـــم به مع ما بينه وبين أفراد أسرته من بحر هائج مضطرب الأمـــواج ، يتهيبـــه الأبطال ويقتحمه طيف طفلة صغيرة ،و يصرح البارودي مجددا بأنه ما جاء بهذا الطيف طاويا هذه المسافات البعيدة من الأرض إلا دوافـــع الشـــوق

---

[1] – على محمد حسن العماري " التاريخ الأدبي " طبع ونشر الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ، القاهـــرة ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١ م ص ١٤٩ .

Dhaka University Institutional Repository

تستحثه على السير ، وتهون عليه مشقة الطريق ، ولكن هذا أمر يؤسف له أن خيالها لم يمكث طويلا ، فما هو إلا لحظات فكأنه ما سلم حتى ودع ، رغم أنه يتمنى دوما أن تطيل الزيارة ولو كان في ذلك امتداد أفق الظلام .

كما يعرب الشاعر عن استيائه الشديد لما قاسه طيف ابنته من أهوال الظلام ومخاطر السير فيه ، لأنها لا تزال صغيرة قريبة عهد بالمهد ، لا تقوى على المخاطرة . ثم يتحدث الشاعر عن أسرته وأفرادها ، ويصفها وصفا جميلا ، فيقول في هذا الصدد إن سميرة بنت أصيلة كريمة المنبت ، معززة بين أخواتها اللاتي يشبهنها في حسن الطلعة وإشراق الوجه وإن كانت بينهن كالبدر ، وهن حولها كالنجوم ، وكلهن غافلات عما تأتى به الأيام ، جاهلات بما يترل من ضيق العيش وبما يلم من الأحداث ، وقد تعودن أن يعشن منعمات مرهفات في ظل والد لا يعرف القسوة ، وفي أسرة كريمة تحنو عليهن وتنشئهن في العز والنعيم .

ويبدي الشاعر غاية شوقه وحنينه نحو ابنته سميرة ، لأنه يتخيلها دوما ماثلة أمامه ، ويشعر كأنه يراها رأي العين رغم بعد مسافات بينه وبين أفراد أسرته ، وإذا كانت الأجسام متباعدة شديدة التباعد ، فإن القلوب متقاربة أشد التقارب فهن في ضميره حاضرات وإن كانت أجسامهن في أقصى الأرض ، ويتمنى الشاعر أن يلتقي بهن ، فإذا دام الفراق بينه وبين أفراد أسرته فالمرجع والمصير إلى الله سبحانه وتعالى ، وكل الناس سيصيرون هذا المصير ، ولأنهم سينعمون باللقاء في رحاب الله عز وجل شأنه تعالى ، إذا حرمتهم الأيام نعمة اللقاء .

هذا ، وفى نهاية المطاف يعرب الشاعر عن أمله الكبير بأن يظهر الحق يوما من الأيام ، وتكشف السرائر عما يضمره الحاقدون من سوء ، ويزول ما يعانيه من شدة برحمة الله سبحانه وتعالى ، لأن وحده قادر على أن يكشف عما يشاء ، ويخاطب الناس قائلا : رويدكم أيها الناس فنحن جميعا

Dhaka University Institutional Repository

صائرون إلى غاية واحدة شديدة علينا وعليكم وفي هذه الغايـــــة ســـيرتفع صوت الحق ، ويخفض صوت الباطل ،فإن الباطل لا ثبـــات لـــه ، وليـــس انكشاف الغمة عنا بعيدا ، فعما قريب ينتهي كل شيء ، فإن لأوائل الأمور نهايات ، ولا بد من ذلك ، فيقول :

فسوف بين الحق يوما لناظر وتنزو بعوراء الحقود السرائـــر
وما هي إلا غمرة ثم تنجلى غيابتها والله من شاء ناصـــــر
فمهلا بنى الدنيا علينا فإننـــا إلى غاية تنفث فيها المرائـــــر
هناك يعلو الحق والحق واضح ويسقل كعب الزور والزور عاثر
عما قليل ينتهي الأمر كلـــه فما أول إلا ويتلو ه آخـــــر[1]

– وبجانب التعبير عن الذات كان الشعراء في العصر الحديث والمعاصر يقفون عند الأحداث الكبيرة والجارية في المجتمع ، ويتناولون جميع القضايـــا الاجتماعية الهامة ، وأصداءها في النفوس ، فلا يتوجه الشاعر بشعـــــره إلى ممدوح يشيد به ويرفع شأنه بالمدح ، وإنما يتوجه به إلى الشعب يتغنى معه بما يريد ، ويقود وعيه لتحقيق ما يستطيع ، ويقوم بشعره بتعبئة القوي وتنمية المشاعر الكريمة ويقرع بما يصوره أذن الغافلين من بني قومه ، ومن أشعـــــر هؤلاء الشعراء محمد حافظ إبراهيم الذي برع في تناول القضايا الاجتماعية التي شغلت المجتمع المصري في حياته ، فقد كان قريبا من الشعـــب أحـــس بآماله وآلامه عبر عنها بشعره ، وبذلك أصبح شعره سجلا لكل القضايـــا الكبرى في حياة المجتمع المصري منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشـــر

[1] – المصدر السابق نفسه : ص ١٦١ .

Dhaka University Institutional Repository

إلى الثلث الأول من القرن العشرين ، فقد تحدث عن الطفولة المشـــــردة ، وجمعيات البر ، والمدارس وغيرها .

ومن أروع القصائد الاجتماعية قصيدته المعروفة بـــ" اللغـــة العربيـــة تنعى حظها بين أهلها " وفيها يقول :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائســي رجالا وأكفاء وأدت بنـــاتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به و عظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة تنسيق أسماء لمخترعـــات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
أيهجر قومي – عفا الله عنهم – إلى لغة لم تتصل بـــروا ة
إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفـاتي
وإما ممات لا قيامة بعـــده ممات لعمري لم يقس بممات [1]

ففي هذه الأبيات المذكورة يشخص الشاعر اللغـــة العربيـــة ويتكلـــم بلسانها ، فيذكر ما آل إليه أمرها من عقوق لها وتنكر لعوارفها ، ويعـــرب عن بالغ استيائه لما اتهموها به من العقم العقلي والجمود الفكري بحيـــث لا تصلح للنمو والحياة ولا تصلح للوفاء بالمصطلحات العلميـــة الحديثـــة ،

---

[1] – ديوان حافظ إبراهيم ، ضبطه صححه شرحه أحمد أمين ، أستاذ اللغة العربية بجامعة القاهرة ، أحمد الزين بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية سابقا ، إ براهيم الأناري المدرس بالمدارس الأميرية ، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٥٥ م ج ١ ص ١٩٤ – ١٩٦ .

Dhaka University Institutional Repository

فيفند هذه الاتهامات ويصفها بأنها كاذبة عارية عن الصحة ، لا أساس لهـــا عل الإطلاق ، ويؤكد على أن اللغة العربية أسمى لغات العالم قدرا ، وأغناها مادة ، وأرفعها منزلة ، فقد وسعت مجالات العلم والدين والفكر والأدب ، وألفت نفائس الكتب في الموضوعـــات المختلفـــة كـــالفلك ، والطـــب ، والرياضيات ... وحسبها شرفا أن اختارها الله سبحانه و تعالى لسانا لخاتمة الرسالات السماوية ، فشرحت تلك الرسالة السامية لفظا وغاية .

كما يؤكد الشاعر على أن اللغة العربية بحر مزدهر وغـــني بـــثروات علمية قيمة ، ومعارف نفيسة ، ويحث أبنائها على القيام بأعمال الفحـــص والاستكشاف من أجل العثور على تلك الثروات العلمية الثمينة للاستفادة منها في تحقيق التقدم والتنمية والرفاهية والسعادة في المجتمع .ويصور الشاعر آفات الانهيار اللغوي والأدبي التي لحقت بأبناء اللغة العربيـــة مـــن جـــراء الاستعمار الأجنبي البغيض ، حيث طغى فيه الجهل طغيانا ، وســـار النـــاس يهجرون دور العلم والمعرفة ، واهتموا بملذات الحياة ، وتحقيـــق أهدافـــهم الذاتية ، وأوشكوا أن يهجروا لغتهم ، فيعرب الشاعر عن عميـــق أســـفه وحزنه لهذه المأساة اللغوية والأدبية ، ويحث أبناء اللغة العربية على أن يعتزوا بلغتهم ، ويعملوا من أجل النهوض بشأنها ، وإحلالها المكانة اللائقة بها .

– ومما يمثل القضايا الاجتماعية قصيدة حافظ إبراهيم الـــتي نظمـــها بعنوان " مدرسة البنات ببور سعيد " وفيها يقول :

كم ذا يكابد عاشق و يلاقي في حب مصر كثيرة العشـــاق
إني لأحمل في هواك صبـــابة يا مصر قد خرجت عن الأطواق
إني لتطربني الخلال كريمـــة طرب الغريب بأوبة و تلاقـــي
فالناس هذا حظه ما ل ، وذا علم ، وذاك مكارم الأخـــلاق
والمال إن لم تدخره محصنا بالعلم كان نهاية الإمـــلاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفـــاق

Dhaka University Institutional Repository

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخـــــلاق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه لمكيدة أو مستحل طـــلاق
من لى بتربية النساء فإنهـــا في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتهـــا أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورق أيما إيـــــراق
الأم أستاذ الأساتـــذة الألي شغلت مآثرهم مدي الآفـــاق
ربوا البناتِ على الفضيلة أنها في الموقفين لهن خير وثـــاق
وعليكم أن تستبين بناتكم نور الهدي وعلى الحياء الباقي [1]

فقد استهل الشاعر قصيدته الشهيرة بمقدمة بديعة يعرب فيها عن حبه المخلص لبلاده ، ويبدي توقه الشديد لإطلاق سراحها من أيدي المحتلـــين ، ليتولى شعبه الكريم مقاليد أمورها فيحمي عرضها ويحـــافظ علـــى شرفـــها وسيادتها على كافة ترابها .

ويذكر لنا الشاعر مجموعة من الخصال الحميدة ، والسجايا الكريمة التى ينبغي للإنسان أن يتحلى بها ، ويدعو المرء لينال حظه من المال ، والعلـــم ، ومكارم الأخلاق ، ويحذره بأن لا يكتسب المال دون أن يتســـلح بســـلاح العلم والأخلاق ، لأن العلم أساس تقدم المرء ، ورقيه ، وتطوره ومصـــــدر قوته ومجده ، أما مكارم الأخلاق فهي سياج يحفظ المرء مـــــن الوقـــوع في الزلات والانحرافات ، فلا قيمة لعلم إذا لم يتحل صاحبه بالأخلاق الطيبة .

ثم يذكر ما كان يدور في المجتمع المصري في وقته من آفات وأمـــــراض اجتماعية خطيرة ، فيقدم صورة جلية لتلك المآسي التي لحقـــــت بالعلمـــاء

---

[1] – ديوان حافظ إبراهيم ، أحمد أمين وزملاؤه ، ص ٢١٩ – ٢٢٣ .

Dhaka University Institutional Repository

والفقهاء والأطباء ، والمهندسين والأدباء المصريين ، الذين انحرفوا عن وظائفهم الاجتماعية والإنسانية والفنية ، فقد كانوا يستخدمون علومهم لتحقيق أغراضهم الذاتية ، ويستغلون جميع الفرص الممكنة للحصول على ما يطمعون إليه ، ولم يكونوا يهتمون بمصلحة الشعب أو البلاد ، لأن هدفهم هو كسب الأموال قبل كل شيء .

ويعرب الشاعر عن بالغ حرصه على تعليم البنات لأن تخلفهن يؤدي إلى تخلف المجتمع برمته ، فالبنات هن أمهات في المستقبل ، فالأم الفاضلة أثمن كنز في هذه الحياة الدنيا ، وهي شبيهة بالمدرسة ، لأنها تربي الطفل ، وتطبعه على حميد السجايا ، وكريم الشمائل من صدق وأمانة ، واحترام لمن هم أكبر منه ، وعطف وتآخ مع من هم دونه ، وهي تشبه كذلك بالروضة والحديقة ، فيجب على المرء أن يولى اهتمامه البالغ بها مثلما يولى اهتمامه بالحديقة ، ويحذر بأن لا يهمل المرء الأم ولا يستخف من شأنها ، لأنها أستاذة الأساتذة الأولى ، التى يقضي الطفل طفولته بين يديها ، وهى المصدر الأول الذي يأخذ عنها الطفل لغته .

وينصح الشاعر بأن يهتم المرء اهتماما بالغا بالبنات ويحسن في تربيتهن ، فلا يفرط في الحجب والإطلاق ، بل يربيهن تربية جيدة ليؤهلهن للقيام بواجباتهن على أكمل وجه .

ولم يقف اندفاع الشعراء عند هذا الحد ، ولكنه امتد ليشمل كل ما يهم الشعب ، فجعلوا شعرهم ناطقا ينطق عن الشعب وعن قضاياه السياسية والوطنية إلي جانب قضاياه الاجتماعية ، ويعبر عما يختلج في نفسه من رغبة شديدة نحو الحرية و الاستقلال ، بل ألقى شعراء نفوسهم في أحضان الشعب يغنون له الأغاني الوطنية ، ويلفتون انتباهه إلي كل الأحداث المأساوية وجرائم القوات المعتدية الوحشية التي من شأنه أن تثير مشاعر شعبهم ، وتحرك أحاسيسه ، وتشعل في نفسه نيران الحقد والتمرد والثورة

Dhaka University Institutional Repository

ضد الاحتلال . ومن تلك الأحداث المأساوية حادثة " دنشـــواي " الـــتي وقعت عام ١٩٠٦ م . وذلك أن خمسة من جنود الاحتـــلال الإنجلـــيزي قصدوا إلى قرية دنشواي بمحافظة المنوفية في دلتا النيل ليصيدوا حمام أهـــالي القرية ، وحاول أهل القرية منعهم وتعرضوا لهم ، فأصيب ضابط بإصابـــة أدت إلى موته ، فثار الانجليز واتهموا أهالي القرية بالاعتداء على جندهـــم وحاكموهم فورا محاكمة صورية قضوا فيها بإعدام أربعة من أهـــالي " دنشواي " شنقا وبجلد سبعة بالسياط ، وحبس ثمانية آخرين لمـــدد مختلفـــة ونفذ الإعدام والجلد بمرأى ومسمع من سكان القرية عقابا وتنكيلا . [١]

ونظم الشعراء العديد من القصائد في هذه الحادثة المؤلمة وتلك الجرائم الوحشية ، ومنها مقطوعة شعرية للشاعر أحمد محرم بن حسن أفنـــدي (١٨٦٦- ١٩٤٥ م) وفيها :

ولقد مررت (بدنشواي) فهاجنى ... وجد على مر الحوادث باق
تلك السياط على الجلود وهـــذه ... سود الحبال نشد في الأعناق
وأرى دموع الثاكلات هواميا ... تجري فتعرق في الدم المهراق
يرمى النفوس وما بها مـــن قوة ... تزع الرماة وما لها من واق
عرف الحمام مصابها فكـــأنما ... لبس الأسى في هذه الأطواق
لولا الألى حملوا السلاح لصيده ... لم يسبقها الموت المسمى ساق [٢]

يمر الشاعر بقرية (دنشواي) بعد أن وقع فيها هذا الحادث الوطـــني المؤلم ، فتهيج أحزانه ، وتعود به الذاكرة إلى تلك الأيام السود التي عاشت

---

[١] – د . شوقي ضيف " دراسات في الشعر العربي المعاصر " طبع ونشر مكتب الدراسات الأدبية بالقاهرة ، الطبعة السابعة ، ص ٢٤ .

[٢] – على محمد حسن العماري " التاريخ الأدبي " ص ٨٧

Dhaka University Institutional Repository

فيها القرية ، وتبدو لعينيه تلك السياط التي جلد بها الفلاحـــون الأبريـــاء والحبال السود التي تشنق بها زملائهم ودموع الثاكلات تســـقط غزيـــرة فتخلط بالدماء ، بل تغرق فيها ، ويخيل إليه أن حمام تلك القرية إنما لبـــس الحزن في أطواقه لما عرفهم مما أصاب أهله .

– ومن الأحداث المأساوية التي هزت المسلمين في جميع أنحـــاء العـــالم وملأت قلوبهم حزنا وألما " حادث إعدام قائد المجاهدين الليبيين عمر المختار بن عمر المنفي (١٢٧٥– ١٣٥٠/ ١٨٥٨–١٩٣١م) بأيدي ســـلطات الاحتلال الإيـــطالي .

مما لاشك فيه إن الأبطال يبقون في ذاكرة التاريخ شمسا مضيئـــة تنـــير الدرب أمام أبناء الحاضر والمستقبل ، والأدب هو الهبة السماوية القـــادرة على التقاط هموم الناس ، لا بد أن يستوحي أعمال الأبطـــال الشجعـــان وتوظيفها في كافة أشكال الأدب وأجناسه . ومن هنا كان لاستشهاد البطل عمر المختار تأثيره الكبير على قرائح الشعراء والمبدعين ، فخلدوا ملحمـــة موته البطولية في الكثير من نصوصهم الإبداعية ، فلم يكن استشهاده حدثا عاديا ، بل كان عنوانا للإرادة القوية التي كانت تطرد الخوف من قلـــوب أصحابها فإما الحياة بعز أو الموت بشرف ، كما كـــانت حياتـــه درســـا في الكفاح والنضال وطلب الحرية في ساحة الموت ، وكان استشهاده بدايـــة إصرار قوي وتأكيد على أن عمر المختار لم يكن وحده ولن يكون ، ولـــن ينتهي بحبل المشنقة كما ظن شانقوه،ولكنه سيبقي حيـــا في ذاكـــرة كـــل الأجيال .

وكثيرة من القصائد التي كتبت في رثاء هذا البطل الشهيد رثاء لا يشبه ما عرفناه من شعر الرثاء فهو تحية للبطل وتأكيد على أن موته لن يكـــون نهاية المطاف ، بل هو تأكيد للعزم والتصميـــم علـــى مواصلـــة النضـــال والكفـــاح ، كما كانت هذه القصائد استشراقا للمستقبل .. فهي تتحدث

Dhaka University Institutional Repository

بروح الجموع التي كافحت مع أسد الصحراء .. وناضلت من بعده حتى اليوم .. [1]

في الشعر العربي نجد الكثير من القصائد التي خص بها أصحابها " عمر المختار " بعد سماعهم نبأ استشهاده ، ومن هؤلاء الشعراء الذين اهتزوا لبطولة هذا البطل العربي وانفعلوا لإعدامه الشاعر العربي أحمد شوقي . فقد تجاوب الشاعر مع هذا الحدث الكبير فرثى عمر المختار في قصيدته رثاء باكيا حزينا يستهلها بقوله :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم انصبوا منارا من دم توحي إلى الغد البغضاء

إنه رثاء رائع لم ير فيه الشاعر إعدام عمر المختار شنقا على أيدي الغزاة موتا له ، بل حياة أبدية أصبحت رفاته علما شامخا تستلهم منه الأجيال معاني البطولة والفداء عبر السنين ، وصور عمر المختار رمزا للنضال يثير كوامن الغضب على المحتلين صباح مساء ، وتوعدهم بأن دم المختار سيظل شعلة متوهجة تضيء طريق الكفاح ، ووحيا على مر الأيام للأجيال القادمة يحفزها إلى أن تستمر في مواصلة خوض المعركة في سبيل حرية الوطن وعزته ، ويركز الشاعر على الرمز الذي بدأ به النص فيصور جرحا نازفا دائما يلعن الغاضبين ويثير المواطنين :

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء

---

[1] – مقال بعنوان " عمر المختار في الشعر العربي " نشرته صحيفة الجماهيرية ، العدد رقم : ٢٨٦٤ بتاريخ ١٩٩٩/٩/١٦

Dhaka University Institutional Repository

فهذا البطل العظيم ضحية من شهداء معـــارك الحريـــة الحمـــراء ، ثم يتساءل لما لا يسمح أولئك الطغاة بأن تكون العلاقة بين الشعوب علاقـــة مودة وإخاء ...

ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة إخاء

ثم يقترب الشاعر من عمر المختار ويخاطبه سيفا من سيوف الكفـــاح الوطني الذي أصبح بمرور الزمان رمزا لكل مجاهد ومثلا لكل بطل ، وطريقا لكل مكافح ، وأصبحت الصحراء غمدا لكل محارب ومنـــاضل وطـــني ، وموقعا لكل متربص ، وليست هذه البطولة في عمر المختـــار إلا امتـــدادا لبطولات " بني أمية " مجد الأمة العربية شبابا وكهولا ، هؤلاء الذين فتحوا للعالم العربي الإسلامي فتوحات المشرق والمغرب وبنوا حضـــارة عظيمـــة فاقت الحضارات القديمة فيقول :

تلك الصحاري غمد كل مهنَّدٍ أبلى فأحسن في العدو بلاء
قبور موتى من شباب أميـــــة وكهولهم لم يبرحوا أحياء
وبنوا حضارتهم فطاول ركنها دار السلام وحلق السماء

ثم يمضي " أحمد شوقي " موضحا في رثائه أن عمر المختار واحـــد مـــن القلائل ذوي الحسب والنسب الذين يفضلون التقشف و يرفضون الـــثراء والجاه العريض في سبيل الدنيا ويترلون إلى معركة المصير يتسربلون بغبارها وينالون من شظاياها ، وهذه البطولة الحقة لم تعرف الـــترف والنعومـــة ، والأبراج العاجية ، والعزلة عن أرض المعركة والقتال . ولهذا الموقف مـــن " عمر المختار " حزنت عليه القارة الإفريقية مهد الشجعان ، وعزا على ما

Dhaka University Institutional Repository

أصابه العالم الإسلامي فلا يملك معه عزاء ، بل إن عصور ما قبل الإســـلام أطلت باكية من أجله ، فيقول :

خيرتَ فاخترت المبيت على الطوى لم تبن جاها أو تلم ثـــراء
إفريقيا مهد الأسود ولحدهـــا ضجت عليك الأجلاء أو نساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عـــزاء

ويصل المد الشعوري لدي الشاعر ، فيسلم في ذمة الله تعـــالي بقايا الجسد الطاهر من " عمر المختار " الذي وسد صحراء ليبيا ، وما بقي فيـــه من عظام جافة تشبه عظام النسر أو الأسد . ومما يزيد في قدره ويعلى مـــن شأنه أنه بطل بدوي لا يخوض المعركة على دبابة أو في طـــائرة ، ولم يكـــن يستعمل الأسلحة الحديثة ، وإنما كان يخوضها على صهوات الخيـــل يديـــر المعارك والهيجاء من أعرافها ضاربا بالسيف مرة وبالرمح مرة أخرى ، فيا له من بطل عظيم ، فيقول :

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وسد الصحراء

يصور الشاعر شموخ البطل أمام قاتله حين أقبل على الموت رافعا رأسه شامخا وقورا فانضم إلى ركوب الخالدين ، فتقدم متماسكا لم ينفجر باكيـــا خوف الموت ، فقد عرف الحياة ، وتوقع ضرها قبل نفعها . وهذه صفـــات الأسود فإنها لا تزأر في قبورها ، ومحال أن يبكى اســـتجداء وضعفـــا ، ثم يرسم الشاعر صورة للبطل يجر ثقل القيد كأنه يجر حية رقطاء . وقد عفت بساقيه القيود فلم يئن وسرى في جسمه يستسلم ، ووقف علـــى عتبـــات الثمانين من عمره فلم يزده هذا العمر الطويل إلا قوة وإيمانا ، وتحمل عبء كل هذه السنين صابرا حيث ينوء بحملها الجيل الأشم .

Dhaka University Institutional Repository

ولقد غفل قاضي المستعمر أو تغافل عن هذه الحقيقة الواضحة فلن تشفع عنده هذه السنون ، ولم يستشعر رفق الإنسان بالإنسان ، ولو احتكمنا إلى الحضارة الإنسانية ومعاييرها وقيمها لوجدت هذه السن عطفا وتقديرا ولكن أنى هذا ، والمستعمر غاشم مستبد فلم يرحم شيخوخته . فيقول :

لبى قضاء الأرض أمس بمهجة لم تخش إلا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جر إلى القضاء رداء ..

ثم يمضي الشاعر في قصيدته واصفا أخلاق الفارس " عمر المختار " مع أصدقائه وأعدائه و يقول : ما أعظم المقتول لقد أعدموا بطلا قويا ذا شرف وحسب يشارك الآخرين مسراهم وأحزانهم . ويبذل كل ما يستطيع بذله لأصحابه ويدعوهم إلى مودة كل الناس ، فهو بطل ذو مروءة ونبل لم يستطع جلاده أن يعد لهذه الشخصية العظيمة ما يليق بها من معركة شريفة تدور رحاها بين البطل و أعداء وطنه . ولكن هؤلاء الطغاة الظالمين جبنوا فتخيروا حيلا مهينا فأعدموه أسدا وبطلا مقاتلا عنيدا يضرب بسيفه ضربات مسددة لا ينجو منها أحد ، وقد ظلموه حين حرموه شرف الاستشهاد على أرض المعركة ، فيقول :

حرموا الممات على الصوارم والقنا من كان يعطي الطعنة النجلاء

ثم يشجب الشاعر الحضارة التي يدعيها المستعمر الغربي دائما في هذا العمل الإجرامي ضد هذا البطل . إنها حضارة المستعمرين الذين يتعاملون فيما بينهم حضارية ، ويلتزمون جانب الحق والعدل في بلادهم ويحرمون منه

Dhaka University Institutional Repository

غيرهم . فما أسوأ هذه الحضارة وما أظلم أهلها . إن حضارتهم وشرائعهم حريصة على هدم بلاد كثيرة مع أنها تبني وتؤسس في بلادهـــم ، فكيف تهدم هنا وتؤسس هناك ، فيقول :

إني رأيت يد الحضارة أولعـــت بالحق هدما تارة وبنـــاء
شرعت حقوق الناس في أوطانهم إلا أباة الضيم والضعفاء

ثم في نهاية القصيدة يتجه الشاعر إلي الشعب الليبي يسمعه رثاء يصوغه في عمر المختار " شهيد الحق والحرية " ولكن المحنة ألجمت فاه والخطـــوب والنوازل شغلته عن الإصغاء فيستصرخه .

فكل الأبطال والزعماء والجنود يقدمون أرواحهم رخيصـــة في ســـبيل شعوبهم ويذهبون لتبقي عزيزة خالدة على مر الأيام ، ولكن الشعوب دائما كريمة تجود بالزعماء وتنجب الأبطال . فالشاعر يطالب الشعب بأن يتخير زعماءه ويخفف العبء عن شيوخه ، ويضاعف مسؤوليات الكفاح لـــدي أبنائه من الشباب ، فيقول :

يأيها الشعب القريب أسامع فأصوغ في عمر الشهيد رثاء

وهكذا يعبر الشاعر عن هذا الموقف الجليل ويستنهض الهمم ، ولقـــد بقيت هذه القصيدة حية تردد على كل شفة ولسان . [1]

هذا ،وظل الشعراء طوال القرن الماضي وفي هذا القرن يكافحون المحتلـــين بسهام أشعارهم يصوبونها إلي نحورهم ، وكأنهم تحولوا إلي ما يشبه بركانـــا

---

[1] – المصدر السابق

Dhaka University Institutional Repository

ثائرا يرمي المحتلين بحممه وقذائفه حتى يولوا عن الديار العربية مدبرين غير رجعة .

وكم من أنشودة للحرية أنشدها الشعراء يستثيرون بها همم مواطنيهم ، ويشحذون بها عزائمهم حتى يذيقوا المحتلين وبال أمرهم ، ويردوهم عن أوطانهم خاسئين وخاسرين .

والشاعر مطران خليل بن عبده بن يوسف مطران (١٢٨٨-١٣٦٨هـ/ ١٨٧١-١٩٤٩ م) من طليعة شعرائنا الذين طالما تغنوا بالحرية ، ورتلوا أناشيدها ترتيلا ، ومن أروع أناشيده للحرية قصيدة نظمها بعنوان " شيخ أثينا " حيث يتحدث فيها عن غزو الرومان لأثينا واليونان واحتلالهم لديار اليونان ، وهو يضمر في ذلك احتلال الإنجليز لمصر والأقطار العربية الأخرى وما ينبغي أن يتسلح به مواطنوها من حزم وعزم حتى يخرجوا العدو من أرضهم ويطمسوا آثار أقدامه ،إذ يقول :

يا دهر إن كنت لم تمهل شبيبتنا ... حتى أدلت انحطاطا من معالينا
فأنت خير مرب للأولي جهلوا ... كجهلنا أن ترك الحزم يشفينا
فزدْ مصائبنا حتى تنبهنا ... تكن حياة لنا من حيث تردينا
هم سقوا بدم الأكباد عزمهم ... وبات في صدأ الأغماد ماضينا
تالله ما غلبونا حيث باسلونا ... وقضى قتيلا ونالوا من نواصينا
ولكنهم غالبونا حين ملكهم ... وأزمة الأمر شادينا وراضينا
فما هم بأعادينا خلائقنا ... هي التي أصبحت أعدي أعادينا [1]

---

[1] – د. شوقي ضيف " دراسات في الشعر العربي المعاصر " ص ١٣٦ .

Dhaka University Institutional Repository

وفي الواقع أن الشاعر مطران خليل مطران يرمز في هـــذه القصيـــدة الرائعة إلي قصة احتلال القوات الإنجليزية لمصر والبلدان العربيـــة ، ومـــا كانت تنزله على مواطنيها من ظلم واضطهاد وعذاب أليم ، ولكنه عـــاد بذاكرته إلي تاريخ أثينا حين لحق بها ضعف ، فاســـتولى عليـــها الرومـــان ومارسوا فيها أبشع وسائل القمع والظلم ضد سكانها ، فيحكـــي ذلـــك الشاعر على لسان هذا الشيخ الذي صارت إليه بلدته من انحلال وضعفت قدراتها الدفاعية حتى أصيبت بها هزيمة فاضحة . فأخذ الشيخ يندب الشباب ويبكيهم الذين أذلهم الترف ، والخوف من الحرب والمجازفة .

فقد لجأ الشاعر إلي استخدام هذا التاريخ ليتغنى لمواطنيه بأغنية الحرية ، ويعبر عن مشاعر الحقد والغضب والثورة المكظومة نحو المحتلـــين المعتديـــن الذي كانوا يجثمون على مصر والأقطار العربية الأخـــرى ، ويعتصـــرون طيبات أراضيها ويرتكبون الأعمال الهمجية واللاإنسانية بكافة أنواعها ضد سكانها فيستثير مواطنيها كي يهبوا في وجه المحتلين المجرمين وينقذوا ديارهم من براثنهم ، فلا ينبغي أن يخافوا من الأعداء ، لأن النصر سيكون أخـــيرا للوطنيين على المحتلين الظالمين ولن ينفعـــهم جيوشـــهم ولا عددهـــم ولا أسلحتهم فيولون على وجوههم من ديارهم صاغرين .

– ومضى الشعراء ينظمون أشعارهم في حب الوطن والدفاع عنه مـــن مثل قصيدة الشاعر العربي المعاصر المجيد معـــروف الرصـــافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥ م) ، ويقول الشاعر في قصيدته :

أشربت حب بلاد ما نشأت بها ... إلا لأدفع عنها كل عـــدوان
أخلصت حبي لها حتى نسيت به ... نفسي وأهلي وأحبابي و خلاني
يا مواطنا ليست منه في مواعدة ... عش بعد موتي عيش الوادع الهاني

Dhaka University Institutional Repository

فكل من فيك تعنيني سعادتهم وكل أبنائك الثوار إخـــــواني
إن سرك الدهر يوما سرني وإذا آذاك بالمزعجات الـــدهر آذاني
وليس ينفعني عز و لا شـــرف إن لم تكن ذا عز وسلـــــطان [1]

يعبر الشاعر عن حبه لوطنه تعبيرا جميلا رقيقا ، فلقد أشرب الشـــاعر حب بلاده حتى ملأ كيانه ، مما عزز تصميمه علي أن يدافـــع دومـــا عـــن وطنـــه ، ويصد عنه غوائل العدوان ، لقد أخلص الشاعر حبه لوطنـــــه ، ونزهه عن كل غرض حتى سما على كل حب يكنه لنفسه أو أهله أو أحبابه أو أصدقائه ، لقد غدا حبه فوق كل حب .

ويلتفت الشاعر إلي وطنه يناجيه ويبثه حب المخلص قائلا : يا وطـــني الحبيب أرجو لك حياة السعادة والطمأنينة ، فإن سعادتك وسعادة أبنـــائك هي سعاديّ ، ولست أحمل حقدا لأحد منهم ، فنحن جميعا إخوة في حرمك القدسي ، وأكد للوطن قائلا :إن سرورك سروري ، وحزنك حزني ، وعزك عزي ، وقوتك قوتي ، ولن أكون عزيزا شريفا إن كنت يا وطني الحبيـــب ذليلا مهانا .

لقد كان الشاعر رائع التعبير عن حبه لوطنه فقد شغله هذا الحب عـــن كل حب ، وطهر قلبه من كل ضغينة ، وسما بمعني الســـعادة والســـقاء إلي مستوى رفيع من الحدود الذاتية إلي آفاق الوطن الرحيب .

– هذا وكان الشعراء ينظمون أشعارهم يقصون فيها تاريخ بلادهـــم ، فتمتلئ قلوبهم سرورا وفخرا عندما يرتفع بها المجد ، في حين تمتلئ القلـــوب حزنا و أسفا عندما تمر بها فترات الظلم و الذلة فيستثيرون بأشعارهم جيلهم والأجيال القادمة كي تعيد بمجد البلاد وعظمتها الماضية . ومن أروع مـــا

---

[1] – محمد صلاح الدين موسى و زملائه " الأدب والنصوص ، والبلاغة والنقد " ص ٢٣ .

Dhaka University Institutional Repository

نظم في هذا الباب قصيدة "كبار الحوادث في وادي النيل" لأمير الشعـــراء أحمد شوقي التي قالها في مؤتمر المستشرقين في جنيف بسويســـرا عـــام ١٨٩٤ م [١] والتي استهلها بقوله :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء [٢]

وفيها يقول :

أجفل الحن عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الأنـــاء
شاد مالم تشد زمان ولا أنـ شأ عصر ، ولا بني بنـــاء
زعموا أنها دعائم شيـدت بيد البغي ملؤها ظلمـــاء
فاعذر الحاسدين فيها إذا لا موا فصعب على الحسود ثناء [٣]

ففي هذه القصيدة الرائعة يقص علينا شوقي تاريخ مصـــر القديمـة ، والحضارات التي توالت على بلاده في الأزمنة الماضية ويبدأ قصته بالحديث عن حضارة الفراعنة ويفتخر بها ، لأنها تركت للبشرية الفن الجميل القـديم في عبقرية الأهرام وهندسة المعمار ، وموهبة النحت والتصويـر ،ويدافـع الشاعر عن هذه الحضارة قائلا : مهما أخذ الآخذون بعد ذلك عن هـذه الحضارة من مآخذ الظلم وتسخير الناس في ابتناء المعابد و الأهرام فـالعذر قائم فيما خلفته من مجد وما تركته للبشرية من فن جميل .

– ثم يحكي الشاعر عن ملوك الرعاة أو" الهكسوس" ، وهم قوم فاتحون من آسيا ، انتهزوا فرصة الضعف الذي حل بمصر ، و التنازع الذي حدث

---

[١] – د. محمد أحمد العزب " عن اللغة والأدب والنقد" ص ٢١١.
[٢] – الشوقيات ، أحمد شوقي ، المكتبة التجارية الكبري ، القاهرة ١٩٧٠ ، ج ١ ص ١٧ .
[٣] – المصدر السابق : ص ١٨

Dhaka University Institutional Repository

فيها بين طبقة الأشراف إثر انهيار عهد الأسرة المكية الثانية عشرة المصرية ، فغزوها عام ١٦٧٥ قبل الميلاد ، فيقول :

فعلا الدهر فوق علياء فرعـــو ن ، وهمت بملكه الأرزاء
أعلنت أمرها الذئاب وكانوا في ثياب الرعاة من قبل جاءوا [١]

ثم يقص قصة"رمسيس الثاني" وهو ابن "سيتي الأول" ، أحـــد ملـــوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية ، ولي عرش مصر وهو صغير واستمر حكمه من سنة ١٢٩٢ حتى ١٢٢٥ قبل الميلاد ،ويعرف بـــ "رمسيس الأكبر" لما اكتسبه من الشهرة الفائقة في تشييد المباني ، ونشر الأمن الرخاء في جميـــع أنحاء البلاد ، والأمر الذي جعل كثيرا من الناس يزعمون أنه أعظم ملـــوك مصر ، فيقول :

و أتي الدهر تائبا بعظيـــــم من عظيم ، آباؤه عظماء
من كرمسيس في الملوك حديثا ولرمسيس الملوك فداء [٢]

ويحكي الشاعر بعد ذلك قصة " قمبيز" وهو أحد ملوك الفرس الـــذي غَزَا مصر وانتصر على "ابسمتيك" آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية ، فاستولى علي مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ،وأخذ الملك أســـيرا ، وسلك في مصر مسلك الظلم والعصف ،وخرب المعابد والهياكل ، وقتـــل العجل " إبيس " إله المصريين القدماء ، فيقول :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيـــ ز ، ولا طنطنت بك الأنباء

---

[١] – المصدر السابق ، ص ١٩ .
[٢] – المصدر السابق ، ص ٢٠ .

Dhaka University Institutional Repository

دارت الدائرات فيك ونالـــت هذه الأمة اليد العـــــراء
قمبيز مما جنيت لمصـــــــر أو داء ، ما إن إليـــه دواء [1]

ثم يحكي قصة "إسكندر الأكبر المقدوني" الذي افتتح مصـــــر ســـنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، وقضي على حكم الفرس ، وأنشـــأ مدينـــة سماهـــا الإسكندرية ، ويحكي الشاعر بعدها قصة بطليموس الذي حكم مصـــــر بعد إسكندر الأكبر ،وأسس دولة البطالسة التي استمرت مـــن ســـنة ٣٢٣ حتى ١٠٠ قبل الميلاد ، فسقطت هذه الدولة إثر انتحار كليوباترا – ٣ ، وهي آخر ملكة حكمت مصر من دولة البطالسة وقد هام بهـــا قيصران ، أحدهما : بوليوس ، وهو الذي انتـــهت بموتـــه الجمهوريـــة الرومانية ، والثاني : "انطونيوس" ، وهو الذي أنشـــأ بـــالاشتراك مـــع "إكتافيوس" الإمبراطورية الرومانية ، وقد كان هيـــام الأخـــير بملكـــة كليوباترا سببا لغزوه لمصر وانتصاره على الملكة المصرية المذكـــورة ، والتي حاولت عبثا أن تؤثر في قلبه بجمالها فانتحرت بأن وضعت علـــى صدرها حية وانتحر إنطونيوس بعدها . فيقول الشاعر في هذا الصدد :

شاد إسكندر لمصر بنـــاء لم تشده الملوك والأمـــراء
بلدا يرحل الأنام إليـــه ويحج الطلاب والحكمـــاء
والرعاية في نعمة والبطليـــ موس في الأرض دولة علياء
فقضي الله أن تضيع هذا المـــ لك أنثي صعب عليها الوفاء
تخذتها روما إلي الشر تمهيـــ دا ، وتمهيده بأنثي بـــــلاء [2]

---

[1] – المصدر السابق ، ص ٢٢ .
[2] – المصدر السابق ، ص ٢٣ وما يليها .

Dhaka University Institutional Repository

ثم ينتقل شوقي إلى تاريخ حضـــارة المســـلمين الـــتي توالـــت علـــى مصـــــــر ،ويستعرض دور هذه الحضارة في نشر الأمن والرخاء ، والحق والعدل في أنحاء مصر ، فيقص علينا قصة الدولة الأيوبية التي أسسها أبـــو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي المعروف بصلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩ هـــ) التي حكم مصر من سنة ١١٧١م إلى ١٢٥٠ م كما يتحدث عن صلاح الدين الأيوبي الذي استعاد المسجد الأقصـــى وفـــرق جمـــوع الصليبيين ، وأذاقهم الذل والصغر فيقول :

واذكر الغر آل أيوب ،وامدح فمن المدح للرجال جـــزاء
هم حماة الإسلام والنفر البيـــ ض ، الملوك الأعزة ، الصلحاء [1]

- ثم يحكي قصة أمرد الملوك لويس التاسع ملك فرنسا وكان من الأبطال الصليبيين ، الذي أسر في موقع المنصورة ثم فدى نفسه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، فيقول :

سبت أمرد الملوك فردتـــ ه وما فيه للرعايا رجـــاء
ولو أن المليك هيب أذاه لم يخلصه من أذاها الفداء [2]

بعد ذلك يقص الشاعر قصة "نابليون بونابرت "القائد الفرنسي الذي استولي على مصر سنة ١٧٩٨ م وأخيرا يحكي قصة معركة " واترلو" التي دارت رحاها بين "نابليون" و "ولنجتون" القائد الإنجليزي الشهير في يـــوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ م فانتصر الأخير بمساعدة "بلوفر" القائد الروســـي

---

[1] – المصدر السابق ، ص ٣١ .

[2] – المصدر السابق : ص ٣١ .

Dhaka University Institutional Repository

فأخذ نابليون أسيرا ، وتم نفيه إلي جزيرة " سنت هيلانة" حيث قضى البقية من حياته ، فيقول في هذا الصدد :

وأتي النسر ينهب الأرض نهبـــا حوله قومه ، النسور ظماء
قاهر العصر والممالك ، نابلـــ يون ، ولت قواده الكـــبراء
جاء طيشا وراح طيشا ومن قبـــ ل أطاشت أناسها العليـــاء
سكتت عنه يوم عيرهـــا الأهـــ رام ، لكن سكوتها الاستهزاء
فهي توحي إليه : أن تلك "واتر لو " فأين الجيوش ؟ أين اللواء [1]

ومضي الشعراء الآخرون يفشون ما يقوم به الأعداء مـــن مؤامـــرات شريرة ضد الأمة العربية في إطار مساعيهم اليائسة للقضاء على الحضـــارة الإسلامية والعربية المجيدة ، معربين عن أملهم الكبير في المســـتقبل العـــربي السعيد القريب . ومن أروع القصائد العربية المعاصرة في هذا المجال قصيدة الشاعر السوري المعاصر " شفيق جبري " التي أنشدها في مهرجان الشعـــر الأول في دمشق عام ١٩٥٠ م وعنوان هذه القصيدة " انتفاضـــة الحـــق " وفيها يقول :

يا أمة من تراث الدهر خالدة مضت ولم تقتبس آثارها الأمـــم
ظنوا اجتياحك مأمونا عواقبه وما دروا أنهم في ظنهم وهمـــوا
حلوا بأرضك حينا ثم ما لبثوا إن غادروا الأرض لم تثبت لهم قدم
فما رأوك وقد أعيت جحافلهم ولو وقد أورثوا الغيظ الذي كظموا
كأن أمثالهم من بعدهم خلفوا أن يبعث الحقد نيرانا وينتقمـــوا!

---

[1] – المصدر السابق : ص ٣٢

Dhaka University Institutional Repository

فأقحموا في ديار العرب شرذمة من آل صهيون لا عهد ولا ذمم
هذه حضارتهم والشر يملؤها ماتت على صرحها الأخلاق والشيم
يشردون شيوخا من ديارهم كأنهم في صحاري تيههم بهم
كأنما الأرض من آثارهم يبث فما ينضرها ورد ولا عنهم
مهلا فلا تيئسن اليوم إن عبست لك الليالي وإن ماجت بك الظلم
ما ضر موكبك الجوار أن طرحوا صخرا على دربة فالصخر ينحطم
فما يعوق ضياء الشمس إن سطعت غيم على جنبات الشمس يزدحم [1]

ففي هذه القصيدة يخاطب الشاعر أمته العربية الإسلامية ويصف أمته بأنها أمة ذات حضارة قديمة ومجد عريق ، ويصور لها حقد الأعداء عليها وعلى حضارتها السامية ، ويذكر في هذا الصدد أن أعداء العرب والمسلمين ظنوا بأنهم يستطيعون القضاء على هذه الحضارة المجيدة وهذا المجد العريق بسهولة ولكنهم كانوا في ظنهم واهمين ، وهم وإن كانوا قد استطاعوا أن يتزلوا بأرض العرب والمسلمين فترة قليلة من الزمان أيام الحروب الصليبية إلا أنه سرعان ما انتصر العرب والمسلمون عليهم ، وأجلوهم عن ديارهم ، ورفرفت راية الإسلام خفاقة على كل البقاع .

وما كان هذا الانتصار يرضي الأعداء ، فحاولوا عدة محاولات للانتقام منهم ، ولكن باءت جميعها بالفشل التام ، فأورثوا أبنائهم الحقد على العرب والمسلمين إلى أن حانت الفرصة لهم في صورة مؤامرة دنيئة ، افتنوا فيها في الخداع وبذر الشقاق بين المسلمين والعرب لإنشاء وطن قومي لليهود ، ومدوا هؤلاء الصهيونيين بالسلاح والمال وكل أنواع المساعدات حتى

---

[1] –حنفي عبد الله الحنفي ، محمد محرم المصري " النصوص الأدبية " طبع ونشر المديرية العامة للأبحاث والمناهج والمواد التعليمية ، وزارة المعارف ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ م ص ١٦٠–١٦١

Dhaka University Institutional Repository

تمكنوا من احتلال قطعة عزيزة من أرض العرب المسلمين ، وشردوا أهل البلاد الأصليين ، وهكذا عكروا صفو الحياة ، وشوهوا جمال الأرض المقدسة وهكذا أثبتوا أن حضارة الغرب لا تعتمد على المثل و الأخلاق .

ويعرب الشاعر عن أمله الكبير بالمستقبل السعيد قائلا : إنه اشتدت الخطوب وتتابعت النكبات ، فإن عزيمة العرب والمسلمين كفيلة بطردهم ، وقد وعدهم الله عز وجل بالنصر ، إذ قال في كلامه المجيد : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [1] وقال الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ/ ١٣٠٠-١٣٧٢م) في تفسير هذه الآية : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ... [2]

ولا شك أن دولة الظلم لن تدوم وأن دولة الحق تدوم إلى قيام الساعة.

- وهذا هو الشاعر هارون هاشم رشيد - شاعر فلسطيني معاصر - ينظم شعره في بلاده فلسطين ، وهو وطن كل عربي وبلد كل مسلم ، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول محمد صلي الله عليه وسلم ، وقد تآمر الاستعمار على طرد أهلها الآمنين ، وإحلال شرذمة من اليهود فيها بقوة الغدر والسلاح .

ولقد كافح الشعب الفلسطيني وما زال يكافح في سبيل استرجاع وطنه السليب تسانده جميع الدول العربية والإسلامية . وهذا الشاعر الذي عاش النكبة واكتوى بنار العدوان الصهيوني الاستعماري ، يعبر عن مشاعره نحو وطنه ، فيعبر عن بالغ قلقه واستيائه لما حل ببلاده من مأساة وما أصيب بأهله المقيمين فيها من تعذيب ، ويعلن بكل تصميم وقوة عزمه علي العودة

---

[1] - سورة المؤمن : الآية ٥١ .

[2] - ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " طبع دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ج ٤، ص ٨٣ .

Dhaka University Institutional Repository

إلي أرض فلسطين ، أرض آبائه وأجداده ليحررها من الغاصبين ولتصبح ذات عزة وسيادة ، وهذا وعد يقطعه على نفسه ويلتزم بوفائه مهما طال الزمان ، إذ يقول في قصيدته بعنوان" صرخة " :

أنا لن أعيش مشردا أنا لن أظل مقيدا
أنا لي غد وغدا سأز حف ثائرا متمردا
أنا لن أخاف من الموا صف وهي تجتاح المدي
أنا صاحب الحق الكبيـ ر وصانع منه الفدا
أنا نازح داري هنا ك وكرمتي و المنتدى
وشبابي المشوب كم حمل الكفاح و كم شدا
وطني هناك ولن أظل بغيره متشردا
سأعيده وأعيده وطنا عزيزا سيدا
لي موعد في موطني هيهات أنسي الموعد[1]

ومن ناحية أخري حين أخذت الثورة الشعبية العربية تحقق انتصاراتها على القوات المحتلة المعتدية إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ م ، بدأت الثورة تذيق السلطات الطاغية وبال أمرها ، وتجبرها على الخروج من الديار العربية وبدأت الأمة العربية تنال حريتها واستقلال دولها ، فوجدنا الشعراء منذ تلك الفترة ينظمون أشعارهم يعربون فيها عن بالغ سرورهم ،

---

[1] – صالح المالك ، عبد الرحمن العقيل ، محمد أبو معطي ، عبد الكريم محمد أسعد " النصوص الأدبية " طبع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية . ط/ ثالثة ، ١٣٩٦– ١٩٧٦ م ص ١٢٠– ١٢١

Dhaka University Institutional Repository

وسرور أمتهم بجلاء قوات الاحتلال الظالمة وتمكن العرب من نيل حريتـــهم وتحقيق سيادتهم الكاملة على كافة أراضي وطنهم .

وهذا الشاعر العربي الليبي "على صدقي عبـــد القـــادر" (المولـــود ١٩٢٢م) ينظم قصيدة بعنوان " رقصة الاستقلال": يعرب فيها عن بـــالغ فرحه وفرح أمته بطرد جميع القوات الأجنبية وإجلاء كافة القواد العسكرية الأمريكية ، و البريطانية ، والفرنسية ، و الإيطالية ... من بلاده وتطـــهير الأراضي الليبية من أدناس القوات الجائرة ، فيقول :

ارقصي يا جبال فوق ثرى ليبيا وهزي الرمال فوق الكثيـــب
واجعلي البيد مرقصا و أرينـــا رقصة المجد بعد رقص الخطوب
أن ذا اليوم : يوم عرس وعيـــد وفيه ليبيا العروس بين الشعوب
ها هي الآن قد تشققت الأرض عن الراقد الشهيد النجيـــب [1]

ومنذ أن نالت الدول العربية اســـتقلالها وأســـست ســـيادتها علـــى أراضيـــها ... اتخذ الشعراء شعرهم وسيلة فعالة ليؤدوا بها وظيفة فنيـــة بناءة تجاه وطنهم . فقد كانوا ينظمون أشعارهم يقدمون فيها ضروبا مـــن النصائح وكل ما يلزم لإعداد الجيل إعدادا جيدا ، ويحثون على الالـــتزام بالواجبات الوطنية بإخلاص وأمانة ، ويدفعونه إلي الاستبسال والاستماتة من أجل رفع سمعة الوطن في جميع أنحاء العالم ، واستمرار المحافظة عل اســـتقلاله والدفاع عن حرمته .

– و هذا الشاعر العربي المعاصر محمد عبد الله معيتيق يتحـــدث عـــن الوحدة العربية ويؤكد علي أن هذه الوحدة أمر ضروري بالنســـبة للأمـــة

---

[1] – أحمد قبش " تاريخ الشعر العربي الحديث " طبع دار الجيل ، بيروت ، لبنان ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ص ٤١٤– ٤١٥ .

Dhaka University Institutional Repository

العربية التي تسكن وطنا واسعا يمتد من الخليج العربي إلي المحيط الأطلسي ، وهو وطن مليء بالخيرات والثروات المتنوعة ، كما أنه يحتل موقعا وسطا في العالم ، جعل له أهمية خاصة .

وقد تجمعت قوي الاستعمار العالمي من جديد للسيطرة علـــى الأمـــة العربية واحتلال وطنها ونهب ثرواتها . وقد لجأ الاستعمار كي يحقق مآربـــه إلى التفرقة بين أجزاء الشعب العربي وإقامة الحدود المصطنعة بين أقطار الأمة العربية حتى يعزل بعضها عن بعض ، ويشغل كلا منها بشؤونها الخاصة ، فلا تلتفت إلي ما يجري في الأجزاء الأخرى ، و بذا ســهل عليــه اســتعمارها والتحكم في مصيرها .

و ينبه الشاعر أمته العربية إلي هذه الحيلة الماكرة ، ويؤكد لها أن بقائها في وحدتها وأن عزتها في تعاونها وأن حريتها واستقلالها في وقوفها صفا واحدا ونبذ التشرذم و الانفصال.وما تعانيه الأمة العربية اليوم من ضعف وخـــور أمام الهجمات الاستعمارية – ما كان يحصل لو كانت يدا واحـــدة وصفـــا واحدا ، فيقول الشاعر :

إن اتحاد جيوشنا و شعوبنا رأى أســـــــد
وصفا ء كل قلوبنا سيعيننا في خلق غـــد
ما ضرنا منذ القديم سوى التخاصم و اللـــدد
وسوى اجتياح – لا يشرف – للسلاح إذا نَفِد
النار والبارود في كل الظروف هي السنـــــد
ما خاب شعب في الوجود مدجج بقوى تـــرد
ولنكسب المجد المشرف للعروبة للأبـــــــد
نبني الحياة ونفتدي ركب الحضارة حيث شـــد [1]

---

[1] – محمد صلاح الدين موسى وزملاؤه " النصوص الأدبية " ص ٦٠ .

Dhaka University Institutional Repository

يتحدث الشاعر عن أهمية الوحدة العربية التي هي مطلـــــب أساســـي وحيوي لجماهير الأمة العربية على كل المستويات لأن الوحدة هي مصـــدر قوة للأمة العربية ، فلا تحفظ كرامتها إلا بالوحدة ، ولا يمكنـــها التصـــدي لأعدائها إلا باتحادها .

ويحذر الأمة العربية قائلا: أن الاستعمار يدبر دوما مؤامرات شريـــرة للتفرقة بين أجزاء الشعب العربي ويعمل على تمزيق الأمة العربية حتى تبقي هذه الأمة ضعيفة ممزقة .

ويحث الشاعر أمته علي أن تغضَّ الطرف عن كل الخلافات الثانوية التي قد تقع بين الأشقاء ، و تغسل قلوبها من الحقد ، وتنبذ التخـــاصم المفتعـــل الذي لا يفيد سوى المستعمر ، ناهب خيرات الأمة العربية وثرواتهـــا . فما ضاع حق من حقوقها إلا في غياب وحدتها . ويؤكد الشاعر على أن الأمة العربية بفضل وحدتها تستطيع أن تفرض إرادتها على العالم ، وتأخذ مكانهـــا بين الأمم القوية ، وتحقق ما تصبو إليه من بناء حضارة عربية خالصة تقـــوم على العراقة والأصالة وتحقق الأمل المنشود .

ولم يقف الشعراء عند هذا الحد ، ولكنهم امتدوا لينظموا أشعارا تحث جميع المواطنين رجالا ونساء على الالتزام بالعلم والعمـــل والجـــد وعـــدم الكســـل ، والتمسك بمبادئ التعاون والترابط والتضامن بين أفراد المجتمع والتحلي بالأخلاق الطيبة والتسلح بالقيم النبيلة .. التي تخلـــق الجماهـــير الواعية القادرة على تغيير موازين الحياة ، وصنع التقدم والتنمية ، وتحقيـــق السعادة وتوفير العيش الرغيد ،والمحافظة على الوطن وأهله من كل سوء ..

– ومن هذا القبيل قصيدة الشاعر الأستاذ محمد صبحي سالم بعنـــــوان " إلى العمل " ، وفيها يقول :

Dhaka University Institutional Repository

إلى العمل إلي العمل إلى العلى إلي الأمل

هيأ جميعا إخـــــوتي هيأ جميعا للعمـــل

إلي العمل إلي العمل

بالعلم دوما والعمل بالجد دوما لا الكسل

ترقى البلاد تكتمل هيا جميعا للعمـــــــل

إلي العمل إلي العمل

أبي وأمي قـــدوتي وطني المفدى غايـــتي

نرجو إليه جميعـــا من أجله وجب العمل

إلي العمل إلي العمل

وطني عليه نشأتي وإليه دوما عـــــودتي

احفظه ربي وأحمه حقق لنا كل الأمـــــل

حقق لنا كل الأمل [1]

يدعو الشاعر جميع المواطنين شبابا وشيـــوخا ، رجالا ونساء إلى العمـــــل ، لأنه ضروري لكل إنسان ، فهو يساعده على العيش في هدوء وســـعادة ، ويحمي نفسه من ذل السؤال . ولذلك يجب على الجميع الالتزام بالعمل في مجاله مهما كان نوعه ، فكل صاحب حرفة من نجارة أو حدادة أو بنـــاء أو كهرباء وغيرهم يعملون وينتجون ، فيخدمون أنفسهم وأهليهم ووطنهم .

---

[1] – أبو الفتوح عطية سالم ، عبد الله محمد أبو شعالة ، رمضان سعد القماطي " القراءة والمحفوظات" مطابع شركة انترغراف ، روما ط / الأولي ١٩٩٠ ، ص ٥٢ .

Dhaka University Institutional Repository

يري الشاعر ضرورة أن يتمسك الإنسان بأربعة أمور ، وهـــي العلـــم والعمل والمجد وعدم الكسل ، وأن التمسك بهذه الأمور يجعل البلاد عزيزة قوية ويتحقق لها ما ترجوه .

ويحث الشاعر أبناء الوطن علي أن يعملوا كما يعمل الأباء والأمـــهات في سبيل بلادهم . ثم يتحدث الشاعر عن وطنه الحبيب إلي نفسه ، وطنه الذي نشأ فيه وترعرع ، فشب فوق أرضه ونما تحت سمائه ، ونعم بخيراته واستضاء بنوره ، وورث فيه عن آبائه المجد والرفعة ، وتمتع بنعيم الحب والإيمان فيه ، ويؤكد أنه سيعود إليه مهما سافر وتباعد عنه ، ويطلب من الله عز وجل أن يحفظ وطنه من كل سوء ، و يعينه على أن يبذل حياته منـــاضلا في ســـبيل بلاده ويذود عن حماه ، وينهض به إلي أوج العز والرفعة حتي يتحقق لأهله أمله في الحرية والرخاء والطمأنينة .

– هذا ، ونجد الشعراء المعاصرين الآخرين ينظمون أغاني يتغنـــى بهـــا الفلاحون في حقولهم وهم يحرثون الأرض أو يحصدون ســـنابل القمـــح . ولكل أغنية من هذه الأغاني نغمات خاصة تبعث في النفس الجد والنشاط ، فيدفع الجميع إلي العمل في الحقول بكل إخلاص وحماس . ومن روائع مـــا نظم في هذا الباب " أغنية الحصاد " للشاعر فايد العمروسى ، وفيها يقول:

هيا للسنبل نحصـــــده
في الليل على ضوء القمر
أنداء الفجر على السنبل كالفضة في وادي الذهب
فتعالوا نحصد بالمنجـــل ونغني أغنية الطـــــرب
هيا للسنبل نحصـــــد
في الليل على ضوء القمر
في الحقل السنبل يدعونا للحصد على نور الفجر

Dhaka University Institutional Repository

والحب هناك يناديـــا يلوح كتبر مصفـــــــر

هيا للسنبل نحصـــــده

في الليل على ضوء القمر

أصوات المنجل تغريد كا اللحن يدب إلي القلب

وليالي الحصد لنا عيد يا رب فبارك في الحـــب

هيا للسنبل نحصـــــد

في الليل على ضوء القمر [1]

يتحدث الشاعر عن الفلاح وهو ينادي رفاقه حين يذهب لحصد قمحه فيقول إن منظر الندى على سنابل القمح مع طلوع الفجر منظر بديـــــع ، وأن هذا الندي الأبيض فوق السنابل الصفراء يشبه قطع الفضة موضوعـــة فوق أرض من ذهب ، فتعالوا نحصد السنبل بالمنجل ،ونعبر عـــن ســـرورنا وسعادتنا بالأغاني العذبة .

إن السنابل بعد أن تم نضجها – تدعونا لحصدها في الليالي المقمـــــرة ، وهذا هو الحب الذي يظهر في السنابل كأنه الذهب الأصفر . إن أصـــوات المناجل – وهي تحصد الحب – عذبة جميلة ،وهي تؤثر في القلوب كما تؤثر الألحان في النفوس . وما أجمل ليالي الحصد ، إنها عيد يمـــلأ قلوبنـــا فرحـــا وطربـــا ، فبارك لنا يا رب في المحصول ، وتعالوا يا أصحاب نحصد في ليالي القمر .

---

[1] – المصدر السابق : ص ٣٥– ٣٦ .

Dhaka University Institutional Repository

كما يتحدث الشعراء عن التعاون والترابط بين أفراد المجتمع ، وعن ثمرة هذا التعاون في تحقيق المتعة والسعادة للفرد ولغيره من بني البشر ، ويؤكدون على أن التعـــاون لا يتـــم إلا إذا شعـــر كـــل فـــرد بـــأن سعادتـــــــه لا تنفصل عن سعادة الآخرين ، وإن أي عمل يقدمه هو أو يقدمه غيره لا غني عنه في بناء الحضارة ... وعن تلك المعاني الرائعة يتحدث الشاعر " معروف الرصافي " (١٨٧٥-١٩٤٥م) في الأبيـــات التالية :

يعيش الناس في حال اجتماع ... فتحدث بينهم طرق انتفـــاع
وتكثر للتعاون والتفـــــادي ... على الأيام بينهم الدواعـــي
ولو ساروا على طرق انفراد ... كما كانوا سوي همج رعاع
رأيت الناس كالبنيان يسمو ... بأحجار تُسَيَّعُ بالسيـــــاع
فيمســك بعضه بعضا فيقوى ... ويمنع جانبيه من التداعـــي
قد اشتبكت مصالحهم فكل ... لكل في مجال العيش ســـاع
يساند بعضهم في العيش بعضا ... مساندة ارتفاع وانتفـــــاع
تستعلي الحياة بهم فتمســـــى ... من العيش الرغيد على يفاع [1]

يقول الشاعر إن الناس إذا عاشوا مجتمعين مترابطين فسيحققون فوائد عظيمة ، تعم الجميع ، ومع مرور الأيام تنكشف أهمية التعـــاون في صنـــع الحياة الحرة الكريمة ،ولو انتهج كل فرد منهم طريقا خاصا به لصـــاروا في هذه الحال أشبه بالهمج البدائيين الذين لا يعرفون إلى الســـعادة ســـبيلا . والأفراد في المجتمع في تعاونهم كأحجار البناء الذي لا يُستغني عن حجر من

---

[1] – محمد صلاح الدين بن موسى وزملائه " النصوص الأدبية " ص ٣٤ .

Dhaka University Institutional Repository

أحجاره ليرتفع ، ويعلو ، ويتماسك في قوة وشموخ ، لا يزحزحه أي طارئ مهما كانت قوته .

كذلك الناس في المجتمع أهدافهم واحدة ، ومصالحهم واحدة ، وكـــل واحد منهم يسعى بدوره إلي تحقيق هذه الأهداف ، وتلك المصـــالح ، فلا يستغني أحدهم عن الآخر ، فإذا عجز المحاربون عن التصـــدي للعـــدو في المعركة حمل الراية أرباب القلم من الأدباء يفضحون المعتدي ويكشفون نياته عن طرق الكلمة الواعية المخلصة ، حتى يعود الحق إلي نصابه ، وإذا انخفض العائد من الزراعة فإن الصناع في مصانعهم يتكفلون بإتمام النقص ، وكـــل ذلك لا يتم إلا بتعاون الأفراد وترابطهم واضعين نصب أعينـــهم تحقيـــق السعادة ، ودفع عجلة التقدم إلي الأمام ليعم الرخاء ويتوفر العيش الرغيد ، ويشق المجتمع طريقه نحو التقدموالازدهار .

هذا ،ولا يبخلون الشعراء بالإدلاء بنصائحـــهم الضروريـــة لأهـــالي مجتمعهم وقومهم ، ومن ذلك قصيدة الشاعر علـــى الجـــارم (المتـــوفى ١٩٤٨ م) بعنوان : " يابنتي " والتي يدلي فيها بنصائحه على بنات مجتمعه وقومه ، فيقول :

يا بنتي إن أردتِ آية حســـن وجمالا يزين جسما وعقـــلا
فانبذي عادة التبرج نبـــذا فجمال النفوس أسمي و أعـــلي
زينة الوجه أن تري العين فيه شرفا يسحر العيون ونبـــلا
اجعلي شيمة الحياء خمـــارا فهو بالغادة الكريمـــة أولى
والبسي من عفاف نفسك ثوبا كل ثوب سواه يفني ويبـــلى

Dhaka University Institutional Repository

وانظري في الضمير إن شئـــت ففيه تبدو النفوس وتجـــــلي
ذاك نصحي إلي فتاتي وســـؤلي وابنتي لا تردُّ للأب ســـــؤلا . [1]

ويقول الشاعر إنه جرب الحياة وخبرها كما عرف مواطن الجمـــال الذي يزين الأجسام والعقول ويظهرها في أبهي صورة ، فقد أدرك أن جمال الفتاة في سمو أخلاقها ، ونبل خصالها ، وصفاء نفسها ، وأجمـــل مـــا فيـــها المحافظة على كرامتها .

ويحث الشاعر الفتاة العربية المسلمة على نبذ التبرج وتـــرك الاهتمـــام الزائد بالجمال الخارجي المزيف الخادع ، وذلك أن الجمال الخالد هو جمال النفوس وأن الزينة التي تسحر العيون و القلوب هي شرف الأخلاق ونبـــل الصفات . فأولي بالفتاة المسلمة أن يكون خمارها الحياء ولباسها العفة ، فإن المظاهر مصيرها إلي الزوال ، فعليها أن تتحلى بالأخلاق الطيبة ، وتتســـلح بالقيم النبيلة ، فإنها أجمل حلية تبقي مع الأيام .

أخيرا يطلب الشاعر من الفتاة المسلمة أن تراجع ضميرها مـــن أجـــل التحقق مما يدلي به من النصائح القيمة ، ويقول إن ضمير الإنسان هو خبير عن دخيل النفوس ، وأعرب عن بالغ أمله بأن الفتاة العاقلة لا ترد لأبيـــها مطلبا ولا تعصي له أمرا .

وهكذا استطاع شعراء العصر الحديث والمعاصر أن يوظفـــوا الشعـــر لغاياتهم ومراميهم الذاتية والاجتماعية والوطنية السامية .

* * *

[1] - المصدر السابق : ص ٤٠

Dhaka University Institutional Repository

الفصل الثالث

"أشعر الفنون الأدبية النثرية"

و فيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : المقامة
- المبحث الثانى : القصة
- المبحث الثالث : المسرحية

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الأول

المقامة

المقامة هى من أروع الفنون المستحدثة و أكثرها رواجاً فى الساحة الأدبية التى تستحق منا العناية الكافية و الدراسة اللازمة حتى نتمكن من الاطلاع على حقائقها اللغوية و الأدبية، و خصائصها الفنية و أهدافها الإنسانية.

تفيد الدراسات و الأبحاث اللغوية و الأدبية أن كلمة المقامة كانت فى مراحلها الأولى تستعمل بمعنيين، فتارة تستعمل بمعنى الجماعة من الناس و تارة بمعنى المسكن و المجلس.[١]

يقال : "و فيهم مقامة غلب الرقاب كأنهم جن" أى فيهم جماعة قوية الرقبة. و يقال أيضًا : "و فيهم مقامات حسن وجوهها" أى و فيهم مساكن ومجالس حسنة.

و قد استخدمت المقامة بمعنى المجلس فى قول الشاعر زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح المزنى (المتوفى ١٣ق هـ/٦٠٩م) :

و فيهم مقامات حسن وجوههم - و أندية ينتابها القول و الفعل[٢]

كما استخدمت الكلمة بمعنى المسكن و المجلس فى قوله سبحانه و تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : « و إذا تتلى عليهم آيتنا بينت قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقامًا و أحسن نديًا »[٣] صدق الله العظيم.

فقد قال الإمام محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤-٣١١هـ/٨٣٨-٩٢٣م) فى تفسير هذه الآية الكريمة ..... "و خير مقامًا و أحسن نديًا" أى أفضل مسكنًا و أحسن مجلسًا.[٤]

---

١ - المعلم بطرس البستانى : "محيط المحيط"، قاموس مطول للغة العربية - طبع مكتبة لبنان، بيروت عام ١٩٧٧م ص : ٧٦٤.

٢ - "ديوان زهير بن أبى سلمى" : نشر كرم البستانى، دار صادر، بيروت، لبنان ص : ٦٢.

٣ - المصحف الشريف - سورة مريم، الآية : ٧٣

٤ - "القرآن الكريم"، المفسر الميسر - مختصر تفسير الإمام محمد بن جرير الطبرى، نشرته إذاعة القرآن الكريم بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، طبع مطابع الشروق عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م - ص : ٣٤٨

Dhaka University Institutional Repository

ثم انطلقت الكلمة لتدل على الحديث و الخطبة أو القصة و الرواية التى تلقى فى المجلس. (١)

أما فى الاصطلاح فقد أطلقت "المقامة" على ما يحكى - بشكل فنّى - فى جلسة من الجلسات ..... و هذا الشكل الفنى يعتمد على الحكاية القصيرة التى يسودها حوار درامى، و تنطوى على مغامرات يرويها راو عن بطل صعلوك محتال ذكى حاضر البديهة قادر على خداع الجماهير و الظفر منها بما يريد ..... و قد يأخذ هذا البطل شكل الناقد الاجتماعى أو شكل المصلح السياسى أو شكل الفقيه اللغوى، الذى يعطى تمامًا طبيعة العلاقات السائدة فى عصره و مجتمعه ... (٢)

و قد اخترع أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمدانى (المتوفى ٣٩٨ هـ) هذا الفن الأدبى الرائع، على أن نفراً من الأدباء يقولون إن بديع الزمان اشتق فن المقامات من فن قصصى سابق. و يريد د. زكى بن عبد السلام بن مبارك (١٣٠٨ - ١٣٧١ هـ/١٨٩١ - ١٩٥٢م) أن يثبت أن مقامات بديع الزمان مشتقة من أحاديث أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ/ ٨٣٧ - ٩٣٣م) و كان ابن دريد راوية و عالمًا و لغويًا، و قد عنى برواية أحاديث عن الأعراب و أهل الحضر.

و رغم أن هناك شبهًا قويًا بين أحاديث ابن دريد و المقامات من حيث القصص و السجع إلا أنَّ هناك فَرقًا كبيراً بينهما أيضا من حيث الصناعة و العقدة، و وجود البطل فى المقامات، و فى بناء المقامة على الكدية و على الهزو من عقول الجماعات مع إظهار المقدرة فى فنون العلم و الأدب.

على ان هذا لايعنى ان بديع الزمان لم يطلع على احاديث ابن دريد أو على ما روى عن العرب من قصص أو أحاديث و أسمار، و لكن الفرق بين

---

١ - فؤاد إفرام البستانى، "منجد الطلاب"، طبع دار المشرق بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة عشرة، ص : ٦٢٣

٢ - د/محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد" ص :١٨٢

Dhaka University Institutional Repository

تلك الأحاديث و بين المقامات من حيث الغاية و الأسلوب كبير جداً. و مهما كان الأمر فإن بديع الزمان إنْ لم يكن مخترع فن المقامات، فإن مقاماته أقدم ما وصل إلينا من هذا الفن الأدبى الرائع.

و كان الهمدانى قد أسند حكايات مقاماته إلى عيسى بن هشام، و جعل أبا الفتح الإسكندرى بطلاً بها و هما شخصان خياليان، لا وجود لهما فى الكون. ثم حذى أبو القاسم محمد بن على بن محمد بن عثمان البصرى الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦هـ) حَذْوَ الهمدانى فأنشأ المقامة و أعطاها بُعداً قصصيًا و نفسيًا يضىء جوانب شخصية البطل من جهة، و يخلع على العمل روح القصة الحقيقية من جهة أخرى.

و جاء فى أخباره أن الحريرى كان جالسا فى مسجد بنى حرام بالبصرة، فدخل المسجدَ شيخُ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رثّ الحال، فصيح المقال فسأله الحاضرون : من أين الشيخُ؟ فقال من سروج، فاستخبروا عن كنيته فقال أبو زيد، فأنشأ الحريرى المقامة الحرامية، و أسند حكايتها الى الحارث بن همام، و جعل أبا زيد السروجى بطلاً لها. و اشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين بن خالد وزير الخليفة العباسى المنصور الراشد بالله بن جعفر ابن الفضل المسترشد بن المستظهر (٥٠٤-٥٣٢ هـ/ ١١١٠-١١٣٨م) فأعجب بها، و أمر الحريرىَّ بأن يضم إليها أمثالها فأتمها خمسين.[١]

و كان الحريرى قد تَنَاوَلَ فى مقاماته حكاياتٍ رائعةً مختلفة تتسم بجودة اللفظ و روعته، و حسن السبك و صياغته، و جمّلها بألوان بلاغية بأنواعها المختلفة من الجناس و الطباق و السجع، و زينها بطائفة من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية الشريفة. كما ذكر فيها عدداً من الصور الأدبية من الأشعار و الأمثال العربية و اللطائف الأدبية و الأحاجى النحوية و المواعظ المبكية، و الحكايات المضحكة.

---

١ - أحمد حسين الزيات، "تاريخ الأدب العربى". طبع مطبعة دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة و العشرون، ص : ٢٧٧

Dhaka University Institutional Repository

و للمقامات خصائص فنية كثيرة نستعرضها بشئ من التفصيل لأوجهها الآتية :

- المجلس : لكل مقامة مجلس واحد، تدور حوادث المقامة فيه و لاتنتقل منه إلا فيما شذ و ندر.
- الراوية : لكل مقامة راوية واحد ينقل الحديث عن المجلس الذى يحدث فيه، و أن الراوية فى كل المقامات شخص خيالى واحد لايتغير، و هو عيسى بن هشام عند بديع الزمان الهمدانى، و الحارث بن همام عند الحريرى.
- البطل : لكل المقامات بطل واحد أيضا، و هو شخص خيالى فى الأغلب، و يدعى أبو الفتح الإسكندرى عند الهمدانى، و أبو زيد السروجى عند الحريرى.

و أبرز ميزاته أنه واسع الحيلة، ذرب اللسان ذو المقدرة فى العلم و الدين و الأدب، و هو شاعر خطيب يتظاهر بالتقوى و يضمر المجون، و يتظاهر بالجد و يضمر الهزل، و هو يبدو غالبًا فى ثوب التاعس البائس إلا أنه فى الحقيقة طالب المنفعة.

و يجتمع الراوية مع البطل فى كل مقامة، و يكون البطل دائمًا متنكراً، و لايكشف أمره للراوية أو للحضور إلا إذا نالَ منهم عطية أو مالاً، و كثيراً ما يعلم أهلُ المجلس أن البطل قد خدعهم و سلب أموالهم، و لكنهم لايضمرون له شراً لأنه أطربهم أو أفادهم.

- الفكرة : إن الفكرة التى تدور حولها القصة المتضمنة فى المقامة تكون عادة فكرة طريفة أو جريئة، و لكنها لاتحث دائمًا على الأخلاق الطيبة، و قد لايكون دائما موفقة.
- الموضوع : موضوعات المقامات مختلفة منها أدبى، و منها فقهى، و منها فكاهى، و منها حماسى، و منها خمرى، أو مجونى..
- اسم المقامة : اسم المقامة مأخوذ عادة من اسم البلد الذى انعقد فيه مجلس المقامة، نحو المقامة الدمشقية، الرملية، المغربية، السمرقندية الكوفية، البغدادية و العراقية - أو من الفكرة التى تنطوى عليها المقامة مثل المقامة الدينارية، الشعرية، الخمرية .....

Dhaka University Institutional Repository

- الشخصية : إن الشخصية التى تبدو فى المقامة ليست شخصية البطل و لكنها شخصية المؤلف، و تتبنى هذه الشخصية على الدراسة الواسعة بكل شيء يطرقه المؤلف، فهو واسع الاطلاع على العلوم العربية، بصير بالفنون الأدبية من شعر و نثر و خطابة، حادّ الذهن قوى الملاحظة فى حل الألغاز، و كشف الشبهات و التغلب على المشكلات و اجتياز العقبات.

- الصناعة : المقامة هى فن تصنيع لفظى، ففيه إغراق فى المسحنات البديعية من السجع و الجناس و الطباق و المقابلة و الموازنة و فى سائر أوجه البلاغة حتى ما لا يدخل فى باب البلاغة على وجه الحصر كالخطبة التى تقرأ عرضًا و عكسًا فلا تتغير حروفها، و الخطبة المهملة .....

- الشعر : و بالرغم أن المقامة نثر فنّى و لكن قد يتخللها شعر قليل أو كثير من نظم صاحبها على لسان البطل أو من نظم بعض الشعراء.[1]

و بجانب ذلك توجد فيها طائفة من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية الشريفة، و الأمثال العربية و النكات الأدبية و المواعظ المؤثرة فى القلوب.

هذا، و ينبغى أن نقف هنا قليلاً لنلقى الضوء على إحدى المقامات الرائعة و ندرسها بشئ من التحليل، و يمكننا أن نذكر فى هذا الصدد "المقامة القريضية" و هى من أجمل مقامات بديع الزمان الهمدانى، و تدور هذه المقامة حول قصة لطيفة و رائعة و خلاصة هذه القصة ما يلى :

"إن أبا الفتح الإسكندرى كان قد سافر إلى إقليم جرجان، فاقتَنَى فوق بيتٍ أثثه، و نزله أرضًا استغلها للزراعة، و أموالاً صَرفها فى التجارة، و حانوتًا جعله مثابة أصحابه. و كان أنْ اجتمع الأصحاب ذات يوم فى الحانوت يتذاكرون الشعر و أهله، و إذا شاب قد جلس ينصت إنصات الفاهم، و لايتكلم كأنه جاهل. حتى إذا ما استحر الكلام، و احتدم الجدال قال للرفقة :

---

١ - د. عمر فاروخ "تاريخ الأدب العربى" المجلد الثانى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة - ١٩٩٢م، ص : ٤١٣ - ٤١٦

Dhaka University Institutional Repository

قد وفقتم و أجدتم، و لكن لو شئتُ لتكلمتُ فأفضتُ، و لجلوت الحق فى معرض بيان يُسع الصم، فقال له ابن هشام : ادن فحققْ ما تمنيتَ، فدنا و قال : سلونى أجبكم، و أسمعكم ما يعجبكم، فقالوا : ما تقول فى امرؤ القيس بن حجر الحارث الكندى فقال قولاً جلى عن وصفه، و أبان مزايا شعره. و كذلك قال قولاً مماثلاً حين سُئل عن زياد بن معاوية بن سعد النابغة الذبنانى، و زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رياح المزنى، و طرفة بن العبد ابن سفيان ابن سعد البكرى. ثم انتقلوا معه إلى الشاعرين الإسلاميين الفذين أبى حرزة جرير ابن عطية الخطفى التميمى، و أبى فراس همام بن غالب صعصة التميمى الدارمى الشهير بالفرزدق، فوصفهما وصفًا مجيداً، و جاء بالحكم على كليهما موازنًا. و لما سألوه رأيه فى المتقدمين من الشعراء و المتأخرين أدلى ببيان شاف كافٍ على ماتوخى من قصد و إبجاز، و أخيراً قالوا له : لو أريتنا مِنْ أشعارك و رَوَيْتَ لنا من أخبارك، فقال : خذوهما فى معرض واحد، و أنشد من شعره الأبيات التسعة التى تنبئ عن شاعريته و تقصى أمره، و إنْ حاد فيه عن حقيقته، فنال منهم العجب، كما نال منهم عطاء ثم انصرف عنهم مثنيًا، محاولاً التستر و الاختفاء، و لكن ابن هشام قد فكّر فيه كأنه يعرفه، حتى دلته عليه ثناياه التى كان يراها فى الإسكندرى حين فارقه صغيراً، و وافاه كبيراً، فنهض وراءه مسرعًا حتى أدركه فأمسك به، و قال : ألستَ أبا الفتح الاسكندرى ألم نَرَ بك فينا وليداً و لبثتَ فينا من عمرك سنين؟ ثم سأله عن الأسباب وراء إخفاء هويته و عدم الكشف عن حقيقته و اتخاذ علنه أداة يطلب بها لقمة العيش على الرغم من أصالة نسبه، فضحك و أنشده ثنيته :

وَيْحَكَ، هذا الزمان زور — فلايغرنك الغرور
لاتلتزم حالة و لكن — دُرْ لليالى كما تدور.[1]

لا شك أنّ هذه أولى وَ مِنْ أنجح مقامات بديع الزمان الهمدانى و أدقها وصفًا، التى يصور فيها الواقع الاجتماعى و النفسى فى المجتمع العبّاسى فى القرن الرابع الهجرى. فيصور لنا الاستجداء و التكدى الذى يعيشه الفقراء،

---

١ - الباعى بيومى و زملاؤه، "الأدب و النصوص"، صـ : ١٦٣ و ما يليها.

Dhaka University Institutional Repository

و كيفية تحول رجال العلم و الفن، و الأدب إلى مكديين يتخذون علمهم حرفة يرتزقون و يطلبون بها لقمة العيش على الرغم من أصالة نسبهم - بسبب الظلم الذى وقع عليهم.

و كان المؤلف قد بنى مقامته على قصة قصيرة، و لكنها لطيفة كل اللطافة و فكهة كل الفكاهة، تأخذ بمجامع القلوب فتهزّها من الضحك. فقد عرض المؤلف قصة المقامة و مشاهدها بطريقة التسلسل و التتابع، و جعل بذلك القارئ يرافق المقامة من البداية حتى النهاية.

هذا، و يجد المرء أن قصة هذه المقامة يسودها أسلوب حوار جميل بين الأشخاص و هم : أبو الفتح الاسكندرى و عيسى بن هشام و أهل الحى. و تقوم القصة هنا على الحوار المزدوج فى أكثر الأحيان و المنفرد فى بعض الأحيان. و يبدو أن أبا الفتح الاسكندرى يمثل شخصه الشاب و رجل العلم و الفن و الأدب، و هى شخصية بارزة فى هذه المقامة، بينما بدا عيسى ابن هشام الرجل المغلوب على أمره.

و قد استعمل الهمدانى اسلوب السجع الذى نجده قد شمل كل المقامة، فيقول : "استظهرتُ على الأيام بضياع أجلت فيها يَدُ العمارة، و أموال وقفتها على التجارة، و حانوت جعلته مثابة ....." كما استعمل فى مقامته بعض المحسنات البديعية مثل الجناس و الطباق و التشبيه، و الكناية .....

و اختتم الهمدانى هذه المقامة ببيتين من شعره يبين لنا فيهما ما يعانيه المجتمع العبّاسى من الزيف و النفاق فى سبيل لقمة العيش، و جَسَّدَ ذلك فى صورة مأساة بطل مقامته أبى الفتح الاسكندرى الذى يمثل فى المقامة المذكورة أصالة الحسب و النسب، و لكن المجتمع قَدْ دفعه إلى التغيير و التلون و الزيف، و هو بذلك يكشف لنا زيف المجتمع الذى يسير أهله فى هذا الطريق، و استطاع أن يصور كل ما يدور فى مجتمعه، و وَضَّحَ لنا أنَّ بطل مقامته هو المتعلم المتفوق يتحايل حتى يعيش بين المزيفين.

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الثانى

القصة

القصة فن من الفنون الأدبية الجليلة، يقصد به نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية، و هى مأخوذة عن كلمة قصّ، يقال : قَصَّ عليه الخبرَ أى حدّثه به. (١)

و فى الاصطلاح تطلق القصة على نوع معين من النثر الفنى، يقوم على حكاية تعتمد على السرد، و الوصف و صراع الشخصيات بما ينطوى عليه ذلك من تخلل عنصر الحوار لهذا الصراع الدائر بين الأشخاص و الأحداث. (٢)

و القصة هى أقل الأجناس الأدبية خضوعا للتقاليد الفنية، و قواعد الاتجاهات الأدبية، و قد ساعدها ذلك على التعبير الحر عن مضامين الحياة و الإنسان و إيقاع عصرها بلا قصور.

و كانت للقصة مكانةً مرفوعة فى الآداب الغربية منذ عصورها القديمة، أما فى الأدب العربى فلم تكن لها ذات شأن فى أنماطه القديمة. فلم يخطر العرب لهذا النوع من الفن الأدبى الجليل حتى أواخر الدولة الأموية.

و قد بدأ العرب يهتمون بالقصة حين قام الكاتب أبو محمد عبد الله بن المقفع بوضع مناهج النثر، و ترجم عدداً من القصص الفارسية بما فيها كليلة دمنة، و هزار أفسانة (ألف خرافة).

و قد تطور فن القصة منذ بداية العصر العباسى حيثُ أترفَ فيه العربُ، و حمل الأعاجمُ عن الخلفاء أعباء الخلافة، فأخذوا يقضون ليالهم بالمنادمة و المسامرة و يتنافس الندماء فى حفظ الأقاصيص و الأسمار، و يتسابق الأدباء إلى تأليف القصص.

و قد حدث تطور آخر فى القصة العربية عند ما توالت المصائب و المحن على العالم الإسلامى فى أواخر العصر العباسى، و بعده من عصف المتسللين

---

١ - فؤاد أفرام البستانى : "منجد الطلاب"، طبع دار المشرق، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة عشر - ص : ٥٩٣

٢ - د. محمد أحمد عزب. "عن اللغة و الأدب و النقد". ص : ١٧٧

Dhaka University Institutional Repository

من السلاجقة، و عُنْف المتغلبين من المغول فَتَقَدَّمَ القصَّاصُ و المحدثون بأنواع مختلفة من أقاصيص الشجعان و أخبار الجان، و أعمال السحرة، و منها قصص عنترة، و بنى هلال، و سيف بن ذى يزن، و الأميرة ذات الهمة و الظاهر بيبرس، و على الزيبق المصرى، و فيروز شاه و غيرها، و قد كتبت كل هذه القصص خلال القرون الخامس و السادس و السابع الهجرية.

و تَوَسَّعَتْ دوائر القصة العربية بنشوب الحروب الصليبية التى اقتضت تدوين القصص فى وصف الوغى و مدح البطولة، و تمجيد القادة، و تحريض الجنود و إثارة النفوس.[1]

هذا و أفادت الدراسات و الأبحاث القصصية أن كل هذه الألوان من القصص العربية القديمة لم تنهض برسالة اجتماعية أو إنسانية بمفهوم عام، و لم تكن من صميم الجنس الأدبى الذى نسميه "قصة فنية"، و لكنها تعد بشكل أو بآخر البدء البادى لهذا النثر الفنى فى الأدب العربى.

و قد تَطَوَّرَ فن القصص العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، فقد تطور من قصص شبيهة بالمقامات العربية كحديث عيسى بن هشام للكاتب المصرى إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم بن أحمد المويلحى (١٢٦٢-١٣٢٣ هـ/١٨٤٦-١٩٠٦م) إلى قصص اجتماعية مستفيدة من تقنية الفن القصصى العربى مثل "ليالى سطيح" للأديب و الشاعر المصرى محمد حافظ إبراهيم و هى مجموعة من القصص عن الأحداث الإجتماعية و السياسية التى وقعت فى أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين و التى تهدف إلى النقد الإجتماعى و السياسى، و تسجيل ما كان يدور فى المجتمع المصرى من الأمراض الإجتماعية، و عرض علاجها.

و منذ أوائل القرن العشرين احتذت القصةُ العربية الآدابَ الأوربية بعد أن تَحَرَّرَت كثيراً من أصولها و اقتربت من الشكل الفنى للقصة الحديثة.

هذا، و توجد هناك أنواع كثيرة من القصص الفنية بما فيها قصة الأطفال، القصة الخيالية، القصة الفلسفية، و القصة الرمزية و غيرها.

---

١ - د. أحمد حسن الزيات - "تاريخ الأدب العربى"، ص : ٤٥١ - ٤٥٢

Dhaka University Institutional Repository

و أما من ناحية الحجم فتوجد هناك ثلاثة أنواع من القصص الفنية و هى الأقصوصة، و القصة القصيرة، و الرواية.

- فالأقصوصة : هى قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبًا من حياة، لا كل جوانب هذه الحياة، فهى تقتصر على سرد حادثة أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته و مقوماته، على أن الموضوع مع قصره يجب أن يكون تامًا ناضجًا من وجهة التحليل و المعالجة.

- القصة : تتوسط بين الأقصوصة و الرواية، و فيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج فى الأولى، فلا بأس هنا بأن يطول الزمن، و تمتد الحوادث، و يتوالى تطورها فى شئ من التشابك.

- الرواية : و هى سرد نثرى طويل عادة، و فيها يعالج الكاتب موضوعا كاملاً أو أكثر، و ميدان الرواية فسيح أمام القاص يستطيع أن يكشف الستار عن حياة أبطاله، و يجلو الحوادث مهما تستغرق من الوقت.[1]

هذه هى الفكرة العامة عن الفن القصصى، و واضح أن المجال لايتسع هنا لدراسة تطبيقية تمثل كل تلك الأنواع و الأنماط. و من ثم فإنَّنَا نكتفى هنا بدراسة إحدى القصص الفنية، و هى قصة "دومة ودّ حامد" للكاتب السودانى المعاصر الشهير الطيب صالح.

من المعلوم أن قصة "دومة ودّ حامد" هى قصة قصيرة تقوم أساسا على الصراع بين الحياة الحضرية و العقائد الدينية لدى أهل قرية من القرى السودانية، و خلاصة هذه القصة ما يلى :

إن الحكومة السودانية قد صَمَّمَت على إقامة مكينة للمياه و محطة للباخرة مكان ضريح شيخ يعتقده أهل القرية بأنه هو ودّ حامد يرقد تحت شجرة دومة قديمة، فَرَفَضُوا هَدْمَ الضريحَ و إزالةَ الدومة أو إقامة مكينة المياه، و محطة الباخرة، مع ما سيجليه إليهم هذان المشروعان من الخير و النفع، فما رضوا بخطة الحكومة، و أصَرُّوا على بقاء الضريح و الدومة باعتباره رمز لعقائدهم التى يتمسكون بها فى إصرار و لو على حساب التقدم.

---

١ - د. محمد أحمد العزب - "عن اللغة و الأدب و النقد"، ص : ٣٩٠ - ٣٩١

Dhaka University Institutional Repository

و يلخص الموقف كله فى ختام هذه القصة فى الحوار الذى دار بين رجل كبير و الشاب المتعلم الذى جاء يزور القرية، و يتساءل عمَّا تَمَّ فى قصة مكينة المياه و محطة الباخرة فيقول :

"و عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى، لا مكنة ماء، و لا مشروع زراعة، و لا محطة باخرة، و بقيت لنا دومتنا .

و لما فرغ الرجل من كلامه، نظر إلىّ و على وجهه ابتسامة غامضة ترفرفُ على جَانِبَى فَمِهِ كضوء المصباح الخافت، فقلت له : و متى تقيمون مكينة الماء و المشروع الزراعى و محطة الباخرة؟ فأطرقَ برهة ثم أجابنى : "حين ينام الناس، فلا يرون الدومة فى أحلامهم ....."

فقلت له : هل تظن أن الدومة ستقطع يومًا فنظر إلىّ مليًا، و كأنّه يريد أن ينقل إلىّ خلال عينيه المتعبتين الباهتتين مَا لاَ تقوى على نقله الكلماتُ، فقال : لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة، ليس ثمة داع لإزالة الضريح، ... أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء يتسع للدومة، و الضريح، و مكنة الماء، و محطة الباخرة ..... ثم قال : أنتَ لا شكَّ راحلُ عنَّا غداً، فإذا وصلتَ إلى حيث تقصدُ فاذكرنا بالخير، و لاتقس فى حكمك علينا ."[1]

مما لا شك فيه أن هذه القصة من أنجح القصص القصيرة للكاتب السودانى الطيب صالح، و التى تصور لنا طبيعة إحدى القرى السودانية، و جوانب من الحياة العامة فى تلك القرية، و تُبَيِّنُ الصراع بين الحياة الحضرية و العقائد الدينية لدى أهل القرية. و نلاحظ أن الكاتب قد عرض حدث قصته عرضًا مباشراً دون مقدمة، ثم أن هذا الحدث لايجرى على شكلٍ واحدٍ، فهو يتخذ شكلاً هادءاً يسيراً حين يصور طبيعة الريف و مظاهره و عاداته، و تقاليده، و معتقداته، و يتخذ صورة هائلة عنيفة، عندما يركز على جوانب الصراع بين الحياة الجديدة و العقائد الدينية التى يتمسك بها اهل القرية.

و من ناحية أخرى اختتم الكاتب قصته بخاتمة جيدة حيث عرض فيها المغزى الأخير لكل ما سبق من الحكايات و يبدو أن حكاية هذه القصة تمتد

---

١ - الكاتب الطيب صالح : "القصص القصيرة" - بما فيها قصة دومة ودّ حامد - طبع دار المعارف السودانية الخرطوم، ص : ٤٩ - ٥٠

Dhaka University Institutional Repository

على قطاع الزمان، فالحكاية كأنها بدأت فى زمانٍ مًّا، لا فى الزمان المعين. و هذا يؤكد لنا الرغبة فى التعميم الذى يجعلنا جاهلين بالحدود التاريخية للأحداث حيث يزيل من الذهن كل الأبعاد الزمانية، و يجعل الحكاية كأنها حدثت فى الأزمنة المختلفة لا فى زمان معين.

و يجد المرء أن حوادث هذه القصة تدور بين شخصيتين، الشخصية الأولى يُمَثِّلُهَا رجل كبير من القرية و الشخصية الثانية يمثلها شاب يزور القرية، فشخصية الرجل الكبير هى شخصية الحنين الصوفى الجاد، تحنّ بروحها إلى الحياة الريفية و جميع مظاهرها. و تتمسك بكافة عاداتها، و تقاليدها و معتقداتها الدينية و الاجتماعية.

أما شخصية الشاب فهى شخصية المتعلم المثقف التى ترفض صراحة الأنماط القديمة السائدة فى القرية و تقاليدها، و معتقداتها الفاسدة، و ترمز حركاتها و تصرفاتها إلى أهمية العلم و المعرفة و الحياة الحضرية الجديدة، و انتشارها فى القرية، ما يحطم جميع الأوضاع الفاسدة شيئًا فشيئًا.

أما الأسلوب الذى اتبعه الطيب صالح فى هذه القصة فهو أسلوب يمتاز بالبساطة و الوضوح، لايعتمد على كثرة الكلام و التفصيلات، بل يعتمد على الإيجاز، و الاختصار الشديد فى العبارة. كما اهتم الكاتب اهتمامًا بالغًا برسم اللوحات المتقابلة التى يشحذ فيها الانفعالات و تؤثَّرُ الأحاسيس ليكشف ما تنطوى عليه الحياة من المفارقات.

و من العبارات التى ترسم اللوحات المتقابلة قول الرجل الكبير للشباب المتعلم :

" ..... هل أقص عليك يا بنى قصة ودّ حامد؟ تنام؟ أهل البندر لا ينامون إلا فى أخريات الليل ..... أما نحن فننام حين يسكن الطير ... و تستقر أوراق الشجر على حال و تضم الدجاج أجنحتها على صغارها ... نحن و حيواناتنا سواء بسواء، نصحوا حين تصحو، و ننام حين تنام ..."(١)

و أكثر الكاتب فى هذه القصة من استخدام الأساليب البلاغية، و العبارات المؤثرة فى أذهان الناس، و من هذا القبيل قوله :

---

١ - المصدر السابق، ص : ٤٥ - ٤٦

Dhaka University Institutional Repository

" ... ها هى ذى ... دومة ودّ حامد، انظر إليها ضاربة بعروقها فى الأرض، انظر إلى جزعها المكتنز الممتلىء كقامة المرأة البدنينة، و إلى الجريد فى أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة ..."(١)

كما لعب الكاتب بالسخرية فى قصته، و جعلها وسما لأسلوبه، و من سخريته قوله :

" ..... صحونا ذات يوم فإذا موظف ذو قبعة ضخمة، و رأس صغير، و معه جنديان ... سألنا هم ما الخبر؟ فقالوا إن الحكومة تريد أن تبنى محطة تقف عندها الباخرة تحت الدومة ... فقد أخَذْنَا بنواصيهم و ألقيناهم فى الماء ....."(٢)

و يمكننا أن نقول فى نهاية المطاف أن قصة "دومة ودّ حامد" قصة نافعة جليلة الفائدة للإنسانية. و كان الطيب صالح قد كتب هذه القصة ليوضح خلالها هذه الحقيقة أن فرض التجديد الذى يقلب الأوضاع القديمة الفاسدة دون تمهيد لايُقْبَلُ بسهولة فى المجتمع الريفى، بل يحارب فى عناد، إنما يَتِمُّ التجديد و تنتشر الحضارة تدريجيا، و تَتَدَاخَلُ شيئًا فشيئًا مع القديم بانتشار العلم و المعرفة، و وقوف الناس على ما يعود عليهم بالنفع و الخير فى ظلّ الحياة الحضرية الجديدة، فتَتَحَسَّنُ أحوالهم و حينئذٍ يهجرون تلك الأنماط و التقاليد الفاسدة طواعية.

---

٢ - المصدر السابق، ص : ٣٧

١ - المصدر السابق، ص : ٤٨

Dhaka University Institutional Repository

المبحث الثالث

المسرحيّة

المسرحية من أجمل الفنون الأدبية التى ظهرت فى حياة الإنسان منذ العصور الأولى، و هى كلمة يونانية تعنى الحركة. (١)

و تطلق كلمة المسرح أساسًا على المبنى الذى يضم خشبة التمثيل و قاعة لحضور المشاهدين و يمكن إطلاقها على ما يتصل بالفنون المسرحية. (٢)

أما فى الاصطلاح فتطلق كلمة المسرحية على نثر فنى جميل ينطوى على مجموعة من الأفعال المترابطة التى يستدعى بعضها بعضا، و تَتَخَلَّقُ تَخَلُّقًا عضويًا يفضى إلى نهاية مَّا، و تَتَجَسَّدُ هذه الأفعالُ فى شخوص يتحركون على المسرح و يطورون الحديث من خلال الحوار المتبادل، و تتطلب عقدة أو مجموعة من العقد التى يأخذ بعضها برقاب بعض، حتى تصل إلى ذروة التأزم، ثم الانفراج.

و قد نشأت المسرحية فى اليونان دينيةً و كانوا يتغنون فى أعياد آلهتهم على خشبة المسرح بألوان من الشعر الغنائى على هيئة كورس من الرجال يتوجهون بها إلى "ديونيسوس" إله الخصب و النماء و المرح. و قد تَطَوَّرَت المسرحية اليونانية بتطور حياة الأمة اليونانية عبر العصور و الأزمنة المختلفة.

أما الأدب العربى القديم فلم يعرف الشكل المسرحى كما هو الآن أو حتى قريبًا منه. و النماذج النثرية العربية التى اتكأت فى شكلها على الحوار الدرامى الجميل كالمقامات لم تفطن أساسًا إلى الصياغة المسرحية .....(٣)

هذا، و أثبتت الدراسات و الأبحاث الأدبية أن الأدب الشعبى قد عَرِفَ عَنَاصرَ تمثيل بدائية فيما سمى "خيالُ الظِّل" المعروفة باسم "البابات" مفردها "البابة" و يقدمها صاحبها من خلال عرائس الورق المقوى و الجلد المهيأ،

---

١ - د. محمد أحمد العزب : "عن اللغة و الأدب و النقد"، ص : ١٨٧

٢ - د. أحمد زكى بدوى : "معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية" إنجليزى-فرنسى-عربى، ص : ٤٢٤

٣ - د. محمد أحمد العزب عن اللغة و الأدب و النقد، ص : ١٨٨

Dhaka University Institutional Repository

يحركها تبعًا للحوار واضعًا خلفها مصباحًا لتنعكس صورها على الستارة حتى يراها النظارة من الجانب الآخر، ..... على أننا لانستطيع أن نقول بشكل قاطع أن المسرح العربى نشأ عن هذه الألوان الأدبية الشعبية.

و المؤكد أن المسرح الغربى هو الذى أعطى المسرح العربى إمكان النشؤ و التطور و الارتقاء. ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى أسس الإيطاليون مسرحًا كان بداية الانطلاق نحو هذا الفن ..... و قد سبق السوريون إلى المسرح العربى فى منتصف القرن التاسع عشر، و كان مارون بن إلياس ابن ميخائيل النقاش (١٢٣٢-١٢٧١هـ / ١٨١٧-١٨٥٥م) بثقافته الإيطالية و الفرنسية و التركية و العربية رائد هذا المسرح العربى، فأخذ المسرحُ العربى يَتَطَوَّرُ بأيدى فرقة التمثيل السورية. فقد رحلت جماعة من هذه الفرقة السورية برئاسة سليم بن خليل النقاش (المتو فى ١٨٨٤م) إلى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فمثلت الجماعة مسرحيات أكثرها مترجمة مع إضفاء الطابع الغنائى عليها ..... ثم أخذَ هذا اللون يشيع و ينهض على أرض استقلاله فى مؤلفات أديبنا المسرحى الكبير توفيق الحكيم (المولود ١٨٩٨م) و من تلاه من هذه الأجيال التى اقتحمت بالمسرح العربى أرض التجريب و الخَلقِ حتى استقر فى اتجاهات أساسية تَخَلَّقَتْ فى الواقع الفنى من خلال ممارستها فى كل من المسرح الحركى و المسرح الذهنى.[١]

و واضع أن أدباء العرب كَتَبُوا مسرحياتٍ كثيرةً فى موضوعات مختلفة فلايمكن لباحث أن يدرس جميعها فى فترة قصيرة و مِنْ ثَمَّ نكتفى هنا بدراسة موجزة لإحدى المسرحيات الشهيرة مثل "مسرحية أهل الكهف".[٢]

و هى أول مسرحية كتبها الأديب توفيق الحكيم بعد عودته من باريس عام ١٩٣٣م، و هى مسرحية أسطورية خيالية استمد الأديب أصولها من الأساطير و القصص الدينية، و عالج فيها مشكلة الصراع بين الإنسان و الزمان منذ فجر التاريخ.

---

١ - المصدر السابق، ص : ١٨٩ - ١٩٠

٢ - توفيق الحكيم : "مسرحية أهل الكهف"، دار مصر للطباعة القاهرة، عام-١٩٧٣م

Dhaka University Institutional Repository

و مجمل قصة هذه المسرحية أن جماعة من المسيحيين الأوائل فَرُّوا بدينهم من مذبحة الإمبراطورُ الرومانى الوثنى "دقلديانوس" الذى حكم الإمبراطورية خلال الفترة من ٢٤٩ حتى ٢٥١م.

و قد تضمنت الجماعة وزيرَى الإمبراطورية : "مرنوش و مشيلينا"، و الراعى : "يمليخا"، فآوى ثلاثتهم و معهم كلب الراعى : "قطمير" إلى كهف، و نَامُوا فيه ثلاثة قرون و بضع سنوات، و أثناء تلك الفترة تَغَيَّرت الحياة تغيراً تامًا بتغير الزمان، فانتهى حكم الإمبراطور "دقلديانوس"، و جاء بعده الإمبراطوريون الآخرون، ثُمَّ تَوَلَّى مقاليد أمور الإمبراطورية الإمبراطور المسيحى "تيدوسوس" الثانى الذى حكم الإمبراطورية فيما بين ٤٠٨-٤٨٠م.

و لَمَّا استيقظ هؤلاء الثلاثة ظَنُّوا أنهم لم يناموا إلا يومًا أو بعض يوم، و بعثوا الراعى ليأتيهم بالطعام و ما كاد يفارق الكهف حتى التقى بأحد الفرسان من مدينة طرطوس، و كان عائداً عن صيده، فطلب منه أن يبيعه شيئا مِمَّا معه من الصيد، و قدم له ما معه من النقود، فوجدها من عهد "دقلديانوس"، فظن أن الراعى عثر على كنز، و نظر إلى هيئته الغريبة فَوَلَّى هاربًا، و أخبر سلطات القصر عن أمره، و شاع فى المدينة أن هؤلاء الذين فروا من المذبحة فى عهد "دقلديانوس" قد عادوا إلى الحياة، ثُمَّ جاء الحراس و خلفهم جماهير الشعب ليذهبوا بهم إلى القصر، و فى أثناء ذلك أدركوا أنهم قد ناموا أكثر مما قدروا و لما وصلوا إلى القصر صار الناس يخاطبونهم بالقديسين.

و كانت هناك فتاة تسمى "بريسكا" تشبه كل الشبه ببريسكا ابنة دقلديانوس التى كانت خطيبة مشيلينا. و كان هَمُّ الراعى أن يذهب إلى غنمه، و هَمَّ "مرنوش" أن يعود إلى زوجته و ولده، و هَمَّ "مشيلينا" أن يلقى حبيبته.

ذهب الراعى "يمليخا" يبحث عن غنمه، فأدرك أن المدينة قد تغيرت، كما تغير أهلها، و أن كلبه "قطمير" قد صار عرضةً لكلاب المدينة المتغيرة تنبحه، إذ الحياةُ قد تغيرت تغيراً تامًا، و سمع ما قاله الناس من أنهم بعثوا بعد

Dhaka University Institutional Repository

ثلاثمائة عام، فعاد إلى القصر و أخبر صاحبَيه بأنّه عائد إلى الكهف، لأنه لم يجد هناك ما يربطه بهذه المدينة و بهؤلاء الناس.

بيد أنّ صاحِبَيْه لم يدركا هذه الحقيقة بعد، فخرج "مرنوش" يبحث عن بيته، فوجد مكانه سوقًا للسلاح. و سأل شيخا عن ولده فقال له : إنه مات فى سن الستين بعد أن أحرز نصراً عظيمًا للدولة فى ميدان القتال، و أراه أثر قبر متهدم كتبت عليه عبارة التكريم، فاستغرب بذلك مرنوش، كيف يموت ولده فى الستين و هو لايزال فى ريعان الشباب، و أخيراً أدرك الحقيقة، و عادَ إلى القصر، و أخبر صاحبه مشيلينا أنه عائد إلى الكهف، لأنه لم يجد ما يربطه بالناس و الحياة، و بقى مشيلينا ينتظر بريسكا، و ظنَّ أنها حبيبته مع أنها حفيدتها، و زاد فى شبهته أنها كانت تمسك فى يمينها نسخة الإنجيل التى كان قد أهداها لجدتها، و تلبس فى عنقها صليبًا ذهبيًا كان قد أهدا ها لجدتها، و صارت تحاوره لكى يفهم الفرق بينهما فى الزمان، و كان يحب جدتها، و هو يرى الشبه العجيب بينهما، حتى كأنها هى، لو لا ذكاءها الحاد و ثقافتها العالية، و أخيراً يفهم الحقيقة فيودعها، و يعود إلى الكهف.

و لكن الفتاة قد أحبته، فجاءت إلى الكهف بعد شهر، فالتحقت به و هو يلفظ أنفاسه الأخيرة، و صارحته بحبها له ، و أبدت عزمها على البقاء معه فى الكهف.

تفيد الدراسات و الأبحاث المسرحية أن مسرحية أهل الكهف أول عمل فنى هام يمثل الاتجاه الرمزى الفنى فى التأليف المسرحى لدى الأديب المسرحى الكبير توفيق الحكيم، حيث يعالج فيها الأديب مشكلة الصراع بين حياة الإنسان و الزمان : هل الحياة حلم أو يقظة ؟ و هل الزمان حقيقة أم شئ اخترعه الإنسان؟ و المسرحية تترك الذهن فى مفرق الطرق بين حلم الحياة و يقظتها، و بين حقيقة الزمان و وهمته،

و قد تَجَلَّتْ فى هذه المسرحية موهبةُ توفيق الحكيم بصورة جلية، فقد عرض الحكيم أحداث المسرحية و مشاهدها بطريقة التسلسل و التتابع، و صَوَّرَ شخوصها بريشة الحياة المتدفقة لا بريشة الذهن المجرد و جعلها أقرب

Dhaka University Institutional Repository

إلى الطبيعة إلى حدّ ما، كأنها معروفة النظائر فى العالم الواقعى، و بذلك تبدو المسروحية كأنّها صورة حية واقعية تَتَحَرَّكُ من حدث إلى حدث، من مشهد إلى آخر، بحيث تأخذ بمجامع قلوب المشاهدين، و تجعلهم يُرَافِقُون المسرحية من البداية إلى النهاية، فيتوقون إلى فهم الأفكار التى تدور حولها المسرحية و المشكلات التى أثيرت فيها، و يبدون الرغبة فى إيجاد حل أو حلول لها.

و أن الأسلوب الفنى الذى اعتمده توفيق الحكيم فى هذه المسرحية هو أسلوب الفصاحة و البساطة، و يبدو هذا الأسلوب سمة غالبة على المسرحية فى عباراتها، و شواهدها، و حسن بدايتها و نهايتها.

هذا، و قد أجاد المؤلف فى الحوار كل الإجادة فلم يقم حوار مسرحيته على صورة سؤال و جواب بين شخص و آخر، مِمَّا يَدْعُو إلى الملل، و إنما قام كذلك على الحركة و الواقعية كما يقع الحوار فى الحياة بين الناس، بحيث يأسر المتفرجين إلى المتابعة اليقظة للأشخاص الذين يجرون الحوار بينهم ويتحركون أمامهم على خشبة المسرح.

و مع كل هذا، فإن فكرة المسرحية و هى : "الصراع بين حياة الانسان و الزمان" أمر يصعب على عامة المشاهدين استيعابه و ربما كانت هذه المسرحية أصلح للقراءة منها للتمثيل.

و حقًا أن هذه المسرحية ممتازة و رائعة، و كان الأديب توفيق الحكيم قد كتب هذه المسرحية ليوضح لنا خلال أحداثها هذه الحقيقة أن الحياة بطبيعتها تتغير و تتجدد بتغير الزمان و تجدّده، و أن هذا التغيير أو التجديد الذى يقلب الأوضاع القديمة يعد من الأمور التى يصعب على عامة الناس قبولها بسهولة. و لذلك ينبغى أن يَتَدَاخَلُ هذا التغيير أو التجديد تدريجيًا شيئا فشيئا مع الأوضاع القديمة، فيتغلب عليها بانتشار العلم و المعرفة، و وقوف الناس على ما يعود عليهم بالنفع و الخير فى ظل الحياة الجديدة. و إلا ستصيب هذه الحياة الجديدة للإنسانية من بؤس و شقاء.

Dhaka University Institutional Repository

الفصل الرابع

"الأدب و وظيفته الإنسانية العامة"

Dhaka University Institutional Repository

الفصل الرابع

الأدب ووظيفته الإنسانية العامة

تفيد الدراسات والأبحاث الأدبية أن فكرة التزام الأديب بمسئوليته تجاه الحياة والمجتمع والإنسان ، قد نال ترحيبا كبيرا من الأدباء والشعراء منذ ظهور الاتجاه الوجودي إثر الحرب العالمية الثانية .

وكان الاتجاه الوجودي قد جاء بفكرة جديدة تتمثل في " أن الوجود سابق على الماهية ... فليس هناك مثال سابق على الوجود ، وإنما هناك وجود فحسب ، وتبدأ ماهية الإنسان في التشكل منذ لحظة وعيه بوجوده ، أي منذ حضوره الفعلي في العالم ، لأنه يمارس- منذ لحظة الوعي - رحلته إلى خلق صورته بنفسه بعد أن يوجد ماهيته ، فهو مسئول إذن عن هذه الماهية ، أي أنه " ملتزم ." [1]

ومن هذه الفكرة ينطلق الأساس الفني للأدب الملتزم الذي يستهدف إلى شرح العالم من خلال مواقف حرة تضع الإنسان في محور دراسته ، وتجعل الإنسانية غايته الأسمى .

ويُعد العالم والناقد الفرنسي الشهير جان بول سارتر من أهم دعاة هذه الفكرة الأدبية ... فنراه ينتقد بشدة أولئك الذين لا يلتزمون بمسئولياتهم في آدابهم إزاء الحياة والمجتمع والإنسان ، فيشبههم بحراس المقابر ،ويشبه كتبهم بالأموات ، والمكتبة التي تحتوى على تلك الكتب هي عامرات بأموات . [2]

---

[1] – د. محمد أحمد العزب " عن اللغة والأدب والنقد " ص ٣٣٥ .

[2] – د. رجاء عيد " فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق " مطبعة دار الثقافة ، القاهرة ص ٢٤ .

Dhaka University Institutional Repository

وقد تطورت فكرة الالتزام هذه تطورا كبيرا في الآونة الأخيرة بحيث أصبحت فكرة أدبية إنسانية عامة ، وصارت تعنى التزام الأديب الشاعر ليس بقضايا الإنسان والإنسانية في محيطه أو مجتمعه الصغير فحسب ، بل تعني كذلك التزامهما بالقضايا الإنسانية بأجمعها في جميع أنحاء العالم .

وقد نادى العديد من العلماء والأدباء العرب بهذه الفكرة الأدبية الهامة ، فنرى مثلا محمد بن أحمد بن إسماعيل تيمور المصري (١٣١٠ - ١٣٣٩ هـ/ ١٨٩٢-١٩٢١م) يقول في كتابه " الأدب الهادف : " ... الأديب يجب أن يعتقد بأنه جزء حي من مجتمعه الخاص ، وأنه عنصر أساسي في المجتمع الإنساني العام ، وأن هذا الجزء وذلك العنصر له وظيفة طبيعية كوظائف الأعضاء في الجسم السوي ... والوظيفة الطبيعية للأديب --- هى تزكية المعاني الرفيعة للحق والخير والجمال ....) [١]

وتناول العالم والناقد العربى المعاصر البارز (زكى نجيب محفوظ) في كتابه " فلسفة وفن " مقالة بعنوان " التوتر الدولي ومهمة الأديب " ويقول فيها " إن الأديب الحق سواء كان من أدباء الخيال المبدع أو من أصحاب الدعوات الفكرية - إنما يقوم برسالته الإنسانية حين يجعل " الإنسان محور دراسته ، لا هذا الفرد أو ذاك ، ولا هذه الأمة أو تلك ، بل يجعل الإنسان هدفه الأسمى --- وبقلم الكاتب الموهوب يبرز جوهر الإنسان ، فيلتقى الناس على صفحاته إخوانا من كل لون وجنس ، فهذا طاغور الهند يغنى بوجدان هندي فيطرب لغنائه أهل الأرض . جميعا ... وتكتب هاريت ستوى (HAREETTE STOWE) وهى أمريكية بيضاء - عن زنجي فتصوره في طيبة قلبه تصويرا يثير حب الإنسان للإنسان ، فقلوب الناس و نفوسهم لا تتلون بلون البشرة التي تكسوها فليس على الأديب إلا أن يمس بقلمه

---

[١] - محمد تيمور " الأدب الهادف " المطبعة النموذجية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ ص ١٨١-١٨٢ .

Dhaka University Institutional Repository

صميم الإنسان وهو بذلك وحده كفيل أن يؤاخى بين الناس أجمعين ... وما الكاتب الملهم إلا نبي صغير أوحى إليه برسالته فإن أخلص التعبير عن رسالته تلك ، وهى رسالة تسعى دوما إلى خلاص الإنسان مما هو محيط به من شر ونقص ، أقول إن الكاتب إذا أخلص فله بعد ذلك أن يصور القيم الإنسانية العليا كما تشاء له فطرته وبصيرته ---- " [1] وخير ما يمثل الوظيفة الفنية الإنسانية قصيدة الشاعر حافظ إبراهيم في وصف زلزال حل بمدينة (مسينا) الإيطالية سنة ١٩٠٨ م :

نبئنانى إن كنتما تعلمـــان ما دهى الكون أيها الفرقدان
غليان في الأرض نفس عنه ثوران في البحر والبر كان
ما لمسين عوجلت في صباها دعاها من الردى داعيان
خسفت ثم أغرقت ثم بيدت قضى الأمر كله في ثوان
بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
رب طفل قدساخ في باطن الأر ض ينادى أمي أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشفى على الجمـ ر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وَان
لهف نفسي وألف لهف عليها من أكف كانت قناع الزمان
ملهمات من دقة الصنع مالا يلهم الشعر من دقيق المعاني
فسلام عليك يوم توليـ ت بما فيك من مغان حسن
وسلام على امرئ جادَ بالدمـ ع وثنَّى بالأصفر الرنانِ [2]

---

[1] – زكى نجيب محفوظ " فلسفة وفن " مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٠٧–٤١١ .

[2] – محمد صلاح الدين بن موسى وزملاؤه " الأدب والنصوص والبلاغة والنقد " ص ٢٥

Dhaka University Institutional Repository

– أول ما يميز هذه القصيدة طابعها الإنساني ، ونـــــرى في مســـتهلها مناجاة روحية للفرقدين تكشف عن عظـــم الألم الـــذي وقـــع في نفـــس الشاعـــر ، ثم يلخص الشاعر المأساة ويشخصها بكلمات قليلـــــة موحيـــة قائـــلا : " غليان في الأرض نفس عنه ثوران في البحر والبركان "

وبعد هذا الإجمال في وصف الكارثة يعود الشاعر فيتساءل تســـــاؤل العارف عما دهى المدينة ،وذلك ليلفت نظر القارئ ويحمله على التـــــأثر معه . ثم يلخص الشاعر الكارثة من جديد بكلمات مؤثرة : " خســـــفت ثم أغرقت ثم بيدت قضى الأمر كله في ثوان " وتمتاز هذه الكلمات بحســـن اختيارها وبحركاتها العنيفة التي تعطى الصورة السريعة التي أرادها الشـــاعر والتى يريد أن يصور بها سرعة حدوث الكارثة ، ونرى الإيجاز هنا من نوع إيجاز القرآن الكريم في وصف حادثة الطوفان ونجاة سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيـــم : " وقيل يا أرض ابلعـــــي ماءك ويا سماء أقلعي ، غيض الماء وقضي الأمر واستوت علـــى الجـــودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . " [1]

والكلمات مليئة بالحركة والصور الموحية الأخاذة ، وحافظ إبراهيم في رثائه لهذه المدينة المنكوبة إنساني لا إقليمي ، وهو يصور الألم الإنساني بأجلى صوره ، وأدق معانيه ، ويصدر آهات عميقة يعبر بها عن عاطفة صادقة تؤثر في نفوسنا تأثيرا عميقا . وما أشد تأثير هذه الصورة الصوتية الحركية الباكية وذلك النداء المتقطع بكلمات موحية قوية التعبير ، وذلك حين يقول :

رب قد ساخ في باطـــــن الأر ض ينادي أمي أبى أدركاني

---

[1] – الآية : ٤٤ من سورة هود

Dhaka University Institutional Repository

وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــ ر تعانى من حره ما تعـــانى

فمنظر الفتاة وهى تشوى على الجمر يولد في نفس القـــارئ حســـرة وكمدا ، يتركه يذرف الدموع مشاركة وجدانية لهذه الفتاة في مأســـاتها ... ونلاحظ أن حافظا قد اختار فتاة هيفاء جميلة ... ليكون وصفه أكثر إثـــارة لعواطف القارئ ، لما للجمال والصبا من تأثير في النفوس والمشاعر ... كما تلاحظ في قوله (تعانى من حره ما تعانى) إيجازا وإبهاما يتركان للخيال مجالا كثير الإيحاء ، مما يضفي على الصورة طابع الحيوية ، ويثير في نفوس القارئ كوامن الحزن والعطف والمشاركة .

ويمضى الشاعر يرسم لنا المزيد من الصور المتحركة الباكية البائســـة ، التي تشيع الحزن وتشعرنا بأن الأب أصبح مجنونا أمام المصيبة ، ورحيـــما لا يبالي بالموت في سبيل إنقاذ بنيه . وهنا يحلق الشاعر في سماء من الفن صافية مضيئة برسم لوحة بديعة ، يبث من خلالها ما يشعـــر بـــه مـــن عواطـــف وأحاسيس تجاه هذه المأساة الإنسانية .

وأخيرا يصرح الشاعر بحزنه تصريح من أذهلته المصيبة فبكى علـــى (مسينا) مدينة الفن والتراث وعلى أهلها ، ويتصور هول الفاجعة وما نجم عنها من اندثار لتلك المعالم الفنية التي في المدينة المنكوبة . ويداعب عواطف قرائه تجاه هذه الحادثة الأليمة باعثا تحية قلبية لمن ذرفت عيناه الدموع ولمن مد يد المساعدة السخية لضحايا هذا الزلزال الفاجع .

وهكذا نرى العاطفة في هذه القصيدة إنسانية شاملة ، لا يصـــور بهـــا الشاعر عواطفه فقط ، بل عواطف الناس جميعا ، فكأن الإنسانية تتألم بقلبه وتبكى بعينيه .

تفيد الدراسات والأبحاث الأدبية أن النزعة الإنسانية في الشعر العـــربي قد صاحبت حركة التجديد في القصيدة العربية ، ولذلك لم يكن غريبـــا أن

Dhaka University Institutional Repository

يقترن ظهور هذه النزعة بظهور طلائع شعراء المهجر المجددين الذين يعدون بحق أول من حملوا هذا النوع من الشعر وأذاعوه بين الناس . وكانوا يمثلون هذا الاتجاه الإنساني نظرا إلي إحساسهم بالغربة وحاجاتهم إلى التآخي بينهم وبين الناس من مختلف الأجناس والأديان والأوطان ، واستجابة لتيار العصر الجارف الذي يبعث على التحام الإنسان بالإنسان في الآمال والآلام .

وخير ما يمثل الإحساس الإنساني الشامل قصيدة " المواكب " للشاعر جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١م) وهي قصيدة طويلة جعلها الشاعر تشبه بحوار بين اثنين ، يتحدث أحدهما عن قضية من قضايا الحياة فيجيبه الآخر عنها . ويقال إن الحوار جرى بين شيخ جاء من المدينة حنكته التجارب فهو متشائم لمعرفته بأسرار الحياة ، وفتى غض الأهاب جاء من الغاب معه ناي وهو يغني ويبتسم للحياة ، ثم يأخذ الشيخ في إبداء نظراته في الحياة كما يراها طرفه المتشائم بخبراته وتجاربه ، فيرد عليه الفتى شارحا سر الحياة كما تراها عيناه الفرحة المتفائلة .

وتشمل هذه القصيدة وجهات نظر جبران في الخير والشر والحياة والدين والعدل والحق ... كما تمثلها الإنسانية وكما تمارسها ، ودعوته إلى البساطة التي يعلمها الإنسانية الغاب والطبيعة .[١]

ونلاحظ أن الشاعر يتحدث في قصيدته الشهيرة عن الخير والشر ، فيقول : إن الناس لا يفعلون الخير إلا مضطرين ، أما الشر فهو الطبيعة الملازمة لهم حتى بعد وفاتهم ، وأن أكثر الناس آلات في يد الدهر يحركها كيف يشاء ثم يكسرها القدر ، ولهذا لا ينبغي أن يقال هذا عالم عظيم وهذا سيد وقور ، فليس لأحد فضل فيما أدرك من مجد ، ولا أفضل الناس الذين

---

١ – على محمد حسين العماري " التاريخ الأدبي "ص ١٦٧ .

Dhaka University Institutional Repository

ينقادون للمقادير يسيرون حيث أرادت لهم أن يسيروا ، ولا بد لهم من السير ، فإن من يتوقف يهلك .

ويأتي الصوت الآخر من الغاب ، فينفى أن يكون فى الغاب سيد ومسود وراع وقطيع ، فالكل متساوون ، لا فرق بين الشتاء والربيع .

هذا في الغاب ، أما في حياة الناس بعيدا عن الطبيعة فالسيطرة للأقوى الذي يستعبد الناس وهم يخضعون له ، ويسيرون حيث سار ، ويطلب الشاعر الناي والغناء ، فإن الغناء يرعى العقول وصوته يبقى حين يفنى العزيز والذليل ، فيقول :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا ينفى وإن قُبروا
الخير في الناس آلات تحركها أصابع الدهر يوما ثم ينكسر
ليس في الغابات راع لا ، ولا القطيع
فالشتاء يمشى ولكن ولا يجاريه الربيع

* * *

أعطني الناي وغن فالغناء يرعى العقول
أنين الناي أبقى من مجيد وذليل [1]

كما يتحدث الشاعر عن الحياة ، ويقول إنها نوم يطلبه من يأتمر بإرادتهم ، إن سر النفس وجوهرها يستره الحزن ، فإن لم يكن حجبته أكدار الحياة وأن الذي يرتفع فوق حاجة النفس من رغد العيش وكدرته يسمو إلى حيث يجاور خالق السماوات والأرض ، ذلك الإله الذي حارت في كنهه الأفكار .

---

[1] – المصدر السابق ص ١٦٨ .

Dhaka University Institutional Repository

ويأتي صوت الغاب فينفى أن يكون فيه أحزان وهموم ، وإنمـــا هنـــاك الصفاء والهناء والسرور ، ولذلك تظهر النفس على حقيقتها ، كما تبـــدو الحياة صافية يهب النسيم ولا تصحبه العواطف ، ثم يطلب الناي والغناء ، فهما يمحوان ما يحل بالنفوس من آلام ومحن ، وصوت الناي يبقى بعد فنـــاء الزمن نفسه ، فيقول :

وما الحياة سوى نوم تـــــراوده أحلام من بمراد النفس يأتمر
والسر في النفس حزن النفس يستره فإن تولى فبالأفراح يستتـــر
ليس في الغابات حزن لا ، ولا فيها الهموم
فإذا هب نسيـــــم لم تجئ معه السموم ... [1]

ويواصل الفيلسوف المجرب حديثه عن الحياة فيقول : إن أكثر النـــاس يرفضون الحياة السهلة الوادعة التي تأتيهم عفوا فيتجاهلون نهـــر الحيـــاة المتدفق العذب الفطري ويحولونه إلى أكواب من الوهم يسكرون من مجـــرد الطواف بها ، ويسرون إذا شربوا منها ، كأنهم عبيد لأهوائهم ، مفطـــورن على أن تخدعهم الحياة ، ولذلك فكل منهم يعربد : المصلى بصلاته ، والغنى بثروته ، وثالث يسكر الأحلام فالأرض خمارة صاحبها الدهر ، وعشاقها هم الذين يسكرون فيها ، ومن العجب أن نرى بينهم (صاحيا) وكيف يعيش هذا في خمارة ، فكل من فيها سكران ، وهل يظهر القمر في ظل غيم ممطـــر يحجب ما وراءه ؟

يأتي صوت الغاب ، فينفى أن يكون فيه سكران من خيال أو من خمر ، فسواقى فى الغاب ليس فيها إلا ماء السحب الماء الخالص الطبيعي ، النازل

---

[1] – المصدر السابق ص ١٦٨ وما بعدها .

Dhaka University Institutional Repository

من السماء . ويقول الشاعر إن الناس يرضعون ثدي الخـــداع المخـــدر ، ويظلون كذلك حتى تدركهم الشيخوخة ، فينتهون ويفطمون مـــن هـــذا الرضاع ، ثم يطلب الشاعر الناي والغناء ، فالغناء خير شراب ، وصـــوت الناي يبقي بعد أن تفنى الهضاب . فيقول :

وقل في الأرض من يرض الحياة كما تأتيه عفوا ولم يحكم به الضجرُ
لذا قد حولوا نهر الحيـــــاة إلى أكواب وهم إذا طافوا بها خدروا
ليس في الغابات ســـكر من خيال أو مدام
فالسواقى ليس فيها غير إكسير الغمام ... [1]

ويتكلم الفيلسوف عن الدين فيقول : إنه حقل يزرعه الذين ينتفعون منه ، فمنهم من يأمل نعيم الخلد ، ومنهم من يخاف عذاب السعير ، والناس لولا خوف العقاب ما عبدوا الله عز وجل ، ولولا رجاء الثواب لكفروا ، ومـــا أشبه الدين عندهم بمتجر يربحون منه إن عملوا وجـــدوا ، ويخســـرون إن كسلوا وأهملوا .

ويأتي صوت الغاب فينفى أن يكون فيه دين صريح أو كفـــر قبيـــح ، فالبلابل تغرد بصوت حلو جميل ، ولكنها لا تدعى أنه الغناء الصحيـــح ، فيقول :

والدين في الناس حقل ليس يزرعه غير الألى لهم في زرعه وطـــر
ومن آمل بنعيم الخلد مبتشـــــر ومن جهول يخاف النار تستعر
ليس في الغابات دين لا ، ولا الكفر الصريح
فإذا البلبل غـــــنى لم يقل هذا الصحيـــح [2]

---

[1] – المصدر السابق : ص ١٦٩ .

[2] – المصدر السابق : ١٧٠

Dhaka University Institutional Repository

ويتحدث الشاعر عن الحب ، فيقول : إنه أشكال وأكثرها لا قيمة لها ، كالعشب ليس فيه زهر يروق ويعجب ولا ثمر يغنى وينفع ، وأكثر صنوف الحب مثل الخمر يلذ قليلها ، وفي كثيرها الخطر لمن اعتادها ، وقيمة الحب في العفة والتسامي به عن شهوات الجسد . ويأتي الصوت الآخر من الغاب فينفى أن يكون في الطبيعة مستهتر يدعى الحب النبيل ، وهو خاضع لأهوائه وملذاته ، ويقول إن حب الناس داء كامن بين اللحم والعظام ، وأن هذا الداء يختفي إذا ولى الشباب ، فيقول :

والحب في الناس أشكال وأكثرها كا لعشب في الحقل لا زهر و لا ثمر
ليس في الغاب خليع يدعى نبل الغرام
إن حب الناس داء بين لحم وعظام
فإذا ولى الشباب يختفي ذاك السقاء [1]

ويتحدث الشاعر كذلك عن السعادة ، فيقول إنها ليست إلا شبحا يأمل الناس في الحصول عليه ، وسعادة الناس ليست في وصولهم إلى ما يريدون ، ولكنهم في تشوقهم إليه فكلما كان أصعب منالا كان الشوق إليه أشد وأعظم .

ويأتي صوت الغاب فينفى أن يكون في الطبيعة رجاء أو ملل و يعجب أن يطلب الغاب شيئا من ذلك وفيه كل شيء ، والغاب نفسه أمل فكيف يسعى فيه إلى أمل ؟ ثم يطلب الناي والغناء ، فالغناء نار نفعها عظيم ، نور يهدي السالكين ، وهو لا يمل لأنه موضع شوق الإنسان دائما ، فلا يدنو الفطور فيقول :

---

[1] – المصدر السابق :ص١٧٠ و ما بعدها

Dhaka University Institutional Repository

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى فإن صار جسما ملة البشر لم
يسعد الناس إلا في تشوقهـــم إلى المنيع فإن صاروابه فتـــــروا
ليس في الغاب رجاء لا ، ولا فيه الملل
كيف يرجو الغاب جزءا وعلى الكل حصل [1]

يتضح لنا خلال دراستنا لهذه القصيدة أنها تمثل النزعة الإنسانية علـــى نوعيها المتشائم والمتفائل . فتمثل النزعة الإنسانية المتشائمة في أمور الحياة الإنسانية المختلفة بما فيها :

– إن الإنسان مطبوع على الشر وأنه لا يفعل الخير إلا مضطرا ، وأنـــه يبقى شريرا حتى بعد أن يفارق هذه الحياة ، رغم أن هذه الرؤية جاءت على قصد المبالغة من الشاعر .

– إن الإنسان أداة في يد القدر ، وأنه خاضع في كل شـــيء إلى المقـــادير تصرفه كيف يشاء ، وأن حياة الإنسان وهم وخداع ، وأن كـــل إنســـان مخمور بشيء يفعله ، وأن الدين تجارة عند المتدينين ، فهم يرجون الثـــواب ويخافون من العقاب ، وهذا ما يحملهم على التدين .

إن الحب الحقيقي قليل في الناس ، و أن أكثر ألوان الحـــب زيـــف وباطل ، وأن قيمة الحب في السمو به عن أو ضار الجسد .أمـــا الســـعادة فحقيقتها فى الشوق إلى ما لا يدرك الإنسان وليست في وصوله إلى ما يريده

أما النزعة الإنسانية المتفائلة فتتمثل في الرجوع إلى الطبيعة ، إلى الفطرة الصافية ، فليس فيها إلا الهناءة والسعادة والخير ، وهى خالية من التعقيدات التي تعكر على الناس حياتهم ، وخالية من التناقض بين الظاهر والبـــاطن ، فباطنها كظاهرها خير وجمال ونعيم . كما تتمثل نزعة جـــيران الإنســـانية

---

[1] – المصدر السابق نفسه : ١٧١

Dhaka University Institutional Repository

المتفائلة في إيمانه الشديد بالموسيقي ، فهي سر الحياة الجميلة والخالدة الـــتي لا تفنى ولو فني الزمان والحياة .

ومن روائع ما نظم في هذا الباب قصيدة الشاعر العربي اللبناني المعاصر إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ – ١٩٥٧ م) والتي نظمها الشاعر بعنوان " أنا " وفيها يقول :

حر ومذهب كل حر مذهـــــبي ما كنت بالغاوي ولا المتعصب
إني لأغضب للكريم ينوشـــــه من دونه وألوم من لا يغضب
يأبى الفؤادي أن يميـــل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب
لي أن أرد مساءة بمســـــاءة لو أنني أرضي ببرق خلـــب
إني إذا نزل البلاء بصـــاحبي دفعت عنه بناجذي وبمخلبي
وشددت ساعده الضعيف بمساعدي وسترت منكبه العري بمنكبي
وأرى مساوئـــه كأني لا أرى وأرى محاسنه وإن لم تكتـــب
وألوم نفسي قبله إن أخطـأت وإذا أساء إلى لم أتعتـــب
مقترب من صاحـبي فإذا مشت في عطفه الغلواء لم أتقـــرب
أنا من ضميري ساكـــن في معقل أنا من خلالي سائر في موكب
إذا رآني ذو الغباوة دونـــه فكما يرى في الماء ظل الكوكب [1]

تعتبر هذه القصيدة نموذجا صادقا لأخلص التعبير عن الرسـالة الأدبيـة الإنسانية العامة في الشعر العربي ، وكان الشاعر(إيليا أبو ماضي) قد كتب هذه الرسالة السامية – وهو في أمريكا الشمالية الـتي تسـودها التفرقـة العنصرية فقدم خلالها مجموعة من القيم الإنسانية العليا لكافة البشريـة في

[1] –المصدر السابق : ص ٩٣ .

Dhaka University Institutional Repository

أنحاء العالم ، بغض النظر عن لون وجنس بهدف التخلص من التفرقة العنصرية وغيرها من كل الآفات الاجتماعية الخطيرة ، حتى يعم الأمن والرخاء في المجتمع الإنساني العام ، وتتحقق الرفاهة والسعادة للإنسانية عامة .

وقد أدى الشاعر تلك الوظيفة الأدبية الإنسانية العالمية من خلال قيامه برسم السلوك المثالي للرجل الحر المهذب الذي ينبغي أن تسلكه الإنسانية في جميع أنحاء العالم ، لأنه ليس رجلا ضالا فاسد الاعتقاد ، وليس متعصبا ، لا يميل إلى الهوى ولا يقدم على نصرة الباطل ، كما لا يرضى أن يعيب الأعراف والكرماء ، وهو يحب المهذبين مهما كان بينه و بينهم من اختلاف في الرأي ، حتى لا يكره غيره المهذبين ، بل يشعر الرحمة لهم ، ثم هو لا يؤذي أحدا ، ولا يحب الأذية ، ولا يرد على الإساءة بالإساءة لأن هذا الرد يكسب نصرا زائفا .

والرجل المثالي الذي يصوره أبو ماضي هو الرجل الذي لا تخدعه الظواهر ، فكثيرا ما يكتم وراء الظاهر من أمور خادعة ، فهو لا يتغير بالثياب ، فكثيرا ما تكون وراء الثياب الفاخر أخلاق فاسدة ، ولا يخدع بالسن فربما كان الرجل متقدما في السن ، وظهر الشيب في رأسه ، ولكن له عقل صبي طائش .

والرجل المثالي الذي يطلبه الشاعر رجل يحافظ على الصديق ، يدافع عنه بكل ما يملك من قوة ويشد أزره ، ويستر عيبه ، ويخفي مساوئه ، وتكبر في عينه محاسنه ، ولا يسئ إليه ، ولا يعاتبه إذا أساء ، ولا يجفوه إلا إذا تكبر عليه ، وأعرض عنه ، وهو رجل صاحب الضمير الحي الذي يحفظه ضميره من الدنيات الصغائر ، وهو يتحلى بالصفات الحميدة التي تكون كالهالة المضيئة تزيد بهجة وبهاء .

Dhaka University Institutional Repository

وتلك هي الصفات التى يتطلبها الشاعر في الرجل المثالي ، فإذا كان من الناس من يظنه أقل منه ، فهو مخطئ غبي ، يشبه من يرى ظل الكوكب في الماء فيحسبه أسفل منه ، وهو لم ير الكوكب حقيقة ، وإنما رأي ظله .

وهكذا أصبح الأدب رسالة إنسانية عامة تخدم قضايا البشرية كافة في جميع أنحاء العالم .

وفي نهاية المطاف يمكنني أن أقول بوضوح بأن كلا من الأديب والشاعر يجب أن يتخذ أدبه وشعره وسيلة فنية جميلة تخدم الحياة والمجتمع والإنسان ، والإنسانية ، فتمجد جميع القيم والأخلاق ، تقبح كل ما يخالفها ، تنصر قضية الحق والعدالة ترفض الظلم والباطل ، تؤيد الأمن والسلام ، تنبذ الإرهاب والعدوان ، فلا ينبغي لأحد من الأديب أو الشاعر أن يجعل فنه ظرفا يجسد فيه كل الشهوة والخلاعة ، لأن الطبع السليم لا يستطيع أن يعتبر مجونية الشعراء أو زندقتهم أدبا جميلا صالحا للإنسان والمجتمع ، فالأدب الخليع ولو كان جميلا ، فلن يأتى بأي نفع أو فائدة للإنسانية بل يدفعها نحو الدمار والانهيار .

فالأديب المثالي الذي يجب أن يحتذي به جميع الأدباء والشعراء هو أدب يجمع في طياته صيغا فنية جميلة ، وقيما أخلاقية وإنسانية شاملة ، وهو أدب يمثل بحق رسالة إنسانية عامة بحيث يصبح فنه بحق " رسالة إنسانية عامة " .

Dhaka University Institutional Repository

خاتمة

تناولت هذه الرسالة دراسة أدبية فنية بعنوان " طبيعة الأدب العربي ووظيفته الفنية منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث والمعاصر " وتتكون دراستي هذه من أربعة فصول ، خصصت الفصل الأول منها للحديث عن "الأدب " . ويحتوي هذا الفصل على مبحثين تحدثت في الأول منهما عن " مفهوم طبيعة الأدب العربي ووظيفته الفنية " حيث ذكرت فيه أن كلمة أدب كلمة عربية تغيرت طبيعة هذه الكلمة وتطورت وظائفها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلي أدوار الحضارة في العصور المختلفة . فقد استخدمت الكلمة في مراحلها الأولي بمعني "الداعي إلى الطعام " ثم انتقلت من هذا المعني الحسي إلى معنى التهذيب والخُلق ، ثم إلى المعني التعليمي والتربوي . وحدث تطور هام في مفهوم الأدب إثر انبلاج العصر الحديث ، فأخذت الكلمة تدل على التعبير عن معنى من المعاني الجميلة التي تؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعة الشعر وما سواه من الفنون الأدبية والأخرى ... فقدمتُ في هذا الصدد العديد من التعريفات التي يعرف بها الأدب العربي .

كما قدمت بجانب هذه التعريفات المزيد من الحقائق التي تثبت بوضوح أن الأدب بصورة أساسية يعد" تعبيرا عن الحياة ومرآة لمشاعر الإنسان ، وهو بالتالي يلعب دورا فعالا في صياغة وجدان الناس وطموحاتهم وتكوين شخصياتهم وتوجيه سلوكهم ، إلي جانب تصفية شعورهم ،وصقل ذوقهم وإرهاف إحساسهم واستثارة تفكيرهم وتعميق خبراتهم وتحريك خيالهم واستطلاع تجاربهم . ثم قمت باستعراض أهم الوظائف الأدبية الفنية من وظيفة الأدب وضرورته للحياة ، مع إلقاء الضوء على وظائفه التربوية والاجتماعية والنفسية والجمالية والثقافية والقومية .

Dhaka University Institutional Repository

و تحدثت في المبحث الثاني عن " الفنون الأدبية الشهيرة – مـــن الشعـــر والمقامـــة و القصة و المسرحية – وصلتها بنظرية " المحاكـــــاة " اليونانيـــة الشهيرة " فألقيت الضوء على هذه النظرية باعتبارها أهم وأقدم النظريات الأدبية في العالم ، وذكرت مدى استفادة العرب من هذه النظرية في فـــهم طبيعة الفنون الأدبية وإرساء دعائمها ومعاييرها ، وتحديد وظائفها الفنيـــة ، وإدراك قيمة فنية هامة تربط الفنون الأدبية بالحياة ، و تكشف عن الصلـــة بين الشعر وما سواه من الفنون الأدبية الأخرى .

وجعلت الفصل الثاني للحديث عن " الشعر" ويحتوي هذا الفصل على خمسة مباحث ، تحدثت في هذا المبحث الأول منها عن " مفهوم الشعـــر " وهو من أشهر وأقدم الفنون الأدبية وأكثرها انتشارا بين الناس منذ العصور الأولى .فقد قمت بعرض طائفة من تعريفات الشعر قديما وحديثا ، وقدمت بجانبها العديد من الحقائق الأساسية والتي حاولت خلالها تحديد هوية الشعر العربي الخالد والكشف عن طبيعته وإبراز مكانـــه بـــين الفنـــون الأدبيـــة الأخـــرى ، ثم توصلت أخـــيرا إلي أن الشعـــر هـــو " فيـــض تلقـــائي للعواطـــف ، يخلق بالمرء فوق الحياة ، ويزعمه أن يحس ما يرى ، وأن يرى ما يحس ، وأن يتخيل ما يعلم ، وأن يعلم ما يتخيل ، وهو يجعل القبيـــــح جمالا ، ويزيد الجمال نضرة وجلالاً. ويفجر في النفس ينابيع الأمن والفزع والسرور والألم ، ومن مهمته أن يؤثر في المتلقي ويحرك عواطفه وحواســـه الخامدة ومشاعره الراكدة ، وأن يملأ القلب ويشعر النفس بكل ما يستطيع البشرية احتمالـــه ، وعليه أن يسهم في الإصلاح الاجتمـــاعي والتأثـــير الروحي ، ويجب أن تكون غايته السمو بالناس إلي منزلة لا تبلغـــهم إياهـــا غرائزهم الساذجة وعواطفهم الطليقة ، وتطهير الروح عن طريق العواطف والإحساس ، وهو مسؤول عن الرقي الفكري والسمو بقومه إلي درجة من الفكر أعلى ومستوى من التصور أرقي ".

Dhaka University Institutional Repository

وتحدثت في المبحث الثاني عن " وظيفة الشعر في العصر الجاهلي " وأدركت فيه أن الاعتزاز بالقبيلة والدفاع عنها والإشادة بأمجادها والتحريض على محاربة الأعداء والتغني بانتصارات قومهم والصياح ببطولات أبطالهم الشجعان .. كانت من أهم وظائف الشعر في العصر الجاهلي . كما كان شعراء هذا العصر – بجانب هذه الوظائف الشعرية – ينظمون أشعارا في المدح ، والغزل والرثاء ، و وصف الأطلال والديار الدارسة ومشاهد الرحيل والمشاهد الطبيعية الصحراوية ،وبث الحكم والمواعظ والمعاني النبيلة والتهذيبية .

ومن ناحية أخرى كانت توجد في الجاهلية جماعة من الشعراء الذين يعرفون بالصعاليك ، وهم الفقراء الذين لا يملكون من المال ما يعينهم على أعباء الحياة . وضاقت بهم سبل العيش في ظل قبائلهم لاختلال الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك . فاتخذ هؤلاء الشعراء شعرهم وسيلة للتعبير عن ثورتهم وتمردهم علي تلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجائرة ، وبث فلسفتهم ومثلهم الإنسانية في الحياة . وخصصت المبحث الثالث للحديث عن " وظيفة الشعر في عصر النبوة والراشدين وبني أمية " وقد لاحظتُ أن ملامح الشعر ووظائفه الفنية قد تغيرت بظهور الإسلام الذي كان بمثابة حركة دينية وفكرية عظيمة . فأصبح الشعر بفضله أداة لخدمة الدين الإسلامي الحنيف ، وصارت مسألة " الدفاع عن الدين الحنيف ونشر قيمه وتعاليمه ومبادئه السامية ونصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونصرة قضية الحق والعدالة " وظيفة شعرية فنية خالدة في عصر الرسول صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم .

Dhaka University Institutional Repository

وفي العصر الأموي دخل الشعر إلي حياة جديدة لم يكن عهدا بهـــا في عصر النبوة والراشدين ، بل صار أداة لخدمة الأحزاب والفرق السياســية المنافسة في الحكم . فقد كان لكل حزب سياسي شعراء يتخذون من شعرهم وسيلة تدعم سياسة حزبهم وتعبر عن فلسفة ذلك الحزب ونظريته ، وتدافع عنه وتحتج له ، وتثبت حقه في الخلافة وتجادل خصومه وتشن هجوما عليهم ومن يقفون في صفوفهم .

وتحدثت في المبحث الرابع عن "وظيفة الشعر في العصـــر العباســي ". ولاحظت فيه أن الشعراء ظلوا ينظمون في الموضوعات الشعريـــة القديمـــة متطورين بها قليلا أو كثيرا ، وبذلك حافظوا على شخصية الشعر العـــربي الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية .

وقد امتزج المديح امتزاجا بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية ، والأحداث الكبيرة .... ، وتطور الهجاء بما أشاعوا فيه مـــن روح الاستخفاف والسخرية المريرة ، والفكاهة السامة ، و اتسعوا بالرثاء ، فرثوا المدن المنكوبة والحيوان ، والطير وتفننوا في الغزل بنوعيه النقـــي العفيـــف والماجن الصريح .

هذا ، وكثرت كذلك أشعار السياسة ، فكان هناك نفر من الشعـــراء ينظمون أشعارهم في الأحزاب السياسية التي ينتمون إليها ، فيدافع كل من الشعراء عن حزبه ويحتج له ، ويثبت حقه في الخلافة ، ويرد ردا عنيفا على خصومه .

وجعلتُ المبحث الخامس للحديث عن "وظيفة الشعر في العصر الحديث والمعاصر ". وذكرت في هذا الصدد أن أهم الوظائف الشعرية الفنية الـــتي يؤديها الشعراء في هذا العصر هي : التعبير عن ذات الإنسان وهمومـــه ، وطموحاته ، وتسجيل جميع القضايا الاجتماعيـــة والوطنيـــة والسياســية

Dhaka University Institutional Repository

والأحداث الجارية في المجتمع ، وأصدائها في نفوس الإنسان والتغني معه بما يريد ، وحثه على العمل من أجل تحقيق سعادته وسعادة أبناء مجتمعه .

أما الفصل الثالث فهو يتكون من ثلاث مباحث تحدثت في المبحث الأول منها عن " المقامة " وهي من أروع الفنون الأدبية النثرية المستحدثة والتي تعتمد علي الحكاية الوجيزة أو القصة القصيرة تنطوي علي المغامرات ، وتبني علي الكدية والاستعطاء ، ويسودها أسلوب درامي جميل . وقد اخترع هذا الفن الأدبي الرائع أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني (المتوفى ٣٩٨) ،ثم حذا حذو الهمداني أبو القاسم محمد ابن على بن محمد بن عثمان الحريري (المتوفى ٥١٦هـ) فأنشأ المقامة وأعطاها بعدا قصصياً نفسيا يضيء جوانب شخصية البطل من جهة ويخلع على العمل الأدبي روح القصة الحقيقية من جهة أخرى .

وذكرت أهم وأبرز خصائص المقامة وميزاتها ثم درست مقامه من أجمل مقامات بديع الزمان الهمداني ، وهي "المقامة القريضية" التي هي أولى ومن أنجع مقامات الهمداني ، وأدقها وصفا لأحوال الحياة الاجتماعية والفكرية في القرن الرابع الهجري ، فيصور لنا في هذه المقامة الاستجداء والتكدي الذي يعيشه الفقراء وكيفية تحول رجال العلم والفن والأدب إلي مكديين يتخذون علمهم حرفة يطلبون بها لقمة العيش على الرغم من أصالة نسبهم خلال الفترة المذكورة .

ومضيت أتحدث في المبحث الثاني عن "القصة "وهي إحدى الفنون الأدبية النثرية الجميلة التي تقوم على الحكاية والسرد ، وصراع الشخصيات والحوار بينهم . فقد تحدثت عن نشأة القصة وتطورها التدريجي لدي العرب ، وتأثر القصة العربية بالقصة الغربية في أسلوبها ومضمونها وصيغتها الفنية . ودرست في هذا الصدد قصة قصيرة بعنوان : " دومة ودٌّ حامد " للأديب السوداني المعاصر الطيب صالح ، وتقوم هذه

Dhaka University Institutional Repository

القصة أساسا على الصراع بين الحياة الحضارية الجديدة والعقـــائد الدينيـــة القديمة لدى أهل قرية من القرى السودانية . وقد حـــاول فيـــها الكـــاتب توضيح هذه الحقيقة أن فرض التجديد الذي يقلـــب الأوضـــاع القديمـــة الفاسدة دون تمهيد لا يقبل بسهولة في المجتمع الريفي ، بل يحارب في عناد ، وإنما يتم التجديد وتنتشر الحضارة تدريجيا ، وتتداخل شيئا فشيئا مع القديم بانتشار العلم والمعرفة ووقوف الناس على ما يعود عليهم بالنفع والخـــير في ظل الحياة الحضارية ، فتتحسن أحوالهم ، وحينئذ يهجرون تلـــك الأنمـــاط والتقاليد الفاسدة طواعية .

ووقفت في المبحث الثالث عند "المسرحية" وهي من أجمل الفنون الأدبية التي ظهرت في حياة الإنسان منذ العصور القديمة . فقد حـــددت مفـــهوم المسرحية وألقيت الضوء علي نشأتها وتطورها التدريجي لدي العـــرب ، ثم درست مسرحية من أجمل المسرحيات الفنية الحديثة وهي "مسرحية أهـــل الكهف" للأديب المسرحي العربي الكبير توفيق الحكيم (المتوفى ١٨٩٨م) وتعتبر هذه المسرحية مسرحية أسطورية خيالية عالج فيها الأديب مشكلـــة الصراع بين الإنسان والزمان منذ فجر التاريخ . وحاول الكاتب من خلال أحداث هذه المسرحية أن يوضح لنا هذه الحقيقة وهي أن الحياة بطبيعتـــها تتغير وتتجدد بتغير الزمان وتجدده ،وأن هذا التغيير أو التجديد الذي يقلب الأوضاع القديمة يعد من الأمور التي يصعب على عامـــة النـــاس قبولهـــا بسهـــولة . ولذلك ينبغي أن يتداخل هذا التغيير أو التجديد تدريجيا شيئـــا فشيئا مع الأوضاع القديمة ، فيتغلب عليها بانتشار العلم والمعرفة ،و وقوف الناس على ما يعود عليهم بالنفع والخير في ظـــل الحيـــاة الجديـــدة . وإلا ستصيب هذه الحياة الجديدة للإنسانية من بؤس وشقاء .

أما الفصل الرابع فخصصته للحديث عن " الأدب وظيفته الإنســـانية العامة :" حيث درست فيه مسألة التزام كـــل مـــن الأديـــب والشـــاعر

Dhaka University Institutional Repository

بمسئوليتـــه ، إزاء الحياة والمجتمع والإنسان والإنسانية في جميع أنحاء العـــالم بغض النظر عن لون وجنس . وأكدت على أن كلا من الأديب والشـــاعر يجب أن يتخذ فنه وسيلة تخدم الإنسان والإنسانية و تمجد القيم والأخـــلاق وترفض كل ما يخالفها وتؤيد الحق العدالة ، والأمن والسلام وتنبذ الظلـــم والباطل ، والإرهاب والعدوان . فلا ينبغي لأحد منهما أن يجعل فنه ظرفـــا يجمع فيه كل الشهوة والخلاعة بل يجب عليه أن يجعله أدبا مثاليا يجمـــع في صفحاته صيغا فنية جميلة وقيما أخلاقية وإنسانية بحيث يصبح فنـــه بحـــق " رسالة إنسانية عامة " .

وفي الختام آمل أن أكون قد وقفت ، كما أرجو المعذرة إذا بدا مـــني أي تقصير ، أو سهو أو نسيـــان ، فالله أسأل أن يجعل عملي خالصـــا لوجهـــه الكريم ، أنه قريب مجيب .

Dhaka University Institutional Repository

قائمة بأسماء المصادر

أولاً : المصادرِ الدينية :

١ - المصحف الشريف.

٢ - الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القُرَشِيُّ. "تفسير القرآن العظيم" دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣ - الإمام محمد بن جرير الطبرى "المفسر الميَسَّر" - مختصر تفسير القرآن الكريم - نشر إذاعة القرآن الكريم بليبيا، مطابع الشروق، ١٤٠١هـ.

٤ - الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى سورة الترمذى، "الجامع الصحيح" طبع كتب خانه دلهى، الهند.

٥ - الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن أثير، "النهاية فى غريب الحديث و الأثر" تحقيق طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطفاحى، طبع دار الباز للنشر و التوزيع" مكة المكرمة.

٦ - العلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الهندى، "كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال "ضبطه و فَسَّرَ غريبه الشيخ بكرى حياتى، تصحيح الشيخ صفوة السقا، طبع مؤسسة الرسالة بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ثانيًا : المصادر العامة :

٧ - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، "المقدمة" نشر على عبد الواحد وافى، طبع لجنة البيان العربى، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

٨ - أبو عبد الله عبد السلام الجمحى "طبقات الشعراء" تقديم يوسف هارون، طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣م.

٩ - أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى، "معجم الشعراء" تحقيق عبد الستار أحمد فراج، طبع القدسى القاهرة ١٣٥٤هـ.

١٠ - أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ "الحيوان" تحقيق و شرح الأستاذ/عبد السلام هارون، طبع مكتبة الخانجى القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

Dhaka University Institutional Repository

١١ - أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ "البيان و التبيين" تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجى القاهرة، ١٣٨٨هـ.

١٢ - أبو على حسن بن رشيق القيروانى "العمدة فى صناعة الشعر و نقده" نشر محى الدين عبد الحميد، الطبعة السادسة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٥٥م.

١٣ - أبو الفرج على بن الحسين الإصفهانى "الأغانى" نشر و طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٥هـ. و نشر محمد ساسى المغربى مطبعة التقدم، القاهرة، لا تاريخ له.

١٤ - أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى. "الإصابة فى تمييز الصحابة" مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٣هـ.

١٥ - أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر "تاريخ دمشق" مطبعة دمشق ١٣٢٩هـ.

١٦ - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة "الشعر و الشعراء" تصحيح محمد بدر الدين الحلبى، مطبعة التقدم القاهرة، الطبعة الأولى.

١٧ - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة "عيون الأخبار" طبع دار المأمون القاهرة.

١٨ - أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى "السيرة النبوية" قدم و علق عليها و ضبطها طه عبد الرؤوف سعد، طبع دار الجيل بيروت ١٩٧٥م.

١٩ - أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، "تهذيب اللغة" تحقيق عبد السلام هارون، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٣٨٤هـ.

٢٠ - د. إحسان عباس "فن الشعر" دار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة.

٢١ - أحمد حسن الزيات "تاريخ الأدب العربى" مطبعة دار الثقافة بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة و العشرون.

٢٢ - د. أحمد زكى بدوى، "معجم المصطلحات فى العلوم الإجتماعية" مكتبة لبنان بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٢٣ - أحمد قبش "تاريخ الشعر العربى الحديث" طبع دار الجيل بيروت، لبنان ١٣٩١هـ.

Dhaka University Institutional Repository

٢٤ - أحمد الهاشمى "جواهر الأدب فى أدبيات و إنشاء لغة العرب" دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثلاثون.

٢٥ - د. أميرة حلمى مطر، "فى فلسفة الجمال من أفلاطون إلى سارتر" طبع دار الثقافة القاهرة.

٢٦ - د. بدوى طبانة "دراسات فى نقد الأدب العربى" الطبعة الخامسة، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٩م.

٢٧ - د. بكرى شيخ أمين "مطالعات فى الشعر العثمانى و المملوكى" منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٢٨ - المعلم بطرس البستانى "محيط المحيط" قاموس مطول للغة العربية، طبع مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧م.

٢٩ - توفيق الحكيم "مسرحية أهل الكهف" دار مصر للطباعة القاهرة ١٩٧٣م.

٣٠ - جرجى زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" مطبعة الهلال بمصر، الطبعة الثانية ١٩٢٤م.

٣١ - حازم بن محمد القرطاجنى "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" تحقيق أ. محمد الحبيب الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦م.

٣٢ - د. خريستونجم "جميل بثينة و الحب العذرى" تقديم د. ياسين أيوبى، دار الرائد العربى بيروت، لبنان ١٤٠٢هـ.

٣٣ - خير الدين الزركلى "الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء العرب و المستعربين و المستشرقين - دار الملايين بيروت، لبنان.

٣٤ - د. رجاء عيد "فلسفة الالتزام فى النقد الأدبى بين النظرية و التطبيق" مطبعة دار الثقافة، القاهرة.

٣٥ - زكى نجيب محفوظ "فلسفة و فن" مطبعة لجنة التأليف و النشر، القاهرة ١٩٦٣م.

٣٦ - سامى الخورى، و جاك الديك "الدليل الأدبى" طبع دار النهار للنشر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

Dhaka University Institutional Repository

٣٧ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" العصر الجاهلى، الطبعة الثامنة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م.

٣٨ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" - العصر الإسلامى - الطبعة السابعة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م.

٣٩ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" - العصر العباسى الأول - دار المعارف القاهرة ١٩٦٦م.

٤٠ - د. شوقى ضيف "دراسات فى الشعر العربى المعاصر" طبع و نشر مكتب الدراسات العربية القاهرة، الطبعة السابعة.

٤١ - د. شوقى ضيف "الفن و مذاهبه فى الشعر العربى" دار المعارف بمصر، الطبعة التاسعة ١٩٨٦م.

٤٢ - د. طه حسين، "حديث الأربعاء" طبع دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٤م.

٤٣ - الكاتب الطيب صالح "القصص القصيرة" طبع دار المعارف السودانية، الخرطوم.

٤٤ - د. عاطف جودة نصر "الرمز الشعرى عند الصوفية" طبع دار الإندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٤٥ - د.عبد الحميد عبد الله الهرامة "أعمال ندوة التوصل الثقافى بين أقطار المغرب العربى" طبع كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، ليبيا ١٩٩٨م.

٤٦ - د. عبد الحميد محمد المسلوت "الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام "منشورات جامعة قاريونس بنغازى، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٤٧ - عبد القاهر الجرجانى "دلائل الإعجاز" دار المعرفة بيروت ١٩٨٦م.

٤٨ - د. عبد المنعم خضر الزبيرى "مقدمة لدراسة الشعر الجاهلى" منشورات جامعة قاريونس بنغازى، ليبيا ١٩٨٠م.

٤٩ - د. عز الدين اسماعيل "الأدب و فنونه" - دراسة و نقد - طبع و نشر دار الفكر العربى، مطبعة السعادة القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٧٦م.

٥٠ - على محمد حسن العمارى "التاريخ الأدبى" مطبعة الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٤٠١هـ.

Dhaka University Institutional Repository

٣٧ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" العصر الجاهلى، الطبعة الثامنة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م.

٣٨ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" - العصر الإسلامى - الطبعة السابعة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م.

٣٩ - د. شوقى ضيف "تاريخ الأدب العربى" - العصر العباسى الأول - دار المعارف القاهرة ١٩٦٦م.

٤٠ - د. شوقى ضيف "دراسات فى الشعر العربى المعاصر" طبع و نشر مكتب الدراسات العربية القاهرة، الطبعة السابعة.

٤١ - د. شوقى ضيف "الفن و مذاهبه فى الشعر العربى" دار المعارف بمصر، الطبعة التاسعة ١٩٨٦م.

٤٢ - د. طه حسين، "حديث الأربعاء" طبع دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٤م.

٤٣ - الكاتب الطيب صالح "القصص القصيرة" طبع دار المعارف السودانية، الخرطوم.

٤٤ - د. عاطف جودة نصر "الرمز الشعرى عند الصوفية" طبع دار الإندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٤٥ - د.عبد الحميد عبد الله الهرامة "أعمال ندوة التوصل الثقافى بين أقطار المغرب العربى" طبع كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، ليبيا ١٩٩٨م.

٤٦ - د. عبد الحميد محمد المسلوت "الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام "منشورات جامعة قاريونس بنغازى، ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٤٧ - عبد القاهر الجرجانى "دلائل الإعجاز" دار المعرفة بيروت ١٩٨٦م.

٤٨ - د. عبد المنعم خضر الزبيرى "مقدمة لدراسة الشعر الجاهلى" منشورات جامعة قاريونس بنغازى، ليبيا ١٩٨٠م.

٤٩ - د. عز الدين اسماعيل "الأدب و فنونه" - دراسة و نقد - طبع و نشر دار الفكر العربى، مطبعة السعادة القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٧٦م.

٥٠ - على محمد حسن العمارى "التاريخ الأدبى" مطبعة الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٤٠١هـ.

Dhaka University Institutional Repository

٥١ - د. عمر فاروخ "تاريخ الأدب العربى" دار العلم للملايين بيروت، الطبعة السادسة ١٩٩٢م.

٥٢ - فؤاد أفرام البستانى "منجد الطلاب" طبع دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية بيروت، الطبعة التاسعة عشرة ١٩٧٥م.

٥٣ - قدامة بن جعفر البغدادى "نقد الشعر" تصحيح د. س. أ. بوكيباكر، مطبعة بريل بمدينة ليدن ١٩٥٦م.

٥٤ - كارل بروكلمان "تاريخ الأدب العربى" تعريب د. عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩م.

٥٥ - كارل نالينو "تاريخ الآداب العربية" - من الجاهلية حتى عصر بنى أميه - طبع دار المعارف، القاهرة.

٥٦ - مجدى وهبه و كامل المهندس "معجم المصطلحات العربية فى اللغة و الأدب" طبع مكتبة لبنان بيروت، ١٩٧٩م.

٥٧ - د. محمد أحمد العزب "عن اللغة و الأدب و النقد" - رؤية تاريخية ... و رؤية فنية - طبع المركز العربى للثقافة و العلوم، بيروت، لبنان.

٥٨ - محمد تيمور "الأدب الهادف" المطبعة النموذجية القاهرة ١٩٥٩م.

٥٩ - محمد عثمان على "فى الأدب الإسلامى" - عصر النبوة و الراشدين و بنى أمية - طبع دار الأوزاعى بمصر.

٦٠ - د. محمد غنيمى هلال، "دراسات و نماذج فى مذاهب الشعر و نقده" دار نهضة مصر للطبع و النشر القاهرة.

٦١ - د. محمد منذور "الأدب و مذاهبه" طبع دار النهضة للطبع و النشر، القاهرة.

٦٢ - د. مصطفى الشكعة "مناهج التأليف عند علماء العرب" طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩م.

٦٣ - منير البعلبكى "المورد" (قاموس إنكليزى - عربى) دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.

٦٤ - هانز ڤير "معجم اللغة العربية المعاصرة" (عربى - إنجليزى) وضع ج ميلتون كوان، مكتبة لبنان بيروت، مكدونالد و إيفانس لينتد لندن ١٩٨٠م

Dhaka University Institutional Repository

ثالثًا : الدواوين والمختارات الشعرية ومجاميع النصوص الأدبية :

أ - الدواوين :

٦٥ - "ديوان أبى الأسود الدؤلى" صنعة أبى سعيد السكرى، تحقيق محمد حسن آل ياسين، طبع دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٤م.

٦٦ - "ديوان أبى تمام حبيب بن أوس الطائى"، طبع دار المعارف القاهرة ١٣٩٢هـ.

٦٧ - "ديوان أبى حرزه جرير بن عطية التميمى" شرح إيليا حاوى، طبع دار الكتب اللبنانى، بيروت ١٩٨٢م.

٦٨ - "ديوان أبى الحارث ذى الرمه غيلان بن عقبة العدوى" طبع المكتب العربى للطباعة و النشر، بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٤م.

٦٩ - "ديوان أبى فراس همام بن غالب الدارمى الشهير بالفرزدق" جمع محمد جمال، المطبعة الوطنية بيروت ١٩٣٣م.

٧٠ - "ديوان احمد شوقى" - الشوقيات" المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٧٠م.

٧١ - "ديوان أوس بن حجر التميمى" نشر محمد يوسف نجم، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٠هـ.

٧٢ - "ديوان حافظ إبراهيم" ضبطه و صححه و شرحه أحمد أمين، و أحمد الزين و إبراهيم الأبيارى، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٥م.

٧٣ - "ديوان حسات بن ثابت الأنصارى (رضى)" تحقيق د. وليد عرفات، طبع دار صادر بيروت ١٩٧٤م.

٧٤ - "ديوان الخنساء - تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمى (رضى)" منشورات دار الفكر، بيروت، لبنان.

٧٥ - "ديوان زهير بن أبى سلمى" نشر كرم البستانى، دار صادر بيروت، لبنان.

٧٦ - "شرح ديوان زهير بن أبى سلمى" صنعة أبى العباس ثعلب، نشر و طبع دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦٣هـ.

Dhaka University Institutional Repository

٧٧ - "ديوان عبد الله بن قيس النابغة الجعدى" طبع منشورات المكتب الإسلامى دمشق، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

٧٨ - "ديوان عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة" طبع دار صادر بيروت.

٧٩ - "ديوان كعب بن زهير بن أبى سلمى" شرح أبى سعيد السكرى، طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٠م.

٨٠ - "شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامرى (رضى)" نشر د. إحسان عباس، مطبوعات وزارة الإرشاد و الأنباء، الكويت ١٩٦٢م.

٨١ - "شرح الهاشميات" محمد محمود الرافعى، مطبعة التمدن الصناعية القاهرة.

٨٢ - "ديوان الهذليين" طبع دار الكتب المصرية الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة ١٣٨٤هـ.

ب - المختارات الشعرية :

٨٣ - "الأصمعيات" "ديوان العرب" - مجموعات عيون الشعر - اختيار أبى سعيد عبد الملك قريب بن عبد الملك الأصمعى، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة.

٨٤ - "المعلقات العشر و أخبار شعرائها" شرح الشيخ أحمد أمين الشنقيطى، طبع دار الأندلس بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.

٨٥ - "المفضليات" اختيار أبى العباس المفضل بن محمد الضبى، تحقيق أحمد محمد شاكر، و عبد السلام محمد هارون. طبع دار المعارف القاهرة.

ج - مجاميع النصوص الأدبية :

٨٦ - "الأدب و النصوص" جمع السباعى بيومى، محمد خلف الله، محمد الدسوقى شوقى ضيف، عبد الحميد حسن، طبع دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨م.

٨٧ - "الأدب و النصوص و البلاغة و النقد" جمع محمد صلاح الدين موسى، إبراهيم مرسى العباس، عبد الفتاح أحمد أبو زايدة، مطابع إديتار إيطاليا ١٩٩٩م.

Dhaka University Institutional Repository

٨٨ - "القراءة و المحفوظات" جمع أبى الفتوح عطية سالم، عبد الله محمد أبو شعالة، رمضان سعد القماطى، مطابع شركة إنترغراف روما ١٩٩٠م.

٨٩ - "النصوص الأدبية" جمع حنفى عبد الله الحنفى، محمد محرم المصرى، دار الأصفهانى للطباعة جدة بالسعودية ١٤٠٠هـ.

٩٠ - "النصوص الأدبية" جمع صالح المالك، عبد الرحمن العقيل، محمد أبو معطى، عبد الكريم محمد أسعد، مطبعة وزارة المعارف بالسعودية ١٣٩٦هـ.

٩١ - "النصوص الأدبية" جمع محمد صلاح الدين موسى، عمر أحمد الفرجانى، أحمد محمد شرف، د. زهير ياسين، على محمد كريدغ، صالح عبد السلام البغدادى، مطابع إديتار إيطاليا ١٩٩٨م.

رابعًا - الصحف و المجلات :

٩٢ - "صحيفة الجماهيرية" - صحيفة يومية شاملة - تصدر عن بنغازى، ليبيا، أمين لجنة التحرير عبد الرزاق مسعود الداهش.

٩٣ - "صحيفة الفجر الجديد" - صحيفة يومية شاملة - تصدر عن طرابلس، ليبيا، تشرف عليها المؤسسة العامة للصحافة. أمين التحرير على محمد قجام.

٩٤ - "صحيفة الزحف الأخضر" - صحيفة يومية شاملة - تصدر عن بنغازى، ليبيا، و تشرف عليها حركة اللجان التورية.

٩٥ - "مجلة الفصول الأربعة" مجلة فكرية تصدر مرة كل ثلاثة أشهر عن اتحاد الأدباء و الكتاب بليبيا. رئيس التحرير د. على فهمى خشيم.

٩٦ - مجلة "المنهل" - مجلة شهرية للآداب و العلوم و الثقافة - رئيس التحرير نبيه بن عبد القدوس الأنصارى تصدر عن جدة بالمملكة العربية السعودية.